وزارة التعليم العالي
جامعة الجزائر
معهد التاريخ

مجلة الدراسات التاريخية

مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ - بجامعة الجزائر



العدد الأول
السنة 1406 هـ
1986 م

وزارة التعليم العالي
جامعة الجزائر
معهد التاريخ

مجلة الدراسات التاريخية

مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ - بجامعة الجزائر



العدد الاول

السنة 1406 هـ
1986 م

العدد الأول — السنة الأولى 1406 هـ / 1985 م

مدير المجلة : **ناصر الدين سعيدوني**

الأمانة العامة : **عمر بن خروف و عائشة غطاس**

محتوى العدد

تقديم المجلة

بقلم محمد الصغير بناني رئيس جامعة الجزائر

ان للتاريخ فرصا سانحة... ولكتابة التاريخ فرص سانحة... وتقييد التاريخ بالكتابة هو في نفس الوقت تأبيد لتلك الفرص وتلقيح لغرها... ولا يلقح من الغرر الا ما اتحدت فيه الحقيقة الكتابية بالحقيقة التاريخية...

وصدور أول عدد لمجلة الدراسات التاريخية. بعد صدور كراسات العلوم الاقتصادية ومجلة علم النفس وعلوم التربية. وعشية صدور مجلة معهد اللغة والأدب العربي ومجلات أخرى تعتزم اصدارها المعاهد الجديدة التابعة لجامعة الجزائر والناشئة عن التنظيم الهيكلي الذي أدخلته الخريطة الجامعية . يعد هو الآخر فرصة سانحة للاخصاب والانجاب. لأن الكتابة هنا ستتحد بالتاريخ والوجود بالوجدان.

ولهيئة التدريس والمسؤولين بمعهد التاريخ الحق في أن ينظروا الى هذا الحدث في شيء من الغبطة والابتهاج. ذلك أنهم سيجدون في مجلتهم من الآن فصاعدا المكان المفضل لشحذ تجاربهم واستدرار قرائحهم والتعريف بنشاطاتهم العلمية والتربوية وربط الصلة بينهم وبين زملائهم في الداخل والخارج.

ثم ان هذه المجلة ستمكنهم من الثأر لأنفسهم من «التاريخ» بالمساهمة في اعادة كتابته والعمل على إزالة ما لحقه من الضيم خلال فترة الاحتلال في رحاب هذه الجامعة بالذات... ومن ايجاد منهجية صحيحة لتناوله تناولا موضوعيا خليقا بأن يزرع فيه الحياة ويحميه من شوائب الزمان.

ولأن هذه المجلة تطمح الى أن تكون ملتقى فكريا للمتخصصين في التاريخ والحضارة والآثار والاجتماع ومخبرا علميا متعدد التخصصات لانجاز بعض المشاريع المبرمجة في مخطط الجامعة

كوضع مؤلف شامل لتاريخ حضارتنا منذ العصور الغابرة وإخراج فيلم وثائقي يبرز أهم جوانب هذه الحضارة ويروي معظم حياة تلك الأجيال.

وأخيرا. لأن من وراء هذه الأهداف كلها. هناك دين قد تعلق بذمة جامعتنا منذ زمن بعيد يتعين على هذه المجلة أن تؤديه اليوم. وهو استئناف تلك التقاليد العريقة في ثقافتنا والتي تجعل من كتابة التاريخ جزءا من التاريخ ومن الكيفية الخاصة التي ينبغي أن يتناول بها. مما ارتسمه له بعض عمداء هذا الفن أمثال الطبري وابن خلدون. احد أوسمة النبل التي أحرزت عليها ثقافتنا بين ثقافات العالم والتي هي لنا اليوم موطن اعتزاز ومصدر الهام نستمد منه قوتنا لبناء الحاضر والتفاؤل بالمستقبل.

وبعد. وان كان لا بد من الاعلان عن نوع الحقيقة التاريخية التي نبحث عنها فاننا نقول: أنها ليست مجرد اتفاق العقل مع الوجود الخارجي أو كما يقول الماديون «مطابقة الفكرة للشيء أو للوجود الخارجي». حيث تقاس درجة الحقيقة بدرجة مطابقتها للحاجات العملية وما ينجرّ عن ذلك في آخر التحليل من بناء للعالم بناء يقوم على معطيات مادية بحتة وتصور للتاريخ باعتبار العوامل الاقتصادية فحسب.

كما انها ليست «تجلي الواقع للمدرك» كما يقول الوجوديون حيث يتصور المدرك الواقع كما يشاء في حرية تامة فتكون تارة ذاتية وتارة نسبية وتارة تاريخية. لأنها نتيجة لفعل حر من المدرك ولأن لا معنى لها الا لكونها في نفسه... وما ينجم عن ذلك من تصور للمجتمع تصورا خاليا من المسؤولية منعدما من التعاون والتكامل. تصورا يكون الغير فيه هو الجحيم...

وهي ليست «مجموع الأمور الحاضرة الناشئة عن التطور التاريخي»، كما يقول دعاة «المذهب التاريخي» الذين يرون أن اللغة والأخلاق والعادات ناشئة عن ابداع جماعي لا شعوري ولا ارادي، وانها قد بلغت الآن غايتها. ولا يمكن تبديل نتائجها بالقصد. مما هو غلق لباب الاجتهاد ونفي لقدرة الانسان على التطوير والتحسين وبالتالي على الاستفادة من التاريخ...

بل انها ليست حقيقة تنتهي حدودها داخل مجرى التاريخ اليهودي النصراني والثقافة الاغريقية اللاتينية كما تصور ذلك مؤرخو الغرب ومنظرو العهد الاستعماري مما أدى الى تجاهل الحقائق الأخرى وانتهاك حرماتها...

كما انها ليست حقيقة مطلقة كالتي يرمي اليها المتصوفة وبعض الغالية من أهل ديننا لأن هذه الحقيقة ليست في نهاية الأمر من الحقائق الدنيوية ولا من مقتضيات هذا الكون...

ان الحقيقة التاريخية التي نبحث عنها اليوم والتي نريد تأييدها هي التي ما انفك اعلام التاريخ في ثقافتنا العربية الاسلامية ينشدونها... وهي التي كانت اللقاح الخصب الذي أنجب ثورتنا التحريرية... والاطار الفلسفي والعملي الذي برزت سماته في جبهة محرري هذا البلد.

فهذه الحقيقة أسمى من أن تكون مجرد عمل فردي ارادي أو لا شعوري، أو تكون مذهبا فلسفيا أو انتاجا ثقافيا أو حضاريا محددا.

انها أولا تحقيق لارادة الخالق في هذا الكون. والخالق لم يخلق الكون عبثا ولم يوجد الناس ليتركهم سدى...

وهذه الارادة تتجلى في الكون على يد الانسان... فهو صاحب الرسالة وحامل الأمانة بعد أن استخلف في الأرض وفضل على سائر المخلوقات: «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» (الاسراء ـ 69) ومن ثم فهو مطالب بتأدية الأمانة والحفاظ عليها وموكل بالسهر عليها باستعمال كل ما يقتضيه ذلك من اجتهاد في التفكير وصواب في التدبير وزيادة في الانماء والتعمير.

ثم انها حقيقة واحدة لتاريخ واحد: حقيقة تتجلى فيها وحدة الجنس البشري على اختلاف أنواعه وألوانه... وتاريخ يتحد فيه مشروع الخالق وصنعة المخلوق: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (الشورى ـ 12).

وأخيرا وان كان التاريخ ـ على حد تعبير بعض القدماء ـ هو العلم بما كان فان ما كان لا معنى له الا باعتبار العلم بما يكون. ولذلك فان حقيقتنا تسعى الى تحقيق العدل والسلم بين الناس وتدعو الى التحاب والتآخي والى التعاون والتآزر للتغلب على البؤس والجوع والتحرر من الظلم والجور...

هذه هي الحقيقة التاريخية التي ننشدها. وهي حقيقة لا تتجلى الا اذا قيدت بكتابة تتميز هي الأخرى بالسمو عن الزور والتعالي عن الباطل. نقول هذا مع العلم ان الكتابة الانسانية مهما تفننت أشكالها وتطورت أساليبها. ادخل في باب الاشارات والرمز منها في باب الدلائل المعبرة بصدق عن الحقائق الواقعة. ثم ان الكتابة موضوعة للدلالة على الألفاظ الدالة على المعاني النائبة عن الأحوال والوقائع. فهي بهذا أقرب الى التحريف منها الى التشخيص والتمثيل. بل قد تكون تقييدا لمكتوب دال على ألفاظ غير ألفاظنا وترجمة لمعاني معبرة عن تجارب غير تجاربنا. كيف والتحريف قد يكون مقصودا والتزوير مجعولا لاظهار الباطل في صورة الحق. كما كان الشأن عند كتابة تاريخنا بأقلام غير أقلامنا وفي معان لا تماشي وواقعنا. لأنها كانت تعبر عن حقيقة أصحابها وترمي الى تقييد التاريخ لا كما كان ولكن كما كانوا يريدونه أن يكون... فالكل يعرف اليوم ان الحقيقة التاريخية شيء وفهمنا لها شيء آخر وأفهامها لغيرنا شيء ثالث وقصدنا الى التضليل شيء رابع... وفي هذه الحالات كلها قد نقع في الخطأ اذا لم يكن وازعنا الوحيد الحرص على «تأدية الأمانة» الانسانية على أكمل وجه...

هذه هي الاعتبارات التي جعلتنا نتفاءل اليوم بصدور أول عدد من مجلتنا ونبتهج بعودة حقيقتنا التاريخية الى نصابها وكتابتها الى أصحابها.

محمد الصغير بناني

كلمة المجلة

يسعدنا أن نقدم اليكم هذا العدد من مجلة الدراسات التاريخية التي يصدرها معهد التاريخ ـ جامعة الجزائر ـ آملين أن يكون هذا المولود الجديد الذي يرى النور ـ والدعوة قائمة لاعادة كتابة تاريخ الجزائر ـ وسيلة فعالة في الرقي بالبحث العلمي وأداة صالحة لطرح القضايا التاريخية ومعالجتها بنظرة موضوعية.

ان صدور هذا العدد الأول من مجلة الدراسات التاريخية يحمل في طياته بلا شك ـ بذرة العمل الجاد والتعاون العلمي المثمر. الذي نتمنى أن يتواصل ويتدعم ويؤتي أكله بما يساهم به أعضاء هيئة التدريس بالمعهد وغيرهم من ذوي الاختصاص والكفاءة. وذلك خدمة لقضايا تاريخنا الجزائري بصفة خاصة والتاريخ العربي والعالمي بصفة عامة.

هذا واذ تؤكد ادارة مجلة الدراسات التاريخية على أن الأفكار والآراء التي ترد ضمن صفحاتها لا تعبر بالضرورة الا عن آراء أصحابها. فانها في نفس الوقت تسعى جاهدة لأن تكون منبرا حرا للمناقشة والحوار العلمي الهادف في جو من النزاهة والصراحة والمسؤولية التي تفرضها الدراسات الجامعية المختصة وتتطلبها الأبحاث الأكاديمية الرائدة.

ع. هيئة تحرير المجلة
ناصر الدين سعيدوني

أولا :

دراسات وأبحاث

نظرة على الوضع الديمغرافي والاجتماعي في المغرب أثناء الاحتلال الروماني (*)

محمد البشير شنيتي

عرف المغرب في العهد الروماني ظاهرة ديمغرافية متميزة ، كان أساسها تواجد بشري متنوع الأصول والاعراق وبنية اجتماعية معقدة التركيب وأوضاع قانونية ومدنية متباينة.

عناصر السكان :

يمكن أن ترجع عناصر السكان الذين ضمتهم خريطة المغرب البشرية في العهد الروماني الى مجموعتين كبيرتين :

- مجموعة الأهالي.
- ومجموعة الوافدين.

أ ـ الأهالي :

نعني بالأهالي مجموع السكان الذين تواجدوا بالمغرب منذ فجر التاريخ. وكانوا قبائل متنوعة وشعوبا كثيرة العدد مختلفة الأنماط. فيهم البدو والرعاة والحضر والزراع. وجاء ذكرهم في المصادر اليونانية القديمة (هيرودوت) مصنفين[1] نمطيا الى صنفين كبيرين تبعا لطبيعة الاقليم الذي كانوا يتواجدون فيه. وورد في المعطيات الأثرية ما

* بحث قدم في المؤتمر الدولي الثاني لحضارة وتاريخ المغرب، وهران، نوفمبر 1982.

يشير الى صحة الاخباريين اليونان بخصوص الليبيين القدامى.

وأهم المجموعات البشرية التي كان ينتمي اليها الأهالي والتي ورد ذكرها في النصوص القديمة وفي النقوش الأثرية ما يلي :

الموريون في الغرب، والنوميديون في الشرق، والجيتوليون في الداخل بمحاذاة الموريين والنوميديين، ثم الفاروسيون في الجنوب الغربي والغرامنتيون في الجنوب الشرقي.

وقد تضمنت كل مجموعة كبرى قبائل عتيدة اشتهر بعضها في تاريخ المقاومة ضد الاستعمار الروماني كقبائل البقواط[2] والبوار[3] المنتمية الى مجموعة الموريين، وقبائل الموزولامي[4] الضاربة في بلاد النوميديين والجيتوليين[5]، ثم القبائل التي عرفت في النصوص اللاتينية بقبائل الحنف الخماسي[6] الضاربة بمنطقة الصومام.

كان المزارعون من الأهالي يعيشون في قرى أو مدن تركز معظمها بالمناطق الداخلية مثل سيكا (الكاف) وزاما وتبسة ودقة وكيرتا (قسنطينة) ووليلي (قصر فرعون) وسيغا. كما أقام الأهالي بمراكز عمران ساحلية، وخاصة تلك التي أقامها الفينيقيون منذ حلولهم بشواطئ المغرب القديم.

ورغم أن النصوص القديمة تشير الى غلبة الطابع الرعوي وظاهر الترحال على الزراعة والاستقرار الا أن الأمراء والملوك المغاربة كانوا يشجعون الاستقرار ويرغبون الناس فيه ويقيمون لأنفسهم وذويهم مراكز عمرانية (قصور منيعة أو ضيعات) تجمع حولها الناس فاشتهر بعضها بالمدن الملكية (زاماريجيا، بولاريجيا، هيبوريجيوس، الخ...) وأمّا الأجانب من غير الفينيقيين كالأغريق خاصة الذين حفلت بهم مدينة كيرتا (قسنطينة) وتمكن بعض الملوك، وخاصة منهم مسنيسا، من ارساء توازن ديمغرافي في مملكته قوامه مستقرون زراع ورعاة مترحلون، كل يمارس حياته في اقليم طبيعي يلائم نمطه في الحياة، وهو ما يدل عنه الازدهار الزراعي ووفرة الانتاج الحيواني بالاضافة الى الاستقرار السياسي الذي نعمت به مملكة نوميديا لعدة أجيال، فتوفر لحكامها توازن سياسي في علاقتهم الخارجية مع أمم حوض المتوسط (أغريق ـ رومان).

غير أن الأمر ما لبث ان أخذ في التغير ابتداء من الاحتلال الروماني الذي

اتصف بكونه احتلالا استيطانيا أوجد ظروفا اضطرارية لتغيير جوهري في خريطة المغرب البشرية خاصة منها الأقاليم الزراعية المحاذية للساحل (أي التل بمفهومه الواسع)، فترتب عن هذا التغير توافد عناصر بشرية جديدة تركزت بمناطق الثقل الاقتصادي مما أدى الى ارتفاع في الكثافة الديمغرافية وحدوث زحزحة بشرية في أوساط الأهالي نحو الداخل (أي طرد وانتشار).

ب ـ الوافدون :

أقصد بالوافدين تلك العناصر البشرية التي وفدت الى المغرب أثناء الاحتلال الروماني بصرف النظر عن أصولها وأعراقها والكيفية التي انتقلت بها الى هاته الديار أو تاريخ حلولها بها.

ولقد حلت بالمغرب عناصر أجنبية من غير الفنيقيين منذ زمن موغل في القدم، ومنهم الاغريق الذين كانوا على صلة وطيدة بالبلاط الملكي النوميدي[7] بكيرتا مثلا، لكن أبواب الهجرة الى شمال افريقيا لم تتسع أمام الوافدين من مختلف بلدان حوض المتوسط سوى في العهد الروماني الذي أوجد لهم فرص الانتقال الى هذه البلاد ووسائل العيش الأفضل فيها، خاصة في العهد الامبراطوري، حيث أصبح البحر المتوسط همزة وصل ومجال عبور بين بلدان حوضه[8].

ومن العناصر الوافدة على المغرب عنصر الايطاليين الذين بدأوا يتقاطرون على مدنه الكبرى منذ سقوط قرطاجة عام 146 ق.م. في صورة تجار ورجال أعمال وجنود واداريين. واقتصرت اقامتهم بالمدن الهامة في بادئ الأمر، غير أنه ابتداء من سنة 122 ق.م. أخذ الوافدون الايطاليون يتغلغلون في الداخل كمزارعين.

وبعد انتصار قيصر وسقوط مملكة نوميديا عام 46 ق.م. انفتحت أبواب الاستيطان على مصراعيها أمام الراغبين في الحصول على أرض زراعية والانتظام في مستعمرات فلاحية[9]، ثم اشتدت الهجرة الايطالية نحو افريقيا في العهد الامبراطوري الأول خاصة أثناء اشتداد الأزمات الاقتصادية والاجتماعية بايطاليا [10]، وبعد أن تأكدت رغبة الاباطرة في الاستيلاء على أراضي الشعوب المهزومة والتحكم الجيد في مواردها.

وجذبت بلاد المغرب اليها عناصر بشرية متوسطية أخرى من غير الايطاليين،

منهم الايبريون والغاليون والداسيون والاغريق والسوريون. وقد كثر العنصر الاغريقي في صفوف العبيد (عبيد المنازل والخدمات الحضرية) وبرز العنصر السوري والشرقي بصفة عامة في ميدان التجارة والجندية (خاصة جنود الحدود الجنوبية المعروفون بالهجانة) [11].

وتركز الوافدون بمراكز العمران المدني والريفي مشكلين مجتمعا خليطا من الأجناس سادته سلطة روما وقانونها وحضارتها. وكانت نسبة الأهالي فيه متفاوتة العدد والأهمية بين حاضره وأخرى تبعا لأهمية الطبقة الارستقراطية المحلية المندمجة في ذلك المجتمع، في حين ظلت الأرياف والبوادي محتفظة بتفوق السكان الأهالي عن الوافدين عدديا.

تكاثر السكان وتوزعهم :

ربما كان ترتوليانوس الأديب المسيحي الذي عاش خلال القرن الثالث، صادقا عندما عبر عن كثافة السكان في عصره بقوله: «يكفي أن نلقي نظرة على ما حولنا لنعلم بأن العالم تتزايد ثروته ويكثر سكانه يوما بعد يوم... في كل مكان بيوت وفي كل ناحية شعب وفي كل جهة مدينة انها الحياة في كل مكان. كل هذا دليل على ان الجنس البشري قد تزايد كثيرا» [12].

وتوحي لنا عبارات ترتوليانوس التالية بأن النمو الديمغرافي كان ذا طابع استعماري استيطاني: «أبعدت المزارع الغنية الصحراء القاحلة وقهرت الحقول الغابات وأبعدت القطعان السباع. لقد تم زرع الرمال وتجفيف المستنقعات، وتسلقت الاشجار الصخور....» [13]. والواقع أن النمو الديمغرافي الذي أشار اليه ترتوليانوس كان قائما على توسيع الخريطة الزراعية واستصلاح الأرض وتنويع المزروعات وتشجيع اليد العاملة الريفية والحضرية على الانتقال نحو الداخل. وهذا ما تؤكده لنا الخريطة الأثرية التي تبرز بوضوح كثافة العمران المدني والريفي العائد الى ذلك العصر.

أ ـ تقديرات الكثافة :

الحقيقة أنه ليس لدينا احصاء دقيق لعدد السكان الذين تعايشوا في المغرب خلال زمن ما من العهد الروماني، ذلك أن كل التقديرات المتعلقة بعدد السكان

وأنشطتهم لا تستند الى معلومات تاريخية دقيقة ومؤكدة. فقد اعتمد فيها أصحابها على النصوص الأدبية وجرد الأسماء الأثرية والمرافق العامة للمدن. كخزانات المياه الموِنة للمدينة وسعة المسارح والحمامات والكنائس. أو الاحصاءات الجزئية المتعلقة بالموظفين الاداريين أو الدينيين[14].

وقد اختلف المؤرخون في تقدير العدد الاجمالي لسكان المغرب آنذاك. اذ بينما يرى بلوك أنهم بلغوا 6 ملايين نسمة في فجر الامبراطورية[15]. يرى ستين أن شمال افريقيا عرف نموا ديمغرافيا ملحوظا خلال القرن الثالث الميلادي. وان مدنه كانت غاصة بالسكان[16]. أما كورتوا فقد تحفظ كثيرا واقترح حوالي 4 ملايين نسمة يكونون قد تعايشوا في افريقيا الرومانية خلال العهد الامبراطوري الأول[17]. وهو العهد الذي لغت فيه الكثافة البشرية أقصاها في نظر المؤرخين. ويضيف بأن هذا العدد قد هبط الى حوالي ثلاثة ملايين نسمة أثناء العهد الامبراطو ري المتأخر (284 ـ 430 م.) وذهب كورتوا من جهة أخرى الى القول بأن نسبة الحضريين قد بلغت 60 ٪ . مسقطا من الحساب عالم البادية الذي كان غاصا بمجموع القبائل الرعوية . وكذلك الأرياف الفالتة من سلطة الادارة الرومانية . وهذا النوع من التقدير ينم عن نظرة ضيقة لخريطة السكان بالمغرب . لكن لا نستغرب الأمر اذا تذكرنا ان معظم البحوث التاريخية المتعلقة بالفترة الرومانية ببلاد المغرب قد اسقطت أخبار الأهالي من الاعتبار سواء بدعوى عدم توفر المصادر حولهم أو لكونهم عاشوا خارج اطار التاريخ، وهو ما يعبر عن نظرة ضيقة للتاريخ فضلا عن كونه خطأ منهجيا واضحا.

ويرى بيكار من جهة أخرى أن سكان شمال افريقيا الرومانية قد بلغوا ستة ملايين ونصف مليون نسمة، لكنه وزع هذا العدد على الولايات كالتالي :

2.5 مليون بالولاية البروقنصلية.

0.5 مليون بولاية طرابلس.

3 مليون بنوميديا.

0,5 مليون بولايتي موريطانيسا معا[18].

وبهذا يكون سكان ولايتي موريطانيا بشطريها القيصرية والطنجة مساويا لعدد سكان ولاية طرابلس وحدها، وهو أمر مثير للغرابة حتى ولو كان هذا التقدير متعلقا

بالسكان التابعين للدارة الرومانية دون غيرهم. ذلك أنه على الرغم من أهمية الشريط الساحلي الطرابلسي من حيث الازدهار الاقتصادي والعمران الذي كان عليه أيام الرومان، فانه لا يمكن أن يعادل سكان نصف الشمال الافريقي عامة الذي كانت تضمه الولايتان القيصرية والطنجية، ثم أن مدن هاتين الولايتين كانت كثيرة وغاصة بالسكان الى حد أن بعضها كقيصرية مثلا[19] ضاهت قرطاجة أهمية.

ب ـ التكاثر عن طريق الأسرة (الانجاب) :

اعتمدت في دراسة هذا الموضوع على تحليل احصائيات شواهد القبور والانصاب المختلفة التي قام بها ج.م. لاسير، غير أنه ينبغي أن نلاحظ ان النتائج المتوصل اليها تقريبية وجزئية لكنها ذات أهمية كبرى في موضوع الديمغرافية التاريخية لاعتمادها على طرق منهجية يقرها البحث العلمي الحديث.

يستخلص من المعلومات الاحصائية المشار اليها آنفا ان سن الزواج بالنسبة للفتاة كان مبكرا لدى الأهالي أو الوافدين (11ـ13 سنة)[20]، وهو ما يطيل في فترة الانجاب لدى المرأة، غير أن ظاهرة العزوبة أو العنس كانت متفشية لدى الفتيات بالمجتمعات الحضرية، حيث تم تمييز 21 فتاة متزوجة فقط من بين 136 فتاة تجاوزت سن الزواج بقائمة جمعت من نقوش دوقة مثلا، و45 زوجة من بين 227 امرأة تم احصاؤهن بمدينة الكاف[21] لكن نسبة العزوبة في أوساط الفتيات تبدأ في الانخفاض كلما اتجهنا نحو المناطق الجبلية وفي أوساط الأهالي خاصة، ففي منطقة الأوراس أمكن ملاحظة 11 زوجة من بين 13 امرأة وبالسهول العليا الموريطانية 20 من بين 22 خارج المدن بينما بلغت في قيصرية 18 من 40، وبقرطاجة 53 من 101[22].

وتبين أيضا من خلال الاحصائيات الجنائزية أن نسبة الأطفال الاحياء كانت في المتوسط بين 2 و3 للعائلة الواحدة بالمدن الداخلية وأقاليمها كتبسة وسطيف وحيدرة ودوقة وسيغوس وجميلة وقالمة ووليلي، لكنها أقل انخفاضا بالمدن الساحلية الكبرى مثل قرطاجة (1ـ2).

أما في أوساط الأهالي فيظهر أنها كانت مرتفعة، من ذلك أن وثيقة بتازا (سيدي علي بوجنون) تنص على وجود عائلة من الأهالي بلغ عدد أطفالها أربعة،

وهي العائلة التي طلبت حق المواطنة الرومانية من الامبراطور [24].

ولا ندري ان كانت الظروف الصحية والمعاشية [25] هي العوامل الرئيسية في صغر حجم العائلة ام ان الامتناع عن الانجاب الممارس من طرف الزوجات كان سببا هاما في ذلك، حيث أنه ورد في النصوص أن النسوة كن يمارسن أساليب مختلفة ، منها السحر وتناول مستحضرات الأعشاب وغيرها من العقاقير التي كانت تؤثر على صحة المرأة وتؤدي أحيانا الى عقمها التام. ولقد كان القانون حياديا ازاء هذه الظاهرة، حيث كانت المرأة حرة في الاحتفاظ بحملها أو اسقاطه. كما كان الاب حرا كذلك في أن يحتفظ بابنه أو لا يحتفظ به [26]. وقد نبه رجال الدين المسيحيين أمثال ترتوليانوس الى خطورة ظاهرة الاجهاض في المجتمع الانساني آنذاك ونددوا بها [27]

غير أننا نلاحظ العكس في أوساط الأهالي، من ذلك أن النسوة كن يمقتن العقم ويستعجلن الانجاب ويحبذن الاكثار من الأطفال ، بدليل الوثائق التذكارية التي وضعتها النسوة في أضرحة الالهة ابتغاء مزيد من الأطفال [28]. فضلا عن أن النصوص الأدبية والأثرية تشير الى أن القبائل الليبية كانت كثيرة العدد. رغم الحروب التي كانت تفني الكثير من رجالها، وأن بعض تلك القبائل كان في حجم شعب كبير [29].

ويجدر أن نشير الى أن بعض العائلات الفقيرة من مجتمع المدينة فيما يبدو ، كانت تتخلى عن أطفالها أو تبيعهم صغارا عند عجزها عن اعالتهم. وهو ما تؤكده ظاهرة الأطفال المشردين الذين كان يعهد بتنشئتهم الى النسوة العواقر أو العتيقات ثم يباعون عبيدا [30].

أما من حيث التركيب الجنسي للسكان فيظهر من خلال النقوش المتعلقة بهذا الموضوع ان نسبة الذكور كانت أعلى من الأناث في مجتمع الوافدين، خاصة في سن ما بعد 20، حيث أظهرت الاحصائيات ان النسبة كانت 257 مقابل 100 من الأناث في الاعمار ما بين 20_29 سنة. وبلغت 175 مقابل 100 فيما بعد سن الخمسين [31]. وبينت الدراسة من جهة أخرى أن هذه الحالة من عدم التوازن بين الجنسين قد تواصلت لمدة ثلاثة قرون الأولى من الوجود الروماني بالمغرب حيث لم

ينخفض معدل تفوق نسبة الذكور عن الأناث خلال تلك المدة عن 146 مقابل 100 [32].

ويبدو أنه لا يوجد ما يفسر هذا الخلل الجنسي الذي عرفه ذلك المجتمع سوى التوافد الذي كان من الشباب المذكور سواء حلوا بالمغرب في صورة مدنيين أو عسكريين، وان كان هذا التفسير صائبا فانه يصح القول بأن المجتمع الاستعماري كان رجالي الطابع لأن احدى النسب به تدل على ما يزيد عن 5 رجال لامرأتين (257 ٪). ويظهر ان هذا الخلل قد أوجد له الوافدون حلا باتخاذهم زوجات من الأهالي والمطالبة لابنائهم منهن بحقوق مدنية [33].

وهكذا فان الاسرة الطبيعية بمجتمع افريقيا الرومانية لم تكن المنبع الوحيد الذي كان يمد النمو الديمغرافي بعناصر جديدة بل كان هنالك التوافد الخارجي الذي ظل ينمي عدد أفراد هذا المجتمع ويعزز جانبه لعدة أجيال.

حركة السكان :

لقد انعكست آثار التوافد الأجنبي على حركة السكان وتوزيعهم بالداخل في صورة عوامل دفع حثت الهجرة الداخلية على الاشتداد سواء منها تلك الحركة التي ظهرت في شكل نزوح، وكان أصحابها من الأهالي الأكثر تضررا بحركة المد الاستيطاني ، وهم الريفيون وأشباه الرحل، أو حركة الانتشار الداخلي التي قام بها الوافدون من مزارعين وتجار ممن كانوا يسعون للاستيلاء على مزيد من الأرض الزراعية والتحكم في الموارد الاقتصادية، وقد عرف أولئك الراغبون في الاستئثار بهذا النوع من مصادر الثروة بأنهم كانوا يتبعون خطى جيش الاحتلال ، قصد حيازة الأرض التي كان يفتكها من أصحابها الأهالي الثائرين أو المقاومين. وهي عملية اعتبرها بعض الباحثين المعجبين بفعل روما من الأعمال المنهجية الهامة التي تنسب الى الاحتلال الروماني [34].

وأدت هذه الحركة الديمغرافية الى تغيير في التركز عبر الخريطة السكانية ، حيث انتقلت قبائل كثيرة من مضاربها لتستقر بمواطن أخرى، كما تحول بعضها الى حياة التنقل الموسمي. تبعا للظروف، وأجبر البعض الآخر على الاقامة برقعة جغرافية محددة. كما وجد بعض الأهالي في التغيرات الاقتصادية والعمرانية الناجمة عن

التوسع الزراعي فرصا للتروح الى مراكز العمران حيث يتوفر العمل والعيش خاصة تلك الأقاليم التي تناولها الاستصلاح وانتشرت بها حقول الزيتون ومعاصر الزيت بعد ما كانت مراعي تجوبها القطعان.

ثم أن الهجرة الداخلية شملت عناصر من الوافدين أيضا. حيث عمل توسيع الخريطة الزراعية على جذب مئات المزارعين الفقراء من المدن والضياع للاستفادة مما خوله لهم القانون الخاص باحياء" الأرض الموات (قوانين مانيكيا وهدريانوس). ودلت النقوش اللاتينية المستخرجة من بعض مراكز العمران التي أوجدها الاستصلاح على أن نسبة عالية من سكانها كانوا احفادا لمزارعين قدامى عرفوا بمركز أقدم.

فئات السكان وأوضاعهم القانونية والاجتماعية
بناء على الهرم القانوني والاجتماعي

يعتبر القانون الروماني السكان المتواجدين ضمن الخريطة السياسية الامبراطورية أصنافا شتى وفئات متفاوتة الحقوق والواجبات المدنية، وللاختصار والتبسيط اقتصر على ذكر الأصناف والفئات الأكثر بروزا ومنها:

الصنف الأول الذي كان يضم مجموعة المتمتعين بالمواطنة الرومانية سواء كان انتفاعهم بها عن طريق النسب كسليلي روما أو عن طريق الترقيات التي كان يمنحها الأباطرة للأفراد والجماعات المنتمية لطائفة الأجانب Peregrini الأحرار.

غير أن صنف المواطنين Civis هذا كان يضم طبقات اجتماعية متباينة الوضع بتباين أوضاعها الاقتصادية والمهنية، ويمكن أن نميز منها في المدن طبقة البرجوازية الحضرية Municipe وطبقة العوام المقيمين Incolae وكانت تميز بين الطبقتين نوعية الوظائف المسندة الى أفراد كل طبقة، وكذلك قانون الجزاء والعقوبة، فافراد الطبقة البرجوازية التي تلقب أيضا بطبقة الاشراف Honestiores (35) كانوا يحتكرون المناصب الشرفية والوظائف السامية والمدنية كالجباية والمحاماة والسفارة والبريد، فضلا عن كونهم يشكلون مجلس البلدة Curie (36) بينما كان أعضاء الطبقة الدنيا

ويدعون أيضا بالوضعاء Homeliores مبعدين عن الأجواء السياسية والوظائف السامية قانونيا، وعليهم تأدية الأعمال المجانية المفروضة عليهم في صورة سخرة دنيا Munera Sordida (37)، وكانت عقوبة هؤلاء ممكنة بالزج بهم الى الحيوانات المفترسة ليتلذذ بمشاهدهم الدامية جمهور المتفرجين أو تصليبهم أو حرقهم أحياء أو الحكم عليهم بالأشغال الشاقة في المناجم أو استرقاقهم (38)؛ بينما لم تتجاوز العقوبة المترتبة عن جرم مماثل ارتكب من طرف أحد أفراد فئة الاشراف مصادرة أملاكه أو تجريده من المواطنة (39).

ويوضح لنا سجل بلدة تيمقاد الهرم الاجتماعي لأعضاء الطبقة الأولى بالمدينة، حيث تتصدر قائمة السجل العشرة الأوائل Honarati من أعيان المدينة Clarissimes نصفهم يلقبون بالسادة Patrons تم اختيارهم من طرف المجلس البلدي بناء على ثروتهم ومكانتهم المرموقة في المجتمع لكونهم ساهموا في تغطية نفقات عمومية وتمويل مشاريع بالبلدة، كما أغدقوا من أموالهم عن الصالح العام (40). وقد كرست تعليمات الامبراطورية ذلك حيث جاء في احداها: «يجب أن يقوم الاستحقاق على أساس أن المترشحين لعضوية المجلس البلدي يكون الواحد منهم قد أدى أفضل الأعمال الشرفية» (41). وكان لهذه الفئة الشرفية السخية مكانة خاصة لدى السلطة المحلية وجمهور البلدة حيث كانت الساحات العمومية furoms تزين بتماثيلهم رمزا للعرفان بجميلهم (42)، كما خلدت أسماؤهم بلوحات تذكارية تعلو واجهات المباني ذات النفع العمومي التي أنجزوها كالأسواق وما اليها (43).

وتأتي في الرتبة الثانية فئة الأحرار المرفعين Perfectissmus ، المنحدرة من عائلات الفرسان والضباط ، ثم فئة رجال الدين المشرفة على الطقوس الدينية الرسمية والأضاحي والألعاب اما طبقة الموظفين فتأتي في الدرجة الرابعة من الهرم الذي مثله سجل تيمقاد، وتضم الحكام Decdriohs ، ومنهم الوصي Curator السنوي للامبراطور ، والقاضيان البلديان Duoviri ورئيس الشرطة Eadit وبقية المسؤولين على الوظائف والمصالح البلدية.

واذا كانت هذه صورة عن مجتمع المدينة فان مجتمع الريف الخليط كانت تتصدره فئة الملاك أو مسيري أعمالهم ومسيري الأعمال بضياع الامبراطور، ثم طبقة

الموظفين والمزارعين الأحرار وكان بالمناطق المحيطة بالمدينة أو الواقعة في دائرة مسؤوليتها الادارية عدد كبير من الفلاحين الاجراء أو مستأجري الأرض والملاك الصغار، وكانت ضواحي المدن الكبرى وأقاليمها الخصبة ذات كثافة بشرية ريفية عالية خلدتها آثار القرى والأحياء الفقيرة التي كانت منتشرة بتلك الضواحي [٤٤] وفضلا عن المزارعين الأحرار والأجزاء الدائمين وعبيد الأرض كان هنالك الاجراء المؤقتون أو الموسميون Ihquilini الذين كانوا ينزلون بالقرب من الأملاك الكبرى أثناء مواسم العمل (قطف الزيتون أو الحصاد) ثم يغادرونها بعد انقضاء فترة التشغيل، وكان هذا الصنف من السكان الأصليين (الأهالي) الذين أرغمتهم حركة الاستيطان على انتهاج اسلوب التحرك والانتجاع ومنهم كان الحصدة الذين ورد ذكرهم في المصادر الأثرية الافريقية.

وكانت معيشة هذا الصنف من السكان بدائية متواضعة فيها استمرارية ملحوظة لأسلوب ما قبل التاريخ وفجره، مساكنهم أكواخ حقيرة تدعى مباليا Mapalia أوكازي Casis ، ولباسهم من جلود الحيوانات وغذاؤهم من أبخس أنواع المنتوجات الزراعية ومنها الشعير وجذور النباتات والألبان والحلزون[٤٥].

ولم يكن الشرع الروماني يعترف بالشخصية القانونية لهذه الفئة من الناس حيث لا تؤهلهم أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية لادراجهم في صنف من الأصناف المدنية المعروفة آنذاك (مواطنون رومان، لاتين، ايطاليون... الخ.) فكان القانون ينعتهم بالأجانب Peregrini أي الذين لا يعترف لهم بحق الملكية ولا الاحتكام الى الشرع الروماني ولا رفع التظلمات ضد أي كان من المتمتعين بالشخصية القانونية الرومانية.

ومن الناحية العددية كان هذا الصنف من السكان يمثلون نسبة عالية من سكان افريقيا الرومانية الذين ساهموا في ازدهارها وتوفير أسباب الرخاء لمجتمع المدينة فيها، لكنهم ظلوا قليلي التأثر بحضارة روما مثلما كانوا محرومين من امتيازات قانونها.

وينبغي الا نهمل ذكر صنف آخر من سكان افريقيا الرومانية كانت نسبته العددية معتبرة وأهميته الوظيفية كبيرة في مجتمع ذلك الوقت، ونعني به صنف العبيد، ذلك أن حروب الرومان المظفرة قد درت عليهم غنائم بشرية هائلة كان من بينها

القرطاجيون ، ساهمت في انخفاض سعر العبيد واستخدام الرق على نطاق واسع في مختلف الخدمات ، سواء منها ذات الطابع الحضري أو الريفي (أشغال منزلية وأعمال الزراعة، أي الحرف الذهنية والعضلية).

وينبغي أن نذكر هنا أنه على الرغم من أن ظاهرة العبودية كانت حالة عامة في الدول والمجتمعات القديمة الا أن ضخامة اعداد العبيد في روما وولاياتها واستخدام الرومان للرقيق في مختلف النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والادارية جعل من روما وولاياتها واستخدام الرومان للرقيق في مختلف النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والادارية جعل من روما تبدو دولة نموذجية للرق [٤٦] ، وهذا لايعني النهي الفكي لما كان بحوزة القرطاجيين وربما الامراء (الليبيين) من قبل من رقيق آل أمرهم الى الرومان بحكم الانتصار، لكن حروب هؤلاء المتواصلة لاخضاع القبائل المتمردة كانت مصدرا هاما للرق، فأسرى الحرب كانوا يتحولون الى حالة استرقاق بمجرد القبض عليهم.

وتذكر المصادر الأدبية الافريقية ان سيدة افريقية واحدة أهدت ابناءها 400 عبدا مرة واحدة (وهي زوجة ابوليوس المدعوة ايميليا بودنتيلا Eamilia Pudentilla)[٤٧] ، وان سيدة أخرى تدعى ميلانيا Melania من سوق اهراس Thagaste قد اعتقت اعدادا هائلة من عبيدها متأثرة بالورع المسيحي بعدما ترهبت ، وكانت تستخدمهم في ميادين مختلفة منها الزراعة والحرف المختلفة كصناعة الحلي [٤٨] .

وإذا كان مصدر عبيد الأرض والأعمال العضلية من المغاربة أنفسهم، فيما يبدو، فان عبيد المنازل بالحواضر الكبرى على الخصوص، كان معظمهم من خارج المغرب، وان نسبة عالية منهم 40 ٪ من بلاد الاغريق أو الشرق. وكانت الأعمال المسندة الى هذا النوع من الرقيق رفيعة تتطلب مستوى حضاريا لائقا وثقافة معتبرة كالمعرفة بشؤون تسيير الأعمال والحسابات[٤٩] واتقان الكتابة فضلا عن الالمام الكافي بمعارف العصر وأساليب تربية الأطفال ، وقد احتفظت النقوش الافريقية بما مكن من احصاء نسبة عبيد المنازل من ذوي الأصل الاغريقي مثلا، حيث أمكن التعرف على نسبة بلغت 50 ٪ منهم بمدينة كيرتا (قسنطينة)، وأكثر من ذلك بمدينة قيصرية (شرشال)[٥٠] ، وكان هذا الصنف من العبيد أرفع شأنا وأقرب الى حالة العتق من

عبيد الأرض الذين كانوا أكثر عددا وأدنى منزلة في نظر مجتمع ذلك العصر، وقد أكدت البحوث الأثرية ما ورد من اشارات في النصوص الأدبية من كون هذا الصنف من الرقيق كان من الأهالي، وقد استنتج غزيل Gsell ان انتفاضات السكان وتمردات القبائل المتواصلة ضد الرومان كانت تشكل موردا للعبيد عند الانتصار عليهم[51]، وأضاف بيكار G-Ch.Picard قائلا بأن اليد العاملة من العبيد كان يتحصل عليها من المنطقة نفسها (أي المغرب) وان الحملات على البدو كانت مناسبة لاسر العبيد[52].

أما الدلائل الأثرية فيكفي أن نذكر أن قائمة احتوت على خمسين اسما من العبيد جمعت من موقع أثري، كان ضيعة كبرى، ليس من بينهم سوى 11 اسما اغريقيا[53] كان أصحابها يمارسون أعمال الاشراف على الضيعة كالمحاسبة والتسيير.

ولدينا في هيكل عظمي مكتشف بموقع بولاريجيا Bulla Regia هو لعبدة دفنت مكبلة بالأصفاد ودفنت معها عبارة مشينة[54]، دليل مادي على حالة الاسترقاق والأعمال الدنيئة التي كان يجبر على أدائها هذا الصنف من البشر، كما خلدت لوحات الفسيفساء الافريقية مناظر العبيد المقيدين[55].

ابتداء من القرن الرابع أخذت حالة الرق في التغير ومجالها في الاتساع، اذ أجبرت قوانين الاصلاح الجبائي صغار المزارعين وكذلك الاجراء الأحرار على الانضواء تحت سلطة أصحاب العقارات الكبرى الذين كانوا مسؤولين أمام ادارة الجباية على أقساط الضريبة المفروضة على هذا الصنف من الفلاحين، وصدرت قوانين امبراطورية خلال القرن الرابع كرست حالة التبعية وألزمت الاتباع بالسيد الموكل عليهم فبرزت بذلك ظاهرة القننية في اخريات الامبراطورية الرومانية. وقد اعتبر بعض المؤرخين حالة القننية هذه مرحلة مكملة للعبودية القديمة وان الاقنان عوضوا عبيد الأرض السابقين بشكل قانوني[56].

الخلاصة

وحاصل القول أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي أحدثتها روما ببلاد المغرب على مكدى قرون عديدة، وخاصة أثناء القرنين الثاني والرابع الميلاديين

(الأول تناولت الاستصلاح الاقليمي وتوسيع الخريطة الزراعية والثانية أعادت تنظيم اقتصاد الامبراطورية وموارد الدولة منه) قد أثرت في الوضع السكاني العام وأعادت ترتيب عناصره الديمغرافية وشكلت الهرم الاجتماعي العام، بحيث يمكن القول بمحورة أصناف السكان الخاضعين لسلطة روما اجتماعيا على الوجه التالي :

1) فئة الأسياد Patrona ، وهم ملاك الأراضي وأصحاب الضياع الكبرى ذات الانتاج المتنوع والتي ابتلعت أراضي الفلاحين الصغار. وكانت هذه الفئة عمدة للسلطة وأساس هيكل الامبراطورية المتداعي في الأقاليم والمقاطعات.

2) الفئة المتوسطة من برجوازية المدن التي فقدت كثيرا من وزنها الاجتماعي والسياسي في العهد المبراطوري المتأخر.

3) فئة اليد العاملة بمختلف أصنافها من حرفيين بالحواضر وزراعيين بالأرياف وكانت تمثل أعلى نسبة عددية في هرم السكان، وتشكل القوى المنتجة الأولى في مجتمع افريقيا الرومانية، لكنها على الرغم من تباين الوضعية القانونية لأفرادها، اذ كان من بينهم الأحرار والعبيد والاقنان والأجانب، فان طبيعة التركيب الاجتماعي المتجانس جعل أفرادها في منزلة متماثلة الأمر الذي كان يشعرهم بالتساوي في الشقاء ويقارب بينهم في درجة الأحساس بالغبن الاجتماعي ويغرس في نفوسهم كراهية لمستغليهم.

ولعل ثورة القرن الرابع التي كانت حربا طبقية في مظهرها سياسية في جوهرها، قد عبرت عن تضامن طبقي بين ضحايا ذلك الوضع تعبيرا جليا عندما كان الثوار الريفيون (الذين نعتتهم النصوص القديمة بالدوارين) يقومون بتحرير العبيد ويمعنون في أعمال الانتقام من أسيادهم كانزالهم من فوق العربان واجبارهم على المشي أمامها بدل عبيدهم الذين يركبونهم تلك العربات، كما كانت أحياء الاقنان والأجانب المسماة بأحياء الأكواخ الحقيرة السوداء Casis nigris وقرى الفلاحين منطلقا لتلك الثورة، منها يتم تجنيد الرجال وفيها يجري تنظيم فرق القتال.

انتهى

(1) Gsel, Herodote: textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord, Alger-Paris, 1915, p. 191; J. Desanges; Catalogue des tribus africaines, 1962.
(2) CIL., VIII, 9663; CRAI., (1931), p. MEFR., (1956)., p. 110.
(3) CIL., VIII, 2615, G. Camps, «Les Bavares», R.A., (1955), pp. 241-288.
(4) Tacite, Annales, II, III, IV; Gsell, Atlas Arch. de l'Algérie, F. 18, N 519.
(5) Strabon, Géog., XVII 19, 9, J. Gascou, «Le cognomen Castulecus en Afrique romaine»; Mel. d'arch. et d'histoire, 2 (1970), pp. 729-736.
(6) CIL. VIII, 8836; M. Rachet, Rome et les Berberes, (1970), p. 256.
(7) Berthier, Chalier, Le sanctuaire punique d'el-Hofra, Constantine, 1955, pp. 167-175.

(8) لعل هذه الخاصية هي التي أوحت الى الجغرافي الروماني سوليتوس بنعت هذا المسطح المائي بالبحر المتوسط بعد أن كان يدعى من طرف الجغرافيين الاغريق بالبحر الداخل.
(9) لقد كون مرتزقة سيتيوس نموذجا رائدا لذلك النوع من المستعمرات بالشمال القسنطيني.

(10) Gascou, op. cit., p. 47; Lassere, Ubique populus, 1977, p. 294.
(11) Carcopino, «Les limes de Numidie et sa garde Syrienne...» Syria, 1925; pp. 149; G.-ch. Picard, Castillum dimmidi, 1947, pp. 85-125; Leschi, «Rome et les Nomades du Sahara centrale», IRS, 1942, pp. 7-8, Albertini, «Numerie Syrienne de Numidi», R.A., 1937, p. 30.
(12) Tertulien, D'après G.-Ch. Picard, La civilisation de l'Afrique romanie, 1959, p. 58.
(13) Ibid, Lassere, op. cit., p. 575.
(14) Courtois, Les vandales et l'Afrique, 1955, pp. 106-III.
(15) Beloch, Die bevolkecung der griechisch-romis, Welt. Lepzig, 1866, p. 507.
(16) Stein. Histoire du Bas-empire, I, 1959, pp. 2-3.
(17) Courtois, op. cit., p. 106.
(18) Picard, op. cit., p. 48.

(19) كانت أسوار مدينة قيصرية (شرشال) تضم 270 هكتارا، يعيش ضمنها ما قدر بمائة ألف نسمة. أنظر : S. Gsell, Cherchel, 1926, p. 22. كما كان ميناؤها يحتل المرتبة الثانية بعد ميناء قرطاجة بالشمال الافريقي، انظر : بوشناق، المدن القديمة في الجزائر، 1978، ص. 24.
(20) هذا اذا اعتبرنا زواج الامبراطور نيرون من فتاة عن السن 11 نموذجا محتذى، أنظر :
— Tacite, Annales, XII, 58.
كما حدد قانون جوستينيان سن زواج الفتاة بـ 12 عاما، انظر :
— Codex Just, V, 4.
(21) Lessere, op. cit., p. 482.
(22) Ibid, p. 483.
(23) Ibid, p. 495.

(24) Seston, Euznat, «Un droit de la chancellerie roma ine: la tabula Banasitana», CRAI, 1971, pp. 171-172.

(25) لخص بيكار وضعية الناس المعاشية في قوله بأن 6/4 من سكان افريقيا كانوا يعيشون في فقر مدقع وان الغذاء وحده كان يمتص نصف دخل الأغنياء وثلثي دخل متوسطي الحال، وأكثر من 4/3 دخل بقية الناس.
(26) Riquet, «Christianisme et populations», in population, 1949, p. 624.
(27) أشهر من ندد بتلك الظاهرة ترتوليانوس الذي وصف عملية الاجهاض بأنها من أعمال الوثنيين النافية للانسانية وانها انتزاع لروح أودعها الله في مخلوقات العالم، انظر :

— Tertuien, APOL., IX, 8.
(28) Leglay, Saturne africaine, I (1966), pp. 114-118, II Pl XI-XII.
(29) Pomponius Mela, d'après Cat, Essai sur la prouince romaine de Mauritanie, césarienne, 1891, p. 58; Gascou, op. cit, p. 733.
(30) Gsell, «Esclavages ruraux dans l'Afrique romaines, Mel. Glotz (1932), p. 389; Lassere, op. cit., p. 504.
(31) Ibid, p. 511.
(32) (32) Ibid, p. 506.
(33) Saumgne, Le droit latin et les cités romaines sous l'empire, 1965, pp. 6--71.
(34) Lassere, op. cit., p. 625.

(35) هم بصفة عامة جميع المواطنين الرومان بالولد وليست لهم سوابق عدلية ويمتلكون ثروة قدرها بيكار بما فوق 83 ألف سسترس بقرطاجة و 20 ألف سسترس بكيرتا و6 آلاف بهيبون، أو المنتمون الى طبقة الفرسان والضباط والموظفين الساميين، أنظر :

(36) Piganiol, Histoire de Rome, 1977, p. 115.
(37) Ibid, p. 116.
(38) Gagé, Les classes sociales, 1964, p. 283; Stein, op. cit., (38) Gagé. Les classes sociales, 1964, p. 283; Stein, op. cit., p. 33.
(39) Stein, op. cit., p. 33.
(40) Chastagnol, L'album municipal de Timgad, 1978, p. 23.
(41) Ibid, p. 31. (42) Ibid, p. 23.

(43) كما هو مبين بسوق جميلة (كويكول) الذي كوسينوس عام 229م ، وسمي باسمه، انظر :

— Leschi, Djemila, 1949, p. 26.
(44) Fevrier, «Aux origines de l'occupation romaine dans les hautes plaines de sétif», Les Cahiers Tunisiennes, 1967 pp. 51--65; Leveau, «Paysanneries antique de pays bni Mennacers», BTH, 1972, pp. 660--670.
(45) Picard, op. cit., p. 154.

(46) زوبريتسكي ، عرض اقتصادي تاريخي، 1، موسكو (بلا تاريخ)، ص 146.

(47) Apoleius, apol., trad. Walette, 1924.
(48) Gsell, op. cit., pp. 405--431.
(49) Lassere, op. cit., pp. 430-431.
(50) Ibid, pp. 432-433.
(51) Gsell, op. cit., p. 398.
(52) Picard, op. cit., p. 150.
(53) Lassère, op. cit., pp. 341-342.
(54) Merlin, le temple d'Apollon à bulla regia, 1922, pp. 10-11 — fig. 374.
(55) Gsell, op. cit., pp. 406-412; Remandon, La crise de l'empire romaine, 1964, p. 180.
(56) Gsell op. cit., p. 403.
(57) Ibid, p. 407.

المجتمع الحرفي للشرق الجزائري

قبل العهد الروماني

من خلال نقوش منطقة الحفرة

مصطفى الألفي

تنقسم هذه الدراسة الى قسمين، قسم يعالج الوثائق المتعلقة بمنطقة الشرق الجزائري وعلاقتها بقرطاجة، وقسم يعالج علاقة روما بقرطاجة وبالشرق الجزائري، من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الأول قبل الميلاد.

قدينة كيرتا (قسنطينة) تعتبر من أغنى مدن الجزائر التي أخرجت آثارا بونية. فلقد كانت عاصمة للمملكة النوميدية وملكها ماساناسا، وقصص المكتشفات الأثرية فيها عديدة، فيرجع تاريخ أولها الى سنة 1875م، وقد عثر على حوالي مائة وخمسين لوحة جنائزية كتبت بالبونية ودفنت في باطن الأرض على عمق 30ـ40 سم، وكان المكتشف هو (لازار كوستا)، ثم أرسلت هذه اللوحات الى متحف اللوفر بباريس حيث ظلت منسية في مخازنه ولم تنشر نشرا علميا الى أن قررت أخيرا وزارة الثقافة الفرنسية ان تعهد بنشرها لأحد المتخصصين في البونية وهو الأستاذ موريس سانيزر Sanyzer .

وثاني الاكتشافات تم في منطقة الحفرة في سنة 1950 وذلك بطريق الصدفة في أثناء حفر أساس مرآب لمصانع (رينو) في قسنطينة حيث عثر على مجموعة من اللوحات البونية يبلغ عددها سبعمائة لوحة نقلت الى متحف قسنطينة، وهناك عثر على معبد صغير تبلغ أبعاده 32/26 مترا، وقام بنشره كل من شارلييه وبرتييه في كتابهما

المعروف عن الحفرة Le sanctuaire punique d'el Hofra à Constantine ثم أشار اليه أندريه برتييه مرة ثانية في كتابه الأخير بعنوان : La numidie, Rome et le Maghreb وكذلك أشار اليه العلماء الالمان في كتابهم الأخير بعنوان Die Numider ، وهو معبد صغير يشبه في تخطيطه معبد آخر للربة (تانيت) اكتشف في تاروس في جزيرة سردينيا في سنة 1956 ونشره باريكا في كتابه : Tharros ، ويرجع تاريخه الى القرن الخامس ق.م.

والكشف الثالث تم في سنة 1960 في منطقة سيدي مسيد، حيث كشفت ادارة المياه والغابات في الضفة الغربية من وادي الرمال عن حي سكني كامل وعدد من الخزف والزجاج الملون والمشاعل الاغريقية والأواني الفخارية من رودس. وقد قام برتييه بنشر هذه الاثار.

والكشف الرابع تم في سنة 1974 في منطقة المنصورة حيث كشف عن مقبرة بونية وتم نقل معظم آثارها الى المتحف المحلي لمدينة قسنطينة وكذلك في منطقة سيدي مبروك والخروب وغيرها من ضواحي هذه المدينة.

ومن خلال قراءاتي لنصوص بعض هذه اللوحات التي كتبت باللغة البونية وجدت أن الباحث يستطيع أن يأخذ فكرة عن تكوين المجتمع القديم لهذه المدينة فيما بين القرن الثالث والأول ق.م. اذا ما درس بدقة هذه الثروة المدفونة في مخازن المتاحف. فمثلا وجدت لقب قائد الجيش ومفتش الشرطة على اللوحة رقم 41 السطر الثاني من كتاب نصوص الحفرة لبرتييه، حيث حمل هذا اللقب أشخاص يحملون أسماء سامية، مثل (بدعشتار) و(ماجون) و(اريس) و(بد ملقارت)، وهي أسماء يدخل في تركيبها أسماء بعض المعبودات الفينيقية مثل عشتارت وملقارت كما نقابل في هذه النصوص البنائين والنجارين (النص 42 في نهاية السطر الثاني)، ومنهم الفخراني أو صانع التماثيل النص 48. والمقصود هنا صانع التماثيل الصغيرة المصنوعة من الفخار، كذلك نجد على هذه النصب مهنة (صانع النسيج) النص 50 السطر الثاني.

كما عاش في ذلك المجتمع القديم الكاهن والكاهنة وكبير الكهنة وكبيرة الكاهنات (النصوص 65_69، 71، 177، 235). ومن الغريب أن نفس اللفظ

القديم ما زال مستعملا في لغتنا في كلمة (كاهن) للدلالة على رجل الدين في اللغة العربية أو الفرنسية (Le , La) ، حيث أن الهاء هي أداة التعريف في اللغة البونية، ومن هؤلاء نذكر حميلكات وعزربعل وعبد ملقارت وبدعشتارت ومتان اليم وعبد اشمون وحنيعل واريسات.

كذلك نجد في هذه السلسلة من النصوص البونية بعض الألقاب العسكرية ، فنعلم ان هناك وحدات كانت تتكون من ألف جندي يرأسها قائد يدعى رئيس الألف جندي أو حرفيا ( ) النص 88، الأمر الذي يذكرنا بتاريخ المماليك والعثمانيين حيث نقابل في رتبهم العسكرية ألقاب يوزباشي وبُمباشي وأميرالاي الخ. من الألقاب العسكرية التي تعني في اللغة التركية رئيس العشرة ورئيس المائة ورئيس الألف جندي.. الخ.

وكيفية المجتمعات كان يعيش في هذا المجتمع القديم في قسنطينة المثقفون، فنقابل لقب الكاتب (النص 90، 91)، حيث نرى الكاتب الذي يدعى (بعل ياتون) والكتبة (عبد اشمون، وماجون، وبدملقارت) وكانوا يتبعون هيئة القضاء برئاسة (شوفيط) أو القاضي. كما عاش بينهم الأطباء (النص 92، 95) وان كان عددهم قليلا مما يدل على ندرة هذه الوظيفة، فكان اسم الطبيب الأول بعل حنا بن حملك واسم الطبيب الثاني نجارين بعل شلاك. ونجد أيضا مهنة المترجم في النص 163 ( ) على الرغم من قلة الأدب البوني الذي تحدثنا عنه المصادر الكلاسيكية. فقد ذكر لنا (أبيانوس) ان ابن الملك ماسانسا قد تسلم من (سكيبيو الأميلي) الروماني الأصل نسخ من الكتب التي تم انقاذها من حريق قرطاجة سنة 146 ق.م. في نهاية الحرب البونية الثالثة.*

وعاش في ذلك المجتمع القديم حرفيون مختلفون منهم النقاشون (النص 94) والنجارون (النص 97) وصانعو الأقواس والسهام (النص 100).

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن عدد ما خلفه لنا هذا المجتمع البوني من آثار كتبت

*G. Camps, «Les Numides et la civilisation punique», ap. Antiquités africaines, t. 14 (1979), p. 48.

بالغة البونية يفوق بكثير ما خلفه لنا من عاش بينهم من اغريق ، فعدد ما عثر عليه من آثار ونصب كتبت بالاغريقية لا يزيد على سبعة عشر لوحة من مجموع سبعمائة لوحة ، أي ان عدد الاغريق كان قليلا بالنسبة للسكان الذين يتكلمون البونية ولا يشكلون جالية خطيرة ومهمة كما يدعي بعض الزملاء.

وإذا ما انتقلنا الى بعض المصادر الكلاسيكية مثل بوليبيوس فسنجد نصا للمعاهدة التي وقعها (حنا بعل) القرطاجي مع فيليب المقدوني يقول «لقد أقسم (حنابعل) القائد العام وكذلك ماجون وميركانوس وبارموكاروس وكل قضاة قرطاجة الموجودية الى جانبه وكل القرطاجيين الذين يخدمون في الجيش وبين يدي كسينوفانيس ابن كليوماخوس من أثينا الذي أرسله لنا كسفير الملك فيليب ابن ديمتريوس باسمه وباسم المقدونيين وحلفائه وامام زيوس وهيرا وابوللو وأمام الأرواح الشريرة لقرطاجة وامام هيراكليس ويولاوس وامام اريس وتريتون وبوسايدون وامام الالهة التي تصاحب الجيش بالاضافة الى هليوس وسليني وجي وامام الانهار والموانئ والبحار وامام كل المعبودات التي تحمي قرطاجة ومقدونيا وبقية بلاد الاغريق وامام كل المعبودات التي تشرف على الحملة تجعلهم شهودا على هذا القسم، لقد قال (حنا بعل) القائد الأعلى وكذلك جميع زعماء قرطاجة وكل القرطاجيين الذين كانوا يخدمون معه قالوا أما فيما يخص ما سنقرره نحن وأنتم فاننا نعلن هذا القسم ضمانا للصداقة والرغبة الخالصة ونقسم ان نكون أصدقاء بل اقارب واخوة بالشروط التالية:

أن يقدم العون للشعب القرطاجي كل من الملك فيليب والمقدونيين وكل الاغريق الآخرين الذين يتحالفون معهم ويقدمون العون لقائدهم حنا بعل وكل من يخدم معه وكل من يحالف القرطاجيين الذين يطبقون نفس قوانينهم وفي مدينة أتيكة وجميع المدن وكل الشعوب الخاضعة للقرطاجيين وجنودنا وحلفائنا وكل المدن وكل الشعوب وكل المدن وايطاليا وفرنسا وليجوريا الذين هم اصدقاؤنا وكل من في هذه البلاد ممن يرغب في صداقتنا ومحالفتنا، كذلك فان الملك فيليب والمقدونيين والآخرين من حلفائهم من الاغريق يمكنهم أن يعتمدوا على مساعدة وعون القرطاجيين الذين يخدمون في الحملة وان يعتمدوا على مواطني مدينة أتيكة وكل المدن والشعوب الخاضعة لقرطاجة وحلفائها وجنودها وكل بلاد ومدن ايطاليا وفرنسا

وليجوريا المتحلفين معهم وكل من يرغب في أن يصبح حليفا من هذه البلاد.

«فنحن لا نبحث عن المضايقات لبعضنا ولا ننصب الشراك لبعضنا ونعلن من كل قولبنا وبكل رغبة صادقة بدون خداع ولا خيانة اننا سنصبح أعداء لكل من يعادي القرطاجيين ويحاربهم باستثناء الملوك والمدن والشعوب التي تربطكم بها روابط صداقة وتحالف ونحن بالمثل نقف ضد كل من يعلن الحرب على الملك فيليب عدا الملوك والمدن والشعوب التي تربطنا بها روابط صداقة أو تحالف.

«وأنتم ستصبحون حلفاءنا في الحرب التي سنعلنها على الرومان حتى تمنحنا الالهة النصر وسوف تقدمون لنا العون اذا ما احتجنا اليه وحسب ما هو متفق عليه بيننا وعندما تهبنا الالهة النصر في الحرب مع الرومان وحلفائهم واذا ما طلب الرومان أن نتحالف معهم فسوف نفعل مع مراعاة ما يخصكم في هذه المعاهدة بالشروط التالية :

ـ أن يمنع الرومان من رفع السلاح في وجهكم وأن يتنازلوا عن امتلاك كوركير وابوللونيا وايدامنينا ودبمالي وبلاد البارثيين واثيناتي وأن يردوا لديمتريوس من فاروس كل أصدقائه ممن هم في حوزة السلطات الرومانية، واذا ما دخل الرومان في حرب ضدنا أو ضدكم فسوف نتبادل المساعدات العسكرية التي يمكننا تقديمها والتي يحتاج اليها كل منا، وسوف نفعل بالمثل في حالة اذا ما حدث ودخل آخرون في حرب ضدكم أو ضدنا الا اذا كانوا ملوكا أو أمما أو مدنا متحالفة معنا ومعكم أو ترتبط بروابط الصداقة.

واذا ما وجدنا من الضروري أن نضيف شيئا أو نفسره في نصوص هذه المعاهدة فلن نفعل ذلك الا بعد موافقتكم وموافقتنا».

ومن المعروف أن الملك فيليب هذا الذي تشير اليه هذه المعاهدة هو فيليب الخامس الذي تحالف مع حنا بعل القرطاجي سنة 217 ق.م. وكان مندوب فيليب هو كسينوفان ليوقع على هذه المعاهدة مع حنا بعل وبمقتضاها بعد الهجوم على سواحل ايطاليا تصبح كل مدنها وروما ملكا لحنا بعل والقرطاجيين ، وبعد ذلك يتجه القرطاجيون لاخضاع خصوم فيليب المقدوني حتى تصبح بلاد الاغريق ملكا لفيليب. وبعد أن زار مندوبو قرطاجة وهم جيسجون وبوستار وماجون معبد (جونون

لاسينيا) وغادرا البلاد للعودة الى حنا بعل اذا بأسطول روماني يتعقبهم في عرض البحر ويأسرهم، فأسروا (كسينوفان) مندوب فيليب الذي ادعى ان ملكه أرسله للتفاوض مع الرومان كما تم استجواب مندوبي حنا بعل فعثروا معهم على خطاب -حنا بعل الى فيليب ومضمون المعاهدة[1] فأرسلوهم الى روما كل في سفينة بمفرده في حراسة لوكيوس فاليريوس انتياس، حتى لا يتكلم أحدهم الى الآخر. علما بأن هذا التوضيح علمناه من تيتوس الفقرة 34 في كتابه.

ونلاحظ كذلك وجود تشابه بين مقدمة هذه المعاهدة ومقدمة تلك المعاهدة التي وقعها الملك المصري رمسيس الثاني[2] مع خاتوسيل الثالث ملك الحيثيين من حيث اشهاد مختلف الالهة على نصوص المعاهدة في سنة 1278 ق.م.

ويروي لنا المؤرخ بوليبيوس[3] أهم بنود المعاهدة التي فرضتها روما على قرطاجة وهي «أن يحتفظ القرطاجيون بما كانوا يمتلكون من مدن في شمال افريقيا قبل دخولهم في حرب مع الرومان وأراضيهم القديم وقطعان ماشيتهم وعبيدهم وكل ممتلكاتهم وابتداء من هذا اليوم لا تقوم عداوة ويمكنهم أن يعيشوا طبقا لقوانينهم وعاداتهم ولن تفرض عليهم أي حاميات.»

ثم يأتي بعد ذلك ما تطلبه روما من قرطاجة «يقوم القرطاجيون بدفع تعويضات للرومان عن كل الأضرار التي تسببوا فيها أثناء هجوماتهم في فترة الهدنة، وعليهم أن يسلموا للرومان كل من وقع لديهم في الأسر منذ بداية الحرب البونية الثانية، وأن يسلموا جميع سفنهم الحربية ولا يحتفظوا الا بعشرة، وأن يسلموا ما لديهم من فيلة ويحرم عليهم أن يشنوا حربا خارج الأراضي الافريقية أو في داخلها الا بعد موافقة الرومان، وان يردوا الى ماسينيسا كل ما ينتمي له ولاجداده من بيوت وأراض ومدن.. الخ. في داخل المناطق التي ستحدد فيما بعد ويضمنون تموين الجيش الروماني بالمؤن لمدة ثلاثة أشهر، ويدفعون مرتباتهم حتى يتم استلام رد من روما بخصوص هذه المعاهدة، كما يدفعون للرومان مبلغا وقدره عشرة آلاف تالنتوم لمدة خمسين عاما.... ».

(1) «Ad amicitiam» et en «Egyptienne»: Brt, cf. Kitchen, Ugarit Forschungen, II (1979), p. 453-464.
(2) D.-Vandier, l'Egypte des origines à..., p. 426-427.
(3) Polype, Histoire, 8 XV (18), p. 779.

تلك هي العبارات التي قرأها (سكيبيو الاميلي على مندوبي قرطاجة وكان ملكهم حنا بعل قد بلغ الخمسة والأربعين من عمره، كما استند ماسينيسا على الفقرة الأخيرة من هذه المعاهدة في توسيع رقعة مملكته على حساب قرطاجة، فقامت روما بضم بعض الأراضي التابعة لقرطاجة الى ممتلكات ماسينيسا مكونة ولاية (افريقيا) ومن ذلك التاريخ بدأت الحضارة النوميدية تزدهر منذ سنة 193 ق.م. وفي سنة 148 ق.م. توفي مستاسا، وقبل وفاته كلف صديقه سكيبيو الاميلي بأن يعهد لابنائه من بعده بحكم نوميديا، فقسم شؤون المملكة على النحو التالي: عهد لابنه الأكبر ميسيبسا أو مكوسن بالشؤون الادارية، وعهد الى جولوسا بالجيش، وعهد الى مستابنال بالقضاء، وتؤكد اللوحة 63 من لوحات الحفرة والمكتوبة بالخط البوني هذا التسلسل الوراثي[4].

وكان مسيبسا له ولدان اذربعل وحيمبسال، كما كان مستانبال له ابن من احدى المحظيات وهو يوغرطة، ولقد اقتسم هؤلاء الثلاثة العرش بعد وفاة مسبسا في سنة 118 ق.م.، ولكن يوغرطة دخل في صراع مع منافسيه، وتخلص منهما فلجأ اذربعل الى روما يستنجد بها ويحاول اقناع السناتو بمساعدته، فأرسلوا السفراء الى يوغرطة الذي استولى على (كيرتا) قسنطينة، وقتل اذربعل والجالية الايطالية الموجودة بها فأدى ذلك الى اشتعال نار الحرب بين روما وبين يوغرطة والتي ابدع الكاتب (سالوست) في وصفها فخاض يوغرطة حربا للعصابات ضد روما من سنة 112 الى سنة 105 ق.م.، انتهت بأسر هذا الأمير المغتصب في سنة 105 ق.م.، وقتل في سجنه في روما وأبعدت روما أبناءه عن العرش وعينت (جودا) الذي كان ابنا لمستانبال خلفا له. ثم خلفه حيمبسال الثاني من بعده واستمر في الحكم حتى سنة 60 ق.م.، ثم خلفه (يوبا) الأول من سنة 60 حتى سنة 46 ق.م، ومن بعده يوبا الثاني من سنة 25 ق.م، الى 23 بعد الميلاد، الذي انتقل بعاصمة البلاد الى يول أو قيصرية (شرشال)، وكان هذا الأخير قد تربى في روما وكان محبا للثقافة الاغريقية وهناك تعرف على (كليوباترا القمر) ابنة كليوباترا السابقة ملكة مصر، فتزوجها وأقاما في قصرهما في يول أو قيصرية.

(4) J. Mazard, Corpus nummorum..., pp. 27-29.

الخلاصة :

بعد هذا نلخص الدور الذي أدته روما في كل هذه الأحداث التاريخية حيث أنها أولا أرادت القضاء على منافستها الأولى في حوض البحر المتوسط وهي قرطاجة، فكان لها ذلك بتدميرها في سنة 146 ق.م، ثم تحالفت مع ماساناسا بعض الوقت وأخيرا انقلبت على أحفاده فقتلت يوغرطة في سجنه بروما، فقضت بذلك على بذرة الحضارة البونية والنوميدية التي لو قدر لها وازدهرت لانقلبت موازين القوى في العالم العربي ولسادت حضارة الشرق على حضارة الغرب هذا لو كان قدر لحنا بعل أن ينتصر على الرومان في معاركه في ايطاليا واسبانيا وشمال افريقيا.

حول شخصية عقبة بن نافع الفهري(*)

عبد الحميد حاجيات

لقد حظي عقبة بن نافع الفهري بشهرة كبرى، لم يحظ بها الا القليل من أبطال التاريخ الاسلامي فقد أولته الجماهير، منذ بداية العصر الاسلامي، احتراما وتقديرا لم توله الا لكبار الأولياء والصالحين، فسمته «عقبة المستجاب». كما عني به المؤرخون والقصاص، فأوردوا ما تناقله الرواة من الاخبار عنه، وحدثوا عن أعماله أكثر مما حدثوا عن أعمال غيره من قادة الفتح الاسلامي.

غير ان معظم ما وصلنا من تلك الأخبار يحمل طابعا قصصيا، يجعله في كثير من الأحيان أقرب الى الاسطورة منه الى التاريخ. ولا شك ان ما تتضمنه بعضها من المبالغة والغلو ينعكس على تصورنا لشخصية عقبة وللدور الذي قام به في حركة الفتح، ويؤدي أحيانا الى التناقض والغموض.

وحديثنا عن شخصية عقبة بن نافع لا يهدف الى تمجيد هذا القائد الشهير، وتعداد بطولاته ومفاخره. وانما غرضنا هو محاولة تسليط بعض الأضواء على أعماله، ووضعها في اطارها السياسي، واستنتاج أبعادها الحقيقية، مما قد يساعد على الحد من ذلك التناقض، وكشف بعض الغموض في تصورنا لشخصية عقبة.

ومن جهة أخرى، فمعالجتنا لهذا الموضوع تنحصر في استخلاص بعض جوانب شخصية عقبة من الاخبار التي أوردتها المصادر التاريخية، ومن أعماله وتصرفاته التي

ذكرها الرواة. وبما أن الموضوع يقتصر على تصور شخصية عقبة، فلم نستعرض دوره خلال حركة الفتح، ولم نستقص أخبار الحملات التي قادها في بلاد المغرب، ولا سيما حملته الشهيرة، التي انتهت بوفاته في معركة تهودا سنة 63 هـ.

والذي يلفت انتباهنا، عندما نطالع المصادر التاريخية، هو انها تقدم لنا صورتين متباينتين لعقبة. فبعض الأخبار تنوّه بقوة ايمانه، وبما ظهر على يده من كرامات، وتشيد بتفانيه في نشر الاسلام والقضاء على الكفر والشرك، بينما تشير أخرى الى فتكه بأهالي المغرب، واكثاره من التقتيل والسبي، ومعاملته القاسية لهم، وانقياده للحقد والانتقام، وجنوحه الى العنف والشدة.

فهل يمكن التوفيق بين هاتين الصورتين المختلفتين؟ أم هل نستطيع الوصول الى تصور آخر، على ضوء بعض المعطيات التاريخية والاجتماعية، التي قد تفسر الكثير من تصرفات قادة الفتح الاسلامي؟

لسنا نشك أن كثيرا من الرواة وضعوا الأخبار بقصد تمجيد عقبة ورفاقه، شهداء معركة تهودا، فنقل المؤرخون القدماء تلك الأخبار واعتبروها صحيحة. فيقول مثلا ابن عذارى: «ويروى أن النبي ﷺ أنذر بقتل عقبة (رضي الله عنه) وأصحابه (رضي الله عنهم)، وانه عليه الصلاة والسلام نهى عن سكنى مدينة تهودا، وقال: سوف يقتل عليها رجال من امتي مجاهدون في سبيل الله، ثوابهم كثواب أهل بدر، ما بدّلوا ولا غيّروا، يأتون يوم القيامة وسيوفهم على عواتقهم. وكان شهر بن حوشب يقول: واشوقاه اليهم. وكان يقول: سألت أكثر العلماء عن هذه العصابة، فقال: ذلك عقبة بن نافع وأصحابه قتله البربر والروم بمدينة تسمى تهودا، فمنها يحشرون حتى يقفوا بين يدي الله سبحانه.»(1).

ومن الكرامات التي نسبت الى عقبة ما حكاه ابن عبد الحكم، وهو أنه، عندما اراد بناء القيروان، «أتى وادي القيروان، فبات عليه هو وأصحابه حتى اذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال: يا أهل الوادي، اظعنوا، فانا نازلون، قال ذلك ثلاث مرات. فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرهما مما يعرف من الدواب، تخرج ذاهبة، وهم قيام ينظرون اليها من حيث أصبحوا حتى أوجعتهم الشمس، وحتى لم يروا منها شيئا، فنزلوا الوادي عند ذلك.»(2).

ومثل هذه الحكايات، ان دلت على شيء فانما تدل على ميل الناس الى الاخبار العجيبة، الخارجة عن العادي والمألوف، وحرص الرواة على ارضائهم، منتهجين في ذلك أسلوب القصاص، الذي يمتاز بالاعتماد على كل ما هو خارج عن العادة، كالتنبؤات والخوارق والكرامات. واذا كان بعض ما روي من ذلك يصور عقبة على هيئة الصلحاء المقربين، فان البعض الآخر يقص علينا تصرفات كلها تشدد وقساوة وعنف قد يتنافى أحيانا مع مبادئ الاسلام أو يكاد.

ومن هذا القبيل ما أورده ابن عبد الحكم في صدد الحديث عن فتح عقبة لبلاد برقة، سنة 46 هـ. وذلك أن عقبة «قدم ودّان فافتتحها. وأخذ ملكهم فجدع أذنه، فقال: لما فعلت هذا بي وقد عاهدتني؟ فقال عقبة: فعلت هذا بك أدبا لك. اذا مسست أذنك ذكرته، فلم تحارب العرب.» ونفس القساوة تتكرر مع ملك جرمة، قاعدة فزان، وكان أهلها قد أجابوا الدعوة للاسلام. فنزل عقبة منها على ستة أميال، «وخرج ملكهم يريد عقبة، وأرسل عقبة خيلا. فحالت بين ملكهم وبين موكبه، فامشوه راجلا حتى أتى عقبة وقد لغب، وكان ناعما، فجعل يبصق الدم، فقال له: لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا؟ فقال عقبة: أدبا لك، اذا ذكرته لم تحارب العرب.» ويتمادى نفس السلوك في قصور كوار، حيث أن عقبة أخذ ملكها «فقطع اصبعه، فقال: لم فعلت هذا بي؟ قال: أدبا لك، اذا أنت نظرت الى اصبعك لم تحارب العرب.»(3).

والظاهر ان هذا الخبر لم يوضع لغرض التاريخ وانما وضع لمجرد تسلية المستمع والترفيه عنه، واثارة تعجبه أو ضحكه. وينبغي اذن اعتباره قصة اخترعها القصاص، وادرجها الرواة في اخبارهم لملء فراغ المعطيات التاريخية الموثوق بصحتها. والتحفظ في معالجة المصادر القديمة أمر ضروري، اذا أردنا أن نصل الى تصور سليم ومقبول لشخصية عقبة وغيره من أبطال التاريخ. أما اذا أخذنا بمثل هذا الخبر، وتساهلنا في قبول أقوال الرواة، فان ذلك يؤدي بنا حتما الى التناقض بين استنتاجات مختلف الأخبار، وتنافر تصوراتنا لجوانب شخصية عقبة التي تعنيها.

ولذا، فاننا نرى ضرورة استبعاد كل ما هو من باب العجائب والخوارق، وكذلك كل ما يعتقد ان فيه غلوا ومبالغة، سواء في المدح أو في الذم. فلا يعقل أن

يؤخذ بما اعتاد المؤرخون أن يذكروه في حديثهم عن الفتوح من ابادة الأهالي واستئصالهم، والاكثار من السبي والغنائم. ولا جدال ان الفتح الاسلامي كان يرمي، قبل كل شيء، الى هدف أسمى، الا وهو نشر الاسلام بين الأهالي، وتطبيق مبادئه الداعية الى العدل والمساواة واحترام الأديان الأخرى. ولسنا نشك ان عقبة وغيره من قادة الفتح الاسلامي لم يحيدوا عن هذه المبادئ. والدليل على ذلك اقبال معظم الأهالي على اعتناق الاسلام، واندماجهم في مدة قصيرة، ضمن حظيرة الشعوب الاسلامية، ومساهمتهم الهامة في فتح الاندلس، وفي نشر الاسلام عبر كثير من مناطق المغرب.

أما موقف عقبة من أبي المهاجر دينار وكسيلة الأوربي، فقد اعتبره البعض مظهرا من مظاهر العنف والحقد والقساوة. غير أن الحكم على معاملة عقبة لأبي المهاجر، اثر عودته الى افريقية للمرة الثانية، يتطلب التعرض الى البيئة السياسية التي كانت سائدة آنذاك في العالم العربي، والتساؤل عما اذا كان الخلاف الذي قام بين أبي المهاجر وعقبة يندرج ضمن صراع أوسع بين قوتين من القوى السياسية المتواجدة آنذاك.

أما عقبة، فهو ينتسب الى قبيلة قريش، وكانت صلة قرابة تربط بينه وبين عمرو بن العاص، الذي كان من كبار مؤيدي معاوية بن أبي سفيان. وكان عقبة قد ساهم مع أبيه في حركة فتح مصر، وقد أرسله عمرو بن العاص الى زويلة، ففتح ناحيتها. ولما عاد عمرو الى ولاية مصر، سنة 41 هـ، أرسل عقبة الى غدامس، ففتحها سنة 42 هـ ـ 662 م. وتوفي عمرو سنة 43 هـ. ثم عهد معاوية بن أبي سفيان الى عقبة بقيادة جند افريقية سنة 46 هـ، فقدم الى ليبيا، وفتح ناحية فزان، ثم بلاد مزاتة، ثم قفصة وبلاد الجريد، ثم شرع في بناء القيروان، الى أن تم عزله سنة 51 هـ من طرف والي مصر، مسلمة بن مخلد الانصاري، الذي عين مكانه أبا المهاجر دينارا مولاه. وكان معاوية قد ولّى مسلمة على مصر والمغرب.

وقد تساءل الكثير حول سبب عزل عقبة، فمنهم من عزا عزله الى الشدة التي سار عليها في معاملة البربر[4]. ومنهم من رأى، على عكس ذلك، أن سياسة عقبة آنذاك لم تؤد الى الحصول على الكثير من السبي والغنائم، مما قد يكون أغضب والي

مصر[5]. ويبدو أن هناك تفسيرا آخر قد يساعد على تفهم سبب عزل عقبة.

فمسلمة بن مخلد كان من أصحاب معاوية بن أبي سفيان، وحضر معه معركة صفين. ولذا، فانه كان يحتل مكانة سامية من بين المقربين الى الخليفة الأموي. ثم انه كان من الانصار، ولا شك ان معاوية كان يحرص على كسب تأييد هؤلاء لحكمه ولولاية عهد ابنه يزيد. والجدير بالملاحظة ان الانصار كانوا يشكلون قوة سياسية يحسب لها حسابها، ولا سيما أن مشاكل الخلافة، بعد وفاة الرسول ﷺ، قد أدت الى منافسة شديدة بين الانصار والمهاجرين على الحكم، كل فريق يرى أنه أحق بالخلافة. وازدادت هذه المنافسة حدة بعد ذلك، بقدر ما اشتد الصراع بين اليمنية والمضرية، وكذلك بين العرب والموالي من الفرس وغيرهم. أضف الى ذلك أن مسلمة الانصاري كان قد حرم من ولاية مصر طيلة حياة عمرو بن العاص، وكان، خلال ذلك، شديد الحرص عليها. فكيف لا يقدم على عزل عقبة الفهري، الذي كان أحد أقرباء عمرو، وحظي لديه، ومارس على يده مهامه العسكرية الأولى؟

وقد ذكر ابن عبد الحكم أن مسلمة بن مخلد عيّن، مكان عقبة، «أبا المهاجر دينارا مولى الأنصار، وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة أحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه، وأوقره حديدا حتى أتاه الكتاب من الخليفة بتخلية سبيله وأشخاصه اليه.»[5] والذي يتبادر الى الذهن، هو أن عقبة اعتبر تولية أحد الموالي مكانه مسا لكرامته وعزته، وقد يكون ابدى احتقاره لأبي المهاجر، الأمر الذي أدى الى غضب هذا الأخير، والى رد فعله العنيف.

ولسنا نشك أن عقبة بن نافع أنفعل انفعالا شديدا لعزله. وذلك انه كان مثل كثير من معاصريه، شديد الطموح، حريصا على البقاء في الامارة. ويروى ابن عبد الحكم أنه عاتب معاوية على ما حدث قائلا: «فتحت البلاد.. ودانت لي، ثم أرسلت عبد الانصاري، فأساء عزلي»[6]، معربا بذلك عن حنقه على أبي المهاجر. ويشهد على طموح عقبة هذا خبر رواه ابن عبد الحكم، مفاده أن عقبة دخل على عبد الله بن عمرو بن العاص، الذي عين واليا على مصر بعد وفاة أبيه، فقال له: «ما أقدمك يا عقبة؟ فاني أعلمك تحت الامارة.» فأجاب عقبة: «ان أمير المؤمنين يريد العقد لي على جيش الى افريقية»[5].

ولا غرابة أن ينتقم عقبة من أبي المهاجر لما أصابه من هوان ومذلّة، ويحتمل أن يكون تصميم عقبة على الانتقام لكرامته من أهم دوافع حرصه على العودة الى قيادة جيش افريقية.

أما ما قيل حول موقف عقبة من كسيلة فحديث مضطرب. وكسيلة شخص مبهم، اختلف المؤرخون في اسمه واسم أبيه، وفي ديانته، ومقر قبيلته. وقد سمي في رواية باسم ابن الكاهنة (٥). أما البلاذري، فلم يذكره اطلاقا (٥). ومن المحتمل جدا أن ما روي حول معاملة عقبة القاسية لكسيلة قد وضعه القصاص قصد ايجاد دافع للعملية التي دبرها كسيلة وحلفاؤه الروم للقضاء على عقبة ورفاقه. وعلى كل حال، فان هذه القصة لا تخلو من غموض، ولا يمكن الأخذ بها دون تمحيص ونقد وتحقيق.

• • •

وهكذا، فشخصية عقبة تعكس طابع العصر الذي عاش فيه، والبيئة الاجتماعية والسياسية التي كانت تحيط به.

فكان عقبة، مثل معظم الصحابة والتابعين، قوى الايمان، شديد الحرص على اعلاء كلمة الله ونشر دينه الحنيف، وتطبيق تعاليمه ومبادئه السمحة، لا تزعزع ارادته الشدائد والمشاق، ولا تثني عزمه الاخطار.

وكان عقبة شجاعا الى حد الاستماتة، يحمل نفسه ما لا تطيق، ويتجشم الصعاب برباطة جأش وعزيمة فولاذية. وعقبة هو، قبل كل شيء، فاتح صحراء ليبيا وجنوب افريقية، ومؤسس مدينة القيروان.

وكان، مثل غيره من أبناء قريش، فخورا بارومته، معتزا بشرف نسبه، وعزة عشيرته، طموحا، عالي الهمة، لا يتأخر عن طلب المجد، والتطلع الى المهام السامية، والمناصب العليا. وكان أبيا، لا يقبل اهانة، ولا يرضى بالمذلة.

فكانت أعماله نابعة من هذه القيم، وكانت تصرفاته صادرة عن هذه الخصال، التي جعلت منه قدوة للفرسان المجاهدين، الذين بذلوا نفوسهم خلال حركة الفتح الاسلامي، وبعدها.

وكان لاستشهاد عقبة أعمق الأثر في نفوس معاصريه والأجيال التالية، حيث أنه أعطى نفسا جديدا لحركة الفتح بافريقية، وسقى بدمه أرضها، فكانت منبتا خصبا للبطولة، وموطنا صالحا للاسلام والعروبة.

الهوامش :

(٥) هذا البحث ألقي في الملتقى الأول لحركة الفتوح الاسلامية بالمغرب الاسلامي، المنعقد بولاية بسكرة في الفترة ما بين 24 ـ 28 ابريل 1985.

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، ج 1 ص 30.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص 265.

(3) نفس المصدر، ص 262 ـ 263.

(4) راجع عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ج 2، ص 59.

(5) راجع موسى لقبال، المغرب الاسلامي، ص 41 ـ 42.

(6) راجع ابن عبد الحكم، المصدر المذكور، ص 265 ـ 266.

(7) نفسه، ص. 266.

(8) نفسه، ص 268.

(9) نفسه، ص 268.

(10) عبد المنعم ماجد، المرجع المذكور، ص 59 ـ 60.

دراسة عن رسالة البابا جريجوري السابع
الى
العاهل الحمادي الناصر بن علناس
في عام 469 هـ ـ 1076 م

سامي سلطان سعد

حفظ لنا الزمن رسالة وجهها البابا جريجوري السابع (1073 ـ 1085 م) لأمير دولة بني حماد الناصر بن علناس (1062 ـ 1088 م)، بتاريخ عام 1076 م، هي أقدم اتصال عرف بين البابوية الرومانية وحكام المغرب الاسلامي.

وفي الحقيقة فان هذه الوثيقة فريدة من نوعها بين سائر الرسائل البابوية الأخرى لهؤلاء الحكام، ليس فقط من حيث تاريخها السابق لتاريخ أقدم هذه الرسائل بنحو قرن وربع القرن[1]، ولكن أيضا من حيث محتواها وأسلوب صياغتها.

ولعل من المناسب، لسهولة دراستها، أن نعرض نصها مترجما الى اللغة العربية[2] على النحو التالي :

«من الأسقف جريجوريوس، خادم خدام الله، الى الناصر ملك اقليم موريطانيا السطيفية في افريقيا. تحية وبركة رسولية.

لقد بعث لنا نبالتك في هذه السنة نفسها رسائل لكي نقوم بسيامة القس سرفانُوس أسقفا وفق الشريعة المسيحية، وهذا ما عجّلنا بعمله، لأن طلبك بدا لنا عادلا ومثاليا.

ولقد أرسلت الينا أيضا هدايا. ومراعاة للقديس بطرس أمير الرسل، ومحبة

فينا، حرّرت المسيحيين المحتجزين أسرى لديكم، كما وعدت بأن تطلق سراح الأسرى الآخرين.

انه، بكل تأكيد، الله، خالق جميع الأشياء، والذي من غيره لا نستطيع أن نفعل شيئا ، ولا أن نفكر في الخير، هو الذي ألهم قلبك هذا الصنيع الطيب.

ان الله، الذي يهدي كل انسان آت الى هذا العالم، قد أضاء ذهنك لهذه الغاية. ان الله، كلّي القدرة، الذي يريد أن يكون جميع الناس سالمين، وأن لا يهلك أحد، لا يستحسن، في الحقيقة، شيئا فينا أكثر من أن يحب الانسان الناس بعد حبه لله، وأن ما لا يريد أن يفعله الآخرون به لا يفعله هو بهم.

وعلى ذلك ينبغي أن تكون المحبة، بيننا، نحن وأنتم بوجه خاص، أكثر مما تكون بيننا وبين الشعوب الأخرى، طالما أننا نؤمن ونعترف ـ بطريقة مختلفة في الحقيقة ـ بإله واحد نسبّح بحمده، ونجلّه كل يوم خالقا للأجيال وحكام هذا العالم.

وكما قال الرسول[3] : «هو سلامنا، هو جعل الاثنين واحدا».

وأيضا، فانه عندما علم الكثيرون من أشراف روما، عن طريقنا، بالنعمة التي منحك اياها الله، أعجبوا بطيبتك وبفضائلك وأذاعوها للجميع. ومن بين هؤلاء اثنان من المقربين الينا ـ البيريكوس Albercius كنكيوس Cincius ـ تربيا معنا، تقريبا، منذ صباهما في القصر الروماني. وهما اذ يرغبان كثيرا في الوصول الى صداقتك ومحبتك، وفي أن يقوما باغتباط بخدمتك في دوائرنا، بما يروق لك، يرسلان اليك رجالا من لدنهما، سوف تعرف عن طريقهم، كم هما يعتبرانك حكيما وشهما، وكم هما يريدان، ويستطيعان، أن يقوما بخدمتك بسرور. ونحن، ، اذ نوصي بهؤلاء الرجال لدى فخامتك، نطلب أن توليهم جلّ اهتمامك ـ من واقع محبتك لنا، ومن أجل مكافأة ذلكما الرجلين على ثقتهما ـ بنفس المحبة التي ترغب دائما في التعبير عنها نحوك ونحو ذويك.

ان الله يعرف جيدا أننا نعزك باخلاص من أجل مجده، واننا نبتغي سلامتك ومجدك في الحياة الحاضرة والمستقبلة. ونحن أيضا نطلب من الله، بالشفاه، ومن القلب، بأن يتلقاك بنفسه، بعد حياة طويلة، في حضن الطوباوي الأقدس الأب ابراهيم.»

كان ذلك نص رسالة البابا جريجوري السابع للناصر بن علناس ولعل أول ما يلفت النظر فيها أنها ذات طابع متفتح القلب. ويعتقد دي ماس لاتري بأنه ربما لا يوجد بابا آخر عبّر عن ودّه لأمير مسلم بمثل هذا التدفق. ويقول بأن بعض المجاملات أظهرت للخلفاء أو للأمراء المسلمين في الرسائل الموجهة اليهم من قبل بابوات روما للشكر أو لطلب مكرمة، ومع ذلك احتفظ البابوات في هذه الرسائل بلهجة التعالي والتحذير، ولم يبدوا فيها سوى القليل من الود، وهذا نجده أيضا في رسائل الأمراء المسلمين للبابوات، ولكنه لا يكاد يحس به في العلاقات بين جريجوري السابع والناصر بن علناس.

وواضح من الرسالة بأن المبادرة جاءت من جانب الناصر بن علناس، فهو ـ الى جانب أنه طلب بنفسه من البابا بأن يقوم بسيامة القس سرفاندوس أسقفا للمسيحيين في عاصمة بلاده، وهو أمر كان يمكن أن يتركه لأبناء الطائفة المسيحية في امارته ـ قام كذلك، وبدافع من نفسه، بتحرير الأسرى المسيحيين في دولته، ووعد بان يستمر في السير على هذا الدرب.

ومن الممكن أن نقبل هنا ما قاله المؤرخ كريسيان كورتوا Christian Courtois بأن الأسرى المحررين لا يمكن أن يكون عددهم كبيرا نظرا لضعف الامكانيات المتاحة وقتذاك للحماديين للايقاع بأسرى مسيحيين في البحر أو أثناء غزو بلادهم(٤)، وربما كان قلة عددهم ما شجع الناصر على أن يبذل الوعد باطلاق سراح من يقع تحت يده من أسرى آخرين.

ولكن من الصعوبة بمكان أن نوافق على ما ذهب اليه هذا المؤرخ من أن الناصر انما حرر هؤلاء الأسرى المسيحيين للاسهام في بناء عاصمته الثانية بجاية، أكثر مما حررهم لا بدافع الرغبة في عمل شيء محبب لدى البابا(٥)، وذلك لأن هذا العمل الانشائي يمكن أن يقوموا به أيضا وهم أسرى، وبخاصة اذا عرفنا بأن الأسرى كانوا عادة يرغمون على القيام بمختلف الخدمات الى حين افتكاكهم أو موتهم(٦).

ومهما يكن من أمر ذلك، فقد استقبل البابا جريجوري السابع مبادرة الناصر بن علناس بحماس شديد. ولكن يظهر له أنه لا يقل عنه تسامحا كتب اليه في رسالته ـ وهو نفسه البابا جريجوري السابع الذي وصف المسلمين، في رسالة وجهها لرئيس أساقفة قرطاجة المدعو قرياقص Cyriacus بتاريخ 16 سبتمبر سنة 1073 م(٨)،

أي قبل ثلاث سنوات فقط، بأنهم كفار أو وثنيون(٩)، وبأنهم امة فاسدة ومنحرفة(١٠) ـ بأنه يعتبر أن المسلمين والمسيحيين أمة واحدة، طالما أن الجماعتين يعبدان الها واحدا ولو بطرق مختلفة. وامعانا منه في المجاملة، لم يستخدم اسم المسيح ـ عليه السلام ـ اطلاقا في رسالته كلها من أولها الى آخرها، مقتصرا على ذكر الله ـ جل جلاله ـ وهو ما لم يحدث أبدا في أية رسالة بابوية أخرى لعاهل مسلم أو غير مسلم، وذلك حتى لا يوجه فكر الناصر الى الاختلاف الرئيسي القائم بين العقيدتين الاسلامية والمسيحية حول طبيعة السيد المسيح يضاف الى ذلك أن البابا جريجوري السابع استشهد في خاتمة رسالته بابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ الذي يقدسه المسلمون والمسيحيون على حد سواء، وتحاشى كلية ذكر عبارات التبشير الصريح التي نضحت بها سائر الرسائل البابوية الأخرى لحكام المغرب الاسلامي(١١).

ولنا الآن أن نتساءل عن الدوافع الكامنة وراء قيام الناصر بن علناس بمبادرته لعقد صلة صداقة مع الكرسي البابوي في روما، والقبول الحماسي من جانب البابا جريجوري السابع لهذه المبادرة. وفي الحقيقة فاننا لا نملك شيئا محققا يمكن أن يميط اللثام عن سر تصرف الناصر بن علناس. ولقد ذهب المؤرخ ماس لاتري الى القول بأن هذا السر ربما يكمن في الأصل البربري والمسيحي لابن حماد واسرته(١٢)، وهو قول بني على فرض خاطئ بأن الحكام المولودين من أمهات مسيحيات أجنبيات لا بد وأن يكونوا متعاطفين أكثر من غيرهم مع الغرب المسيحي، وكذا الحكام المتحدرون من أصل بربري أخذا في الاعتبار ذلك الماضي المسيحي للمغربين الأدنى والأوسط، حيث كان أجدادهم يعيشون تحت حكم الأجانب، رومانا كانوا أم وندالا أم بيزنطيين، وعلاقات الود بين بعض هؤلاء الأجداد ـ وهم بحسب ذلك الفرض جميعا مسيحيون ـ وبين الكرسي البابوي، وبخاصة منذ عهد البابا جريجوري الأول، الشهير بالقديس جرجوري العظيم (590 ـ 604 م)، هذا اذا أردنا أن نغض الطرف عما يحمله قول ماس لاتري بين طياته من أهداف استعمارية واضحة قوامها تخريب اتحاد عنصري الأمة الجزائرية التي كانت تحتلها بلاده فرنسا وقت تأليفه كتابه(١٣)، وذلك اكراما وتقديرا لما أبداه من عدم تعصب وانصاف في مواضيع أخرى من كتابه، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بتسامح الاسلام وعدالته.

وعلى كل حال فان ماس لاتري لم يقطع في الأمر، واستدرك قائلا بأنه لا يجوز على التأكيد على فروض مشابهة لهذا الفرض. وقد لاحظ المؤرخ كريستيان كورتوا بدوره ان ما أبداه الناصر بن علناس من تسامح نحو المسيحيين يمثل واقع السياسة التي انتهجها، بدرجات متفاوتة، جميع حكام المغرب الاسلامي. ولكن الأمر الفريد، عند هذا المؤرخ، هو أن يتصل الناصر بالبابا، ولم يجد كورتوا ما يعلل به هذا التصرف من جانب الأمير الحمادي سوى قوله باحتمال عدم وجود أساقفة في امارته يتولون هذه المهمة، بعد أن أصبحت قرطاجة ـ مقر مقدم أساقفة المغرب جميعا ـ في يد غرمائه الخراسانيين حكام تونس، أو باحتمال التأثر بذيوع شهرة البابوية منذ منتصف القرن الميلادي الحادي عشر [14].

ونحن في الحقيقة نعرف، بمقتضى أقوال ابن خلدون، بأن قوات تميم بن المعز، أمير المهدية، حاصرت مدينة تونس لمدة أربعة أشهر من عام 458 هـ ـ 1065 م الى أن صالحه حاكمها عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان، وهو من رجال الناصر، «واستقام على طاعته فأفرج عنه، ولم يزل قائما بأمره الى أن هلك سنة ثمان وثمانين» [15] (488 هـ ـ 1095 م). ومع ذلك فان من الصعوبة علينا بمكان أن نقبل ما افترضه المؤرخ كورتوا من انقطاع الصلة بين هيئة رجال الدين المسيحي في الدولة الحمادية، وبين مقدمهم رئيس أساقفة قرطاجة، بسبب انقطاع ولاء حاكم تونس الخراساني ـ الذي تدخل قرطاجة أيضا في نطاق حكمه ـ لسيده أمير بجاية الناصر بن علناس الحمادي. ويكفي للتدليل على دوام هذه الصلة القول بأن البابا جريجوري السابع بعث برسالة كتبها في شهر يونية عام 1076 م، الى رئيس أساقفة قرطاجة المدعو قرياقص، صحبة سرفاندوس نفسه، عند عودته الى بلاده بعد أن نصبه البابا في روما أسقفا على مسيحي بجاية، وان البابا طلب في هذه الرسالة من قرياقص القرطاجي أن يتعاون مع سرفاندوس في اختيار قس ليقوم البابا في روما بسيامته أسقفا ثالثا معهما فيصبح في الامكان سيامة أي أسقف جديد تحتاجه كنائس المغرب في المغرب نفسه وفق القانون الكنسي الذي يشترط أن تتم هذه العملية على يد ثلاثة أساقفة على الأقل كما يفهم من الرسالة [16]

وبالمثل فانه ليس من السهل علينا الموافقة على قول هذا المؤرخ كريستيان كورتوا باحتمال تأثير شهرة البابوية على الناصر بن علناس، لأننا لا نرى في هذه

الشهرة ما يمكن أن يهم الناصر أو يفيده في شيء. انه لمن الواضح فيما يبدو لنا أن الناصر الحمادي كان يهدف من وراء مبادرته الى تحقيق فائدة ما لدى البابا جريجوري السابع أكثر بكثير من أن يقوم البابا بتعيين القس سرفاندوس أسقفا لمسيحي عاصمته بجاية [17]، والا فقد كان يكفي أن يطلب من البابا تنصيب هذا الأسقف، فيستجيب البابا مرحبا لطلبه الذي هو في صالحه قبل أن يكون في صالح الناصر، ولم يكن هناك ما يدعو الأمير الحمادي الى افتكاك الأسرى المسيحيين في بلاده، ويقدم الوعد بتحرير كل أسير مسيحي آخر يقع تحت يده في المستقبل، مع ما يكلفه ذلك من مال وفير يدفعه لمن قاموا بأسرهم.

فهل كان الناصر يهمه كثيرا أن يعيّن أسقف في عاصمته بجاية ليجعل منها قرينة أو منافسة في هذا الشأن لمدينة المهدية ،عاصمة قريبه وعدوه تميم بن المعز [18]، وليثبت بأنه نجح في تحقيق ما عجز عن تحقيقه الأمير الخارج عن طاعته عبد الحق بن خراسان في تونس؟ [19] أو هل كان الناصر بن علناس يطمع في أن يمده البابا جريجوري السابع بمرتزقة مسيحيين يتغلب بمساعدتهم على عدوه تميم بن المعز الزيري، أمير المهدية، وعلى العرب الهلالية المسيطرين على أجزاء واسعة من المغرب الأوسط، وعلى المرابطين في المغرب الأقصى اذا حاولوا اجتياح أملاكه، وهو أمر كان يتوقعه ولا شك بالمغرب الأوسط، وان البابا تفهم هدف الناصر، عن طريق سرفاندوس، الذي يكون الناصر قد أفصح له عن رغبته ، وطلب منه توصيلها للبابا، فأرسل له البابا البعثة التي تكلم عنها في رسالته لتتدبر الأمر معه باسم الشريفين الرومانيين البيريكوس Albericus وكنكيوس Cincius ـ وليس باسمه البابوي ـ حتى لا يتسبب في اثارة تميم فيتخلى عن سياسة التسامح التي اشتهر بها مع المسيحيين في امارته. ربما، ولكن الأقرب الى الاحتمال، في نظرنا، ان يكون الناصر بن علناس قد مدّ ببصره الى أبعد من مصلحته الشخصية وذلك أنه في نحو الوقت الذي اتخذ فيه الناصر مبادرته لدى البابا جريجوري السابع كان هذا البابا قد تحرك نحو كل من اسبانيا المسيحية وصقلية النورماندية بما يضر بالمصالح الاسلامية في هذين البلدين. ففي اسبانيا تم الاتفاق بين البابا جريجوري السابع وملك قشتالة وليون، الفونسو السادس ابن فرناندو الأول (اذفونش فرذلند حسبما تسميه المصادر العربية، 465 ـ 495 هـ ـ 1072 ـ 1101 م) على أن تستبدل كنائس هذه المملكة طقوسها القوطية التي

درجت عليها بالطقوس الرومانية تحت رئاسة بابا روما الروحية[20]. وقد اتخذ هذا الاجراء كخطوة أولى لكي تعطي البابوية تأييدها ومساعدتها الصليبية للملك ألفونسو في حروبه ضد المسلمين فيما عرف باسم حركة الاسترداد Reconquista، وهو ما تم بالفعل، حتى أن الحروب التي دارت بعد ذلك في شبه الجزيرة أصبحت من نوع الحروب الصليبية التي تقدم لها البابوية بركاتها ومساعدتها وترسل لتعزيزها المقاتلين الصليبيين من دول أوربا الأخرى، وليس أدل على ذلك من أن البابا أوربانوس الثاني Urbanus (1088 ـ 1099 م) عندما دعا لاعداد أول حملة صليبية لتخليص بيت المقدس من المسلمين (الأتراك السلاجقة) عام 1095 م رفض طلب بعض الاسبان الاشتراك فيها قائلا بأن مكانهم هو قتال المسلمين في اسبانيا[21].

هذا فيما يتعلق باسبانيا، وعن جزيرة صقلية فقد أجرى البابا جريجوري السابع ـ على الأقل منذ أن صدر قرار الأساقفة الألمان وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة المجددة الألماني هنري الرابع (1065 ـ 1106 م) بعزله عن كرسي البابوية في 24 يناير عام 1076 م[22] ـ اتصالات مع حاكمها النورماندي روجر بن تانكري Tancred وأخيه روبرت جيسكارد Robert Juiscard، حاكم جنوب ايطاليا، بهدف التوصل الى التصالح فالتحالف معها في سبيل تأليف جبهة أيطالية قوية قادرة على الوقوف في وجه أطماع الامبراطور هنري الرابع في ايطاليا[23]. ومن المعروف بأن نورمان جنوب ايطاليا كانوا قد بدأوا منذ عام 1060 م في جزيرة صقلية، بقيادة الامير روجر نائبا عن أخيه روبرت كيسكارد، من يد حكامها المسلمين، وتوصلوا في عام 1072 م الى فتح مدينة بالرمو واتخذوها عاصمة لهم، ولكن كانت هناك أجزاء في وسط وجنوب الجزيرة لا تزال، وقت اجراء اتصالات المصالحة بين البابا والنورمان في مطلع عام 1076 م، تحت السيادة الاسلامية، ولم يتم للنورمان الاستيلاء عليها الا تدريجيا وحتى عام 1091 م 484 هـ[24]، وكانت المصالحة البابوية النورماندية وما يتبعها من تحالف تشكل ـ ولا شك ـ عامل قوة خطير لصالح روجر ضد المسلمين في الجزيرة.

فإذا كان من غير المتعذر بل وكان من المتوقع أن تصل أخبار هذا النشاط البابوي الضار بالمسلمين في اسبانيا وصقلية الى الناصر بن علناس، وذلك لقرب

البلدين من بلده، واتصال سكانها الدائم بأهل شمال افريقية بما في ذلك امارة بني حماد في المغرب الأوسط، وكذا وصول التجار والعبيد الأوروبيين باستمرار الى بجاية الحمادية، ووجود رجال دين مسيحيين في بجاية والقلعة يرجح أنهم على علم باخبار البابا رئيسهم الروحي، نقول اذا كان الأمر كذلك أفلا يحق لنا بعد ذلك أن نعتقد بأن الناصر، وقد شعر بالخطر الذي يتهدد أولئك المسلمين، أراد أن يكسب صداقة البابا جريجوري السابع لكي يهيء لنفسه الفرصة ـ باسم هذه الصداقة ـ ليتوسط لصالحهم لدى هذا البابا.

ثم أنه لماذا لا يتجه تفكيرنا أيضا الى أن الناصر ربما يكون قد علم ـ عن طريق نفس الوسائل التي علم بها بنشاط البابا في اسبانيا وصقلية ـ بالمفاوضات التي جرت بين البابا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع في الفترة الواقعة بين عامي 1073 و1075 م، وتواصلت بصفة خاصة في عام 1075 م بهدف محاولة اصلاح ذات البين بينهما، والتحالف من أجل اعداد حملة صليبية ضد الأتراك السلاجقة ـ وهم مسلمون ـ انتقاما منهم للهزيمة الفادحة التي ألحقوا بها قوات الدولة البيزنطية في موقعة ملاذكرد ـ أو منزكرت Manzikert ـ في 26 أوت عام 1071 م، واجتياحهم للأرض المقدسة[25]، ثم علم بالصراع الذي تفجر بعد ذلك في أواخر عام 1075 م[26]، بين القطبين المسيحيين ـ أي البابا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع ـ وبان الامبراطور قد عزل البابا في 24 يناير عام 1076 م[27]، فأراد ـ أي الناصر ـ أن يعقد صلة صداقة مع البابا في ذلك الوقت تعزيزا لموقفه في النزاع وتشجيعا له على مواصلة تحديه للامبراطور، اعتقادا منه بأن هذا الانشقاق بين زعيمي المسيحية من شأنه أن يعرقل اعداد الحملة الصليبية القادرة على الحاق الهزيمة بالاتراك السلاجقة في الشرق الاسلامي، من ناحية، ويؤثر في الصراع الدائر بين المسلمين والمسيحيين في اسبانيا وصقلية بما لا يكون في صالح الجانب المسيحي، من ناحية أخرى.

وعلى كل حال فهذه كلها فروض واجتهادات في محاولة للوصول الى ما يمكن أن يكون دوافع معقولة لمبادرة الناصر، أما فيما يتعلق باستجابة البابا جريجوري السابع لهذه المبادرة، فهو أمر طبيعي ولا غرابة فيه، لأن البابا كان يهمه ـ ولا شك ـ تعيين

أكبر عدد ممكن من الرؤساء الدينيين المسيحيين في العالم الاسلامي ، وبخاصة اذا كان تعيينهم يتم بطلب من الحكام المسلمين ليضمن تعاونهم معهم.

وإذا كان البابا قد غلّف موافقته بالكثير من عبارات الود والمجاملة التي – كما قال المؤرخ دي ماس لاتري[28] – لم يسبق لبابا آخر أن وجهها لعاهل مسلم، فما ذلك الا انعكاس للفرحة البالغة التي غمرته بسبب المبادرة، ليس فقط لأنها الأولى من نوعها – حيث لم يسبق أن طلب حاكم في المغرب الاسلامي من البابا أن يعين أسقفا على رعاياه المسيحيين – ولكن أيضا لأنها جاءت في وقت شهد انهيارا مريعا في صرح الكنيسة المغربية تمثل في نقصان عدد مقدميها وتدهور أخلاق جمهورها[30] ، كما أنها جاءت بعد ثلاث سنوات فقط من تعرض الأسقف الوحيد الذي كان قد تبقى وقتذاك من هؤلاء المقدمين – وهو أسقف قرطاجة المدعو قرياقص – للمعاملة المهينة التي بلغت حد ضربه بالمقارع والزج به في السجن على يد ابن خراسان أمير تونس، لأنه رفض أن يستجيب لطلبه بتنصيب أسقف على كنيسة تونس، بحجة أن ذلك يتعارض مع قانون الكنيسة الرومانية الذي يشترط ضرورة أن تتم سيامة الأسقف على يد ثلاثة أساقفة وليس بيد أسقف واحد، ولا يوجد في بلاد المغرب، وقتذاك سوى واحد غيره يحمل هذه الرتبة الكنسية[31]. هذا ويمكن أن نضيف الى ذلك أيضا رغبة البابا في تشجيع الناصر على مواصلة سياسة التسامح مع المسيحيين في امارته، والوفاء بوعده باطلاق سراح الأسرى الآخرين الذين قد يجلبون الى هذه الامارة، فضلا عن منع رعاياه من الحاق أي ضرر بالسفن أو السواحل المسيحية.

على أن بعض المؤرخين – ومنهم المؤرخ دي ماس لاتري[32] والمؤرخ بارجيس Bargès[33] يرون بأن البابا جريجوري السابع ربما كان يهدف م وراء ذلك الى الاعداد لتنصير الناصر، أو الى اقرار تعاون ما معه لصالح مسيحيي اسبانيا وصقلية، كما لا يستبعدون أن يكون لتصرفه صلة بتشكيل الحلف الذي هاجم مهدية تميم بن المعز الزيري في عام 1087 م.

وليس من شك في أن هؤلاء المؤرخين ، عندما فكروا في الهدف الديني لدى جريجوزي السابع ، كان يدور في خلدهم فحوى الرسائل البابوية التي عرض فيها من أرسلها من البابوات صراحة على بعض عواهل مراكش من الموحدين – ومنهم

الخليفة أبو محمد عبد الواحد الرشيد[34] (630 – 640 هـ – 1232 – 1242 م) والخليفة أبو الحسن علي السعيد[35] (640 – 646 هـ – 1242 – 1248 م) أن يعتنقوا الديانة المسيحية وربما كانوا على حق فيما اعتقدوا ، ولكن رسالة البابا جريجوري السابع تبدو خالية من أي اشارة تنم عن أي اتجاه لديه الى ذلك (اللهم الا اذا أعطينا كلمة (المستقبلة) في عبارة (أننا نبتغي سلامتك ومجدك في الحياة الحاضرة والمستقبلة)، ومعنى الحياة الأخرى، وليس معنى مستقبل أيام الأمير الحمادي في الحياة الدنيا.

أما فيما يتعلق بالدوافع السياسية التي تكلم عنها دي ماس لاتري، ومن نحا نحوه، فهي – كما هو واضح – غامضة وبعيدة الاحتمال. وتفسير ذلك أن القائلين بها لم يوضحوا ، في الشق الأول منها، شكل التعاون الذي قالوا بأن البابا أراد اقامته مع الناصر لصالح مسيحيي صقلية واسبانيا. ولا يعقل، بطبيعة الحال، أن يكون قد جال بخاطرهم أن السذاجة قد بلغت بالبابا جريجوري السابع الدرجة التي تجعله يفكر في أن يطلب من الناصر بن علناس الحمادي التوسط لدى المسلمين في صقلية فيسلموا ما تبقى من جزيرتهم للمحتل النورماندي من غير مقاومة ، ولدى المسلمين في الاندلس فيستسلموا للقوات المسيحية في بلادهم من غير قتال.

فهل عنوا أن البابا فكر في أن يقدم للناصر المساعدات العسكرية التي تشجعه على مواصلة حربه ضد تميم بن المعز الزيري الى الشرق منه فيعوقه عن أرسال مجاهديه الى صقلية، وعلى شن الحرب على دولة المرابطين الى الغرب منه لتمنعهم من التدخل لصالح المسلمين في اسبانيا؟

اذا كان ذلك ما عنوا فمن الممكن قبوله، ولو بتحفظ شديد، بالنسبة لتميم، ولكنه مرفوض تماما بالنسبة للمرابطين لأن جوازهم الأول الى الاندلس كان بزعامة أميرهم يوسف بن تاشفين (454 – 500 هـ – 1062 – 1106 م) في عام 479 هـ – 1086 م[36] ، أي بعد نحو عشر سنوات من تاريخ رسالة البابا للناصر، ولم يعرف عن المرابطين (وكذا الحماديين والزيريين) أنهم تدخلوا عسكريا لمساعدة مسلمي اسبانيا قبل هذا التاريخ. وكيف يتسنى لهم ذلك وقد كانوا وقتذاك في دور تأسيس دولتهم بالمغرب؟

وبالمثل، فان من المتعذر الموافقة على ما جاء في الشق الثاني من هذه الدوافع القائل باحتمال وجود صلة تربط تصرف البابا بتشكيل الحلف الذي هاجم المهدية ــ عاصمة تميم ــ في عام 480 هـ ــ 1087 م، وذلك بسبب طول المدة الزمنية التي تفصل بين تاريخي الرسالة البابوية للناصر وهذه الحملة، وهي مدة تصل الى نحو الاحدى عشرة سنة، ولان المصادر التاريخية المعاصرة للحملة لا تشير من قريب أو بعيد لأية علاقة للبابا جريجوري السابع بها، وذكرت صراحة بأن البابا الذي دعا لها وأسهم في اعدادها هو فيكتور الثالث (1086 ــ 1087 م[37])، خليفة جريجوري السابع.

وفي الحقيقة فان جريجوري السابع لم يكن وقت تحرير رسالته للناصر الحمادي في يونيه 1076 م في ظروف تسمح له بالعمل الصليبي أيا كان نوعه بسبب انشغاله ــ كما سبق وأشرنا ــ في صراعه المصيري مع الامبراطور الالماني هنري الرابع، ومحاولته تكتيل القوى الايطالية وراءه[38] للانتصار له عسكريا اذا فكر الامبراطور في ارسال حملة عسكرية المانية ــ وهو ما كان يتوقعه البابا ــ للانتقام منه وتنفيذ قرار عزله بالقوة.

وليس أدل على ذلك من أن البابا جريجوري السابع، ما أن تفاقمت الأزمة بينه وبين هنري الرابع في أواخر عام 1075 م، حتى أوقف مساعيه الرامية الى اعداد الحملة الصليبية التي كان قد دعا اليها في عام 1074 م ضد الأتراك السلاجقة لصالح الدولة البيزنطية، والتي كان قد تفاوض بشأنها مع هنري الرابع قبل تردي العلاقة بينهما، وذلك بالرغم من الأهمية الفائقة لهذه الحملة في حال نجاحها، بالنسبة للبابا شخصيا، اذ أنها ترفع من قدره، وتكسب الى صفه أمبراطور بيزنطة ميخائيل السابع دوكاس (1071 ــ 1078 م)، وربما أيضا والد زوجة ابن هذا الامبراطور، روبرت جيسكارد أمير دولة النورمان في جنوب ايطاليا[39]، الذي لم يكن في ذلك الوقت على وفاق مع البابا، وكلها أمور تساعد البابا ولا شك في تحقيق زعمه، بسبب نزاعه الحقيقي مع الامبراطور الالماني هنري الرابع، بالزعامة في أوروبا الكاثوليكية، وبالنسبة للكنيسة لأنها تساعد على تحقيق حلم بابوات روما في اعادة الوحدة بين الكنيستين الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية البيزنطية تحت زعامة البابا، وهو ما عجز عن تحقيقه هؤلاء البابوات منذ أن وقعت القطيعة بين الكنيستين

في عام 1054 م، وآخرهم البابا اسكندر الثاني (1061 ــ 1073 م) السلف المباشر للبابا جرجوري السابع[40]، وهو أيضا ما هدف اليه جريجوري السابع من وراء دعوته للحملة الصليبية[41]، وأفصح عنه صراحة في الرسالة التي زف فيها نبأ الحملة للامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع حين أكد له بأنه سوف يأتي على رأس هذه الحملة. ويعقد مجلسا في القسطنطينية لتسوية المشكلات التي لا تزال قائمة بينهما لتوحيد الكنيستين[42].

وبعد، فإذا كانت الأزمة التي نشبت بين البابا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع قد عطلت مشروع الحملة الصليبية ضد الأتراك السلاجقة بفوائده الجمة التي ذكرناها للبابا والكنيسة التي يرأسها فليس من المقبول منطقيا أن تسمح هذه الأزمة للبابا جريجوري السابع أن يسعى لتنفيذ مشروع صليبي ضد مدينة المهدية لا فائدة حقيقية ترجى من ورائه له ولكنيسته، ولا سيما أن تميم بن المعز صاحب المهدية كان معروفا بتسامحه مع المسيحيين في بلاده[43]، ثم انه كان قد توقف منذ عام 1075 م ــ أي قبل عام من تاريخ كتابة الرسالة البابوية للناصر بن علناس الحمادي ــ عن ارسال نجداته لمساعدة مسلمي صقلية في مقاومة الفتح النورماندي لجزيرتهم[44]، وعقد في نفس العام ــ أي في عام 1075 م ــ معاهدة تحالف وصداقة مع الأمير روجر بن تانكريد الحاكم النورماندي للجزيرة، لكي يتفرغ لحربه مع قيبه الناصر بن علناس، ولاسترجاع ملك أبيه الضائع في امارته من أيدي العرب الهلالية وحلفائهم وبعض المستغلين على المدن[45]، يضاف الى ذلك ان النورمان في صقلية وجنوب ايطاليا ــ وهم الأكثر تضررا من نشاط البحرية الزيرية في عهد تميم ــ كانواوقتذاك على خلاف مع البابا جريجوري السابع الذي لم يتورع في مارس1074م عن اصدار قرار الحرمان ضد زعيمهم في جنوب ايطاليا روبرت جيسكارد[46]، وان أحد أبرز حلفاء البابا في ايطاليا، وهو جيزولف امير سالرنو Gislof of Salerno (1052 ــ 1077 م) كان على علاقات تجارية طيبة مع حكام شمال افريقيا الى درجة أنه كان يهاجم سفن جنوة وبيزة التي تسير بحذاء الساحل الغربي لايطاليا قاصدة شمال افريقيا بقصد التهجم والاعتداء[47].

وهكذا فان من المتعذر التسليم بمجموعة الدوافع السياسية التي قال دي ماس

لاتري، ومن نحا نحوه من المؤرخين ، بأنها كانت وراء روح المودة والتسامح التي أبداها البابا جريجوري السابع في رسالته للناصر بن علناس. وليس من شك في أن اتجاه فكرهم اليها مبعثه الشك في مهمة المبعوثين الذي أوصى بهم البابا أمير بجاية، وذكر له في رسالته بأنهم موفدون من قبل اثنين من أشراف روما المقربين اليه، وهما ألبيريكوس وكينكيوس، لتبليغه شخصيا تقدير هذين الشريفين له على جميل صنيعه مع المسيحيين في امارته، ورغبتهما «في أن يقوما باغتباط بخدمتكم على النحو الذي يرضيك في دوائرنا.» In partibus nostris

ويعلق المؤرخ كريستيان كورتوا على وصول هؤلاء المبعوثين بقوله: «من غير الرغبة في وضع أي شك حول قوة عاطفة البيريكوس وكينكيوس فان من الصعوبة بمكان أن نقبل بأنهما كانا يكنان للناصر من الود الى الدرجة التي جعلتهما لا يستطيعان مقاومة ارسال وفد الى افريقية ليطلعاه على ذلك الود. اني أفضل من ناحيتي أن أرى في هؤلاء الرجال ــ الذين أوصى بهم البابا بهذا القدر من الحماس ــ أعضاء بعثة شبه رسمية هدفها سياسي أكثر منه عاطفي.»

ان كورتوا يرى بأن البابا أرسل هؤلاء المبعوثين في مهمة تخصه هو شخصيا، ولكن «دبلوماسيته» شاءت بأن يرسلهم باسم اثنين من بطانته، وليس باسمه البابوي، فاذا أصابوا نجاحا في أداء مهمتهم أبدلهم بقصّاد بابوين مسؤولين لاتمام الامر، أما اذا فشلوا فلا شيء يكون أسهل عليه عندئذ من التنصل منهم كلية. ويختم كورتوا تعليقه بقوله : «ان جريجوري السابع لا يريد أبدا، تهور أخرق أو باتخاذ تدابير تكشف عن نواياه بوضوح، أن ينفر عاهلا متسامحا مع المسيحيين في افريقية ومع الكنيسة الرومانية»[٥٥]، مثل الناصر بن علناس الحمادي. ولكن ما هو هذا الأمر الجلل الذي يريد البابا ــ كما يقول كورتوا ــ جس نبض الناصر بشأنه متسترا وراء رجلين من بطانته؟ لم يقدم لنا المؤرخ كورتوا الجواب الشافي على هذا السؤال، ولكنه ذكر بأن البابا والناصر كليهما كان لهما عدو مشترك هو عبد الحق بن خراسان حاكم تونس الذي كان البابا يعتبره عدوا لأنه أهان كبير أساقفة قرطاجة المدعو قرياقص في عام 1073 م، ويعتبره الناصر ايضا عدوا له لأنه خرج عن طاعته، وبحسب أقوال كورتوا أيضا فان البابا جريجوري السابع ــ الذي دخل منذ أن عزله الامبراطور الالماني

هنري الرابع في 24 يناير عام 1076 م في مفاوضات مصالحة مع النورمان في صقلية وجنوب ايطاليا للوقوف معه في وجه هذا الامبراطور وأطاعه في ايطاليا ــ رأى ان من مصلحته ان يطول أمد الحرب الدائرة وقتذاك ، أي وقت أن كتب البابا رسالته للناصر في يونيه عام 1076 م، بين الناصر وتميم بن المعز الزيري أمير المهدية. لأن من شأن هذه الحرب ــ التي لا بد وأن يكون البابا قد عرف بها من سرفاندوس ــ أن تضعف من قوة النشاط الزيري ضد الحكم النورماندي في صقلية وجنوب ايطاليا مما يسمح لهؤلاء بتوجيه كل قواهم العسكرية لخدمة المحالفة ضد الامبراطور[٥٥].

على أن هذا المؤرخ كورتوا لم يذكر لنا شيئا عن وسائل البابا لمساعدة الناصر على تأديب أمير تونس ومواصلة حربه ضد حاكم المهدية. ونحن لا نرى بأن من بين هذه الوسائل عرض المساعدات العسكرية، ليس فقط لأن البابا جريجوري السابع لم يكن وقتذاك في ظروف تسمح له بذلك بسبب جفوته مع الامبراطور الالماني هنري الرابع ، كما سبق وذكرنا، ولكن أيضا لأن مفاوضات الصلح بينه وبين النورمان لم تكن وقتذاك قد انتهت الى نجاح حتى يؤدي لهم هذه الخدمة، بل يمكن القول بأنها فشلت استنادا الى أقوال مؤرخ معاصر، هو ايميه راهب دير مونتي كاسينو[٥٥] (Aimé du mont Cassino) ذكر صراحة بأن أمير دولة النورمان في جنوب ايطاليا ، روبرت جيسكارد، وحليفه ريتشارد أمير كابوا Richard de Capoua قاما، في يونيه عام 1076 م، أي في نفس الشهر الذي كتب فيه البابا رسالته للناصر بن علناس، بحصار مدينة سالرنو، وحاكمها جيزولف حليف البابا جريجوري السابع ، ثم هاجما الأملاك البابوية نفسها بعد ذلك بقليل. وعلى كل حال فان مثل ذلك العرض لا يمكن أن يثير مخاوف البابا من أن يؤدي الى غضب الناصر منه، ومن ثم فضّل أن يقدم عن طريق بعثة تتكلم باسم اثنين من حاشيته وفق نظرية كريستيان كورتوا. ان الشيء الوحيد الذي يتوقع البابا أن يرفضه الناصر بغضب بسبب احراجا له، وربما انتكاسا في سياسة الناصر التسامحية ازاء المسيحيين في امارته، هو محاولته تبشيره بالدين المسيحي، وهو أمر نستبعد أن يقدم البابا عليه لأنه يتعارض مع روح التسامح التي كتب بها رسالته للناصر، ولان ليس من المعقول أن يتخذ مثل هذه الخطوة مباشرة بعد أول اتصال به من أمير مغربي مسلم أظهر طواعية من تلقاء نفسه أقصى درجات التسامح مع المسيحيين في بلاده ، مما ينفر منه هذا الأمير، ولا يشجع أي

أمير مسلم آخر على أن يحذو حذوه.

اننا نرجح بأن يكون على رأس المهام السياسية للبعثة الرومانية، اذا كان لها مهام سياسية أصلا، التفاهم مع الناصر بن علناس حول وساطة يقوم بها هذا الأمير الحمادي لدى عبد الحق بن خراسان، حاكم تونس، بشأن اسقفية تونس التي أهين بسببها رئيس أساقفة قرطاجة قرياقص، قبل ثلاث سنوات، أو أن يقوم الناصر بالرغم من اضطراره الى اعلان تأييده لتميم بن المعز تحت ضغط الحصار – ومساعدتهم في الوصول معه الى تسوية للمشكل تقوم على أساس عدم ممانعة البابا في تعيين أسقف على تونس، على أن يكون خاضعا لرئاسة أسقف قرطاجة حسب التقليد القديم.

ويوحي بهذا الاحتمال، الذي نفضله على غيره من الاحتمالات الأخرى، ان البابا جريجوري السابع طلب من رئيس أساقفة قرطاجة، المدعو قرياقص، في رسالة بعث بها اليه صحبة سرفاندوس عند عودته الى بلاده من روما، بأن يختار – بالتعاون مع سرفاندوس – قسا يقوم البابا في روما بسيامته اسقفا ثالثا معهما في المغرب(٤١)، مما يبعث فينا الاعتقاد بأن البابا أراد أن يحقق رغبة ابن خراسان ولكن وفق قانون الكنيسة الرومانية، وفضّل بأن يتوجه وفد روماني الى افريقية لانهاء الأمر مع حاكم تونس، بمساعدة الناصر، على أن يتكلم الوفد لا باسم البابا، ولكن باسم اثنين من حاشيته كوسيطين، اظهارا لعدم رضائه من اهانة رئيس أساقفة قرطاجة على يد ابن خراسان. ثم أن هناك احتمالا آخر يمكن اضافته هو نية البابا جريجوري السابع في أن تقيم البعثة المذكورة أيضا. بجس نبض الناصر في امكانية أن يقوم البابا بدور الوساطة في الصلح بينه وبين تميم – وهو أمر في استطاعة البابا القيام به عن طريق قصّاده أو أساقفته في افريقية أو حتى عن طريقة أعضاء البعثة أنفسهم – فيهيء البابا لنفسه بذلك ودا أو نفوذا أدبيا لدى الأميرين المتسامحين يستغله لصالح المسيحيين في جزيرة صقلية متى آن الأوان وتم الصلح مع النورمان من جهة، ولصالح تعزيز مركز الكنيسة الافريقية بما في ذلك محاولة اعادة الأسقفية في المهدية الى سابق عهدها من جهة أخرى.

اننا نعرف من فحوى رسالتين بعث بهما البابا ليون التاسع Léon IX (1049

– 1054 م) في ديسمبر عام 1053 م – 445 هـ)، احداهما الى أسقف يدعى توما Thomas يعتقد بأنه أسقف قرطاجة، والثانية الى أسقفين آخرين في افريقية يسمى أحدهما بطرس والآخر حنا(٤٢)، بأن هؤلاء الأساقفة الثلاثة قدموا شكوى للبابا ضد تصرفات أسقف المهدية – التي تسميها الرسالتان جوّمي Jummi نسبة الى الاسم القديم للمدينة وهو جمّة(٤٣) – متهمين اياه بأنه ادعى لنفسه حق التقدم الأعلى على جميع الأساقفة في تلك البلاد وعددهم خمسة. وقد ندّد البابا بادعاءات أسقف المهدية مؤكدا على ضرورة التمسك بالتقليد الكنسي الذي يعطي الرئاسة العليا على أساقفة افريقية لأسقف قرطاجة بالرغم من هجرة الجانب الأكبر من أهل مدينته عنها وتحولها الى خرائب، وعلى أن حق التقدم على الأساقفة في كل دائرة كنسية على حدة تحدده أقدمية التعيين بين الأساقفة في الدائرة وليس أهمية أو نفوذ المدينة مقرا لأسقفية. (Non secundum poterntiam alicujus civitatissed secundum tempus suae ordinationis.)

ولا يجوز لأي مقدم على دائرة كنسية أن يتصرف فيما يتعلق بعقد المجامع الكنسية المحلية أو اجراء مراسم تعيين أساقفة جدد في دائرته من غير الحصول على موافقة أسقف قرطاجة.

ويمكن القول، على ضوء هذا الرد البابوي، بأن ادعاءات أسقف المهدية – الذي لا تشير الرسالتان البابويتان المذكورتان الى اسمه – مرجعها أن رأى بأن مدينته وصلت وقتذاك الى مركز الصدارة بين مدن الدولة الزيرية في المغرب الأدنى نتيجة ما حل بهذه الدولة، منذ عام 443 هـ – 1051 م، من خراب على يد العرب الهلالية وغيرهم من طوائف العرب الأخرى الذين رمى بهم الفاطميون في مصر، زمن خليفتهم المستنصر بالله، بلاد المغرب تأديبا لها على خروجها عن الطاعة على يد المعز بن باديس الزيري، وبلوغ هؤلاء العرب أبواب مدينة القيروان نفسها وضاحيتها المنصورية (صبرة) مقر حكومة المعز بن باديس، بحيث أصبحتا قاب قوسين أو أدنى من السقوط في أيديهم، في الوقت الذي سيطر على المدن الزيرية الرئيسية الأخرى متغلبون من أهلها أو من العرب الوافدين، ولم ينج من ذلك سوى مدينة المهدية التي نعمت، تحت ادارة ولي العهد تميم بن المعز المعين عليها في عام 445 هـ 1053 م،

بالأمان خلف أسوارها القوية[٥٤]. واستقبلت لهذا السبب، في أغلب الظن، أفواجا من الفارين من المناطق الأخرى التي اجتاحها العرب الهلالية[٥٥]، وفيهم، ولا شك، مسيحيون انضموا الى الطائفة المسيحية المقيمة بالمدينة. فتضخم عددها بما يكفي لتشجيع أسقفها على اتخاذ خطوته.

ونحن لا نملك ما يشير الى موقف أسقف المهدية من الحكم الذي أصدره البابا ليون التاسع في غير صالحه، ولكن نرجح بأنه تمرد عليه، لأنه كان يعرف ـ ولا شك ـ منذ البداية، بحكم منصبه الديني، اتجاهات هذا البابا الاصلاحية ومواقفه العدائية من عدم الانضباط بين رجال الدين وعدم التقيد بالقرارات البابوية السابقة، ولا يتوقع منه أن يقره على ادعاءاته الخارجة على تلك القرارات[٥٦] وأيا كان الأمر فان الرسالة التي كتبها البابا جريجوري السابع لأسقف قرطاجة، قرياقص، في يونيه عام 1076 م، وأرسلها اليه صحبة سرفاندوس أسقف بجاية، تبين بوضوح لا لبس فيه بأن بلاد المغرب، لم يكن بها وقتذاك سوى هذين الأسقفين، أي أسقف قرطاجة قرياقص وأسقف بجاية المعين حديثا في روما سرفاندورس، مما يدل على أن مدينة المهدية أصبحت في ذلك التاريخ ـ أي في يونيه 1076 م ـ خالية من وجود أسقفية معترف بها من قبل البابوية[٥٧]، وذلك بالرغم من عدم انقراض طائفتها المسيحية، التي شهد المؤرخون، وعلى وجه الخصوص ابن الأثير[٥٨] وابن خلدون[٥٩]، بوجودها في عام 543 هـ ـ 1148 م عند استيلاء نورمان صقلية على مدينة المهدية، والتي لا بد وأن كان عدد أفرادها وقتذاك كبيرا حتى أن المحتلين النورمان عينوا لها أسقفا يحمل لقب أسقف افريقية[٦٠]. (Episcopus Africanus)

وربما كان أسقف عام 1053 م لا يزال في عام 1076 م حيا وانما متمردا وخارجا عن طاعة البابوية، ومن ثم لم يعترف البابا جريجوري السابع في رسالته بوجوده[٦١]. أما اذا كان قد توفي خلال فترة الثلاثة والعشرين عاما التي تفصل بين وقت قيامه بحركته ووقت ان كتب جريجوري السابع رسالته، وظل منصبه شاغرا لم يشغله أحد بعده، فان من الممكن القول باحتمال أن تكون بلاد المغرب وقت وفاته خالية من وجود الاساقفة الثلاثة اللازمين شرعا لتعيين من يخلفه في المنصب.

ولكن هناك احتمال آخر يجب أن يؤخذ في الاعتبار وهو أن يكون تميم بن

المعز بن باديس قد فضل ان يدير الشؤون الدينية للطائفة المسيحية في عاصمته المهدية رجل دين صغير لا يخضع للبابوية التي كان ولا شك يعتبرها ـ بقطع النظر عما عرف عنه من تسامح ـ عدوة له وللمسلمين منذ أن عقدت في عام 1059 م ـ في عهد البابا نقولا الثاني (1059 ـ 1061 م) اتفاقية مع الزعيم النورماندي روبرت جيسكارد نصت على منحه، فضلا عن اقليمي ابوليا وقلورية بجنوب ايطاليا، جزيرة صقلية اذا استولى عليها من المسلمين[٦٢]، وهو ما تم بالفعل على يد أخيه روجر بعد معارك طويلة، ضد المسلمين المقيمين بالجزيرة والذين كان يرسلهم لنجدتها تميم نفسه، بدأت عام 1062 ـ وهو العام الذي تولى فيه تميم الحكم خلفا لوالده المعز بن باديس ـ وانتهت في عام 1091 م[٦٣].

اننا نقول بأن في جميع هذه الأحوال يتحتم على البابا جريجوري السابع أن يتخذ المبادرة لاعادة المياه الى مجاريها بين البابوية وعاهل الدولة الزيرية اذا أراد الحصول على موافقته على تعيين أسقف تابع لكنيسة روما في المهدية، فاذا اذا كان قد انتهز فرصة طلب الناصر بن علناس منه تعيين سرفاندوس أسقفا على بجاية عاصمة الحماديين، ففكر أيضا في كل من تونس عاصمة الخراسانيين والمهدية عاصمة الزيريين، ومن ثم أرسل مع رده على الناصر بعثة تحاول، كما سبق وذكرنا، تسوية الأمر مع حاكم تونس بمساعدة الناصر، وتعرض، في نفس الوقت على الناصر، باسم الشريفين البيريكوس وكنكيوس، أن يتوسط البابا في الصلح بينه وبين تميم، وهو كان يرغب فيه بالفعل كلا العاهلين المغربيين وسبق لهما أن سعيا اليه من قبل وبمبادرة من الناصر[٦٤]، ان البابا حين يكتب في رسالته للناصر بأن الشريفين المذكورين اذ يرغبان «في أن يقوما باغتباط بخدمتك في دوائرنا»، بما يروق لك، يرسلان اليك رجالا من لدنهما، سوف تعرف على طريقهم كم هما... يريدان ويستطيعان، أن يقوما بخدمتك بشرور.» انما يهدف الى تشجيعه على الموافقة على ما يعرض عليه هؤلاء المبعوثين، فاذا كللت مساعي البابا بعد ذلك بالنجاح يكون من ناحية قد أدى للناصر الخدمة التي تكلم عنها في رسالته ولا تسمح له ظروفه الصعبة في ايطاليا بتقديم غيرها، ومن ناحية أخرى قد حسّن علاقاته مع تميم بما يخدم احياء الأسقفية الرومانية في المهدية، ووقف حركة المقاومة الاسلامية الزيرية للمد التوسعي المسيحي النورماندي في صقلية.

وعلى كل حال، فنحن لا نملك أية وثيقة تخبرنا بما تم بعد كتابة هذه الرسالة. حقيقة نعرف بأنه تم في العام التالي لتاريخ الرسالة ـ أي في عام 1077 م ـ 470 هـ ـ عقد الصلح بين الناصر وتميم [٥٥] وبأن «كاتدرائية» بالرمو تضم رفات رجل دين اسمه كوزماس، توفي عام 1109 م (503 هـ) ـ أي قبل نحو أربعين سنة من سقوط مدينة المهدية تحت الاحتلال النورماندي الذي تم في عام 543 هـ ـ 1148 م ـ ومع ذلك كان يحمل نفس اللقب الذي حمله أساقفة المدينة في ظل هذا الاحتلال وهو لقب أسقف افريقية [٥٥]. ولكن هل يمكن القول بأن لذلك أية صلة برسالة جريجوري السابع للناصر، وبالبعثة التي تكلمت عنها هذه الرسالة؟ ومن يدري في ظل غياب الوثائق؟ اننا لا نعرف حتى ما اذا كانت الرسالة قد وصلت بالفعل الى الناصر في بجاية صحبة البعثة المذكورة أم انها لم ترسل أصلا.

سامي سلطان سعد

Grégorie VII annonce à Anzir ou En-Nacer , prince hammadite, roi de la Mauritanie sitifienne, que sur sa demande il a consacré évêque le prêtre Servand; il le remercie de ses bonnes dispositions à l'égard des Chrétiens de ses Etats, et lui fait savoir que deux nobles Romains, Albérie et Cencius, heureux de ce qu'ils ont appris de sa bienveillance, lui envoient des messagers pour l'assurer de leur désir de lui être en tout agréables.-

Lable, *Concil.*, t. X, col. 146; Epist., lib. III, ep. 21; Migne, *Patrol. lat.*, t. CXLVIII, p. 450.

Gregorius, episcopus, servus servorum Dei, Anzir, regi Mauritanie Sitiphensis provinciae(1), in Africa, salutem et apostolicam benedictionem.

Nobilitas tua hoc in anno litteras suas nobis misit quatenus Servandum presbyterum episcopum secunddum Christianam constitutionem ordinaremus; quod quia petitio tua justa et optima videbatur, facere studuimus; missis etiam ad nos muneribus, Christianos qui apud vos captivi tenebantur, reverentia beati Petri principis apostolirum et amore nostro, dimisisti, alios quoque captivos te dimissurum promisisti. Hanc denique bonitatem, creator omnium Deus, sine quo nibil boni facere, imo nec cogitare possumus, cordi tuo inspiravit ipse qui illuminat omnem hominem venientem in hunc mundum, in hac intentione mentem tuam illuminavit. Nam omnipotens Deus, qui omnes homines vult salvos facere et neminem perire, nihil est quod in nobis magis approbet, quam ut homo post dilectionem suam hominem diligat, et quod sibi non vult fieri alü non faciat. Hanc itaque caritatem nos et vos specialibus nobis quam ceteris gentibus debemus, qui unum Deum, licet diverso modo, credimus et confitemur, qui eum creatorem saeculorum et gubernatorem hujus mundi quotidie laudamus et veneramur. Nam sicut apostolus dicit: «Ipse est pax nostra qui fecit utraque unum. ü Sed hanc tibi gratiam a Deo concessam plures nobilium Romanorum per nos cognoscentes, bonitatem et virtutes tuas omnino admirantur et praedicant. Inter quois duo familiares nostri Albericus et Cincius, et ab ipsa pene adolescentia in Romano palatio nobiscum enutriti, multum desiderantes in amicitiam et amorem tuum devenire, et de his quae

(1) Bougie, fondée par En-Nacer en 1067, devint, en 1090, à la place d'El-Kala, la nouvelle capitale des princes hammadites, dont l'héritier abdiqua l'an 1153 en faveur des Almohades. La dénomination du roi de la *Mauritanie sitifienne* que le saint-siège donnait à Anzir n'avait pas de rapport géographique rigoureux avec l'ancienne division de l'Afrique romaine, puisque Bone et Constantine, villes de Numidie, faisaient partie du royaunme des Hammadites (Ibn-Khaldoun, *His. des Berbères*, trad. de M. de Slane, t. II, p. 52.).

in partibus nostris placuerit tibi libenter servise, mittunt ad te homines suois, ut per eos intelligas quantum te prudentem et nobilem habeant, et quantum tibi libenter servire velint et valeant . Quos magnificentiae tuae commendantes, rogamus ut eam caritatem, quam tibi tuisque omnibus semper impendere desideramus, eis pro amore nostro et recompensatione fidelitatis predictorum virorum impendere studeas. Seit enim Deus quia pure ad honorêm Dei te diligimus et salutem et honorem tuum in praesenti et in futura vita desideramus. Atque ut ipose Deus in sinum beatitudinis sanctissimi patriarcha Abrahae post longa hujus vitae te perducat corde et ore rogamus.

حواشي البحث :

(1) أقدم رسالة ثالية لها بعث بها البابا أنوسنت الثالث للعاهل الموحدي ابي يوسف يعقوب المنصور في 8 مارس عام 1198 م. انظر النص اللاتيني في :

De mas Larrie, Traités II (Documents), pp. 8-9.

(2) انظر النص اللاتيني للرسالة في :

Migne: Patrologia latina, t. CXLVIII, p. 450; De ma latrie: traités II, pp. 7-8; Caspar: Das register gregors VII, dans Monumente Jermaniae historica, Epistulae seleetae t. III, Fesc, 1920, pp. 287--288.

De mas latrie: Traités I (introduction), pp. 22-23, Mesnage: Le christianisme en Afrique, Déclin et Extinction, pp. 209-210 (1915), Bargès: aperçu de l'eglise episcopale de Tlemcen, pp. 18-20 (1848); Golvin: le Maghreb central à l'époque des Zirides, pp. 152--155.

أما أدق ترجمة حسب ما اتضح لنا بعد الاطلاع على النص اللاتيني فقد قام بها :

Christian Courtois: Grégoire VII et l'Afrique du Nord, ap., Revue Historique t. CXCV, (1945), Revue Historique TCXCV, 1945 pp. 99--101.

وفيا يتعلق بالترجمات الى العربية نجد أنها اعتمدت أساسا على الترجمة الفرنسية الغير دقيقة ، للبارون دي ماس لاتري سواء مباشرة مثل الاستاذ اسماعيل العربي (دولة بني حماد ص 179 ـ 180)، أو عن طريق مترجم فرنسي آخر عنه كما فعل د. رشيد بوروبية الذي ترجم عن :

Idris (H.R.): La berbèrie orientale sous les Zirides Xe-XIIe s., t. II, pp. 591-593.

(3) يقصد بولس الرسول الذي يعود اليه الفضل في ادخال المسيحية في العالم الافريقي، وله عدة رسائل موجهة الى كنائس تلك البلاد، وهي تشكل جانبا هاما من كتاب العهد الجديد الذي اشتهر باسم الأنجيل.

(4) انظر : De mas Latrie: Traités I, p. 23.

(5) انظر : C. Courtois: op. cit.; p. 104.

(6) ارجع الى رأي هذا المؤرخ في : Ibid, p. 210.

(7) ارجع الى :

Brunschvig: La berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVe s., TI, 1940, p. 450.

(8) ارجع الى النص اللاتيني للرسالة في :

De mas latrie: Traités II, doc. pp. 5-6 isis fraternitatis tuae litteris, fraternam de molestüs que a paganus et a pseudo-filüs écclesiae tuae tibi inferuntur...

وترجمتها : عرفت من رسائلك، أخي المبجل، المضايقات التي لحقت بك من جانب الوثنيين (يقصد المسلمين ومن أبناء الكنيسة الضالين (يقصد بعض أفراد من مسيحي تونس اشتكوا أسقف قرطاجة لحاكم تونس).

(10) in medio nationis pravae et perversae

(11) ارجع الى رسالة البابا أنوسنت الثالث لعاهل الموحدين أبي يوسف يعقوب المنصور بتاريخ 8 مارس عام 1198 في (De mas latrie, Traités II, pp. 8-9) ورسالة البابا جريجوري التاسع للعاهل الموحدي عبد الواحد الرشيد بتاريخ 27 ماي 1233 في: ibid وخاصة رسالة البابا أنوسنت الرابع الى عاهل الموحدين أبي الحسن السعيد بتاريخ 31 أكتوبر 1246 في(ibid, p. 14)وارجع أيضا الى رسالة باللغة العربية أرسلها الخليفة الموحدي أبو حفص عمر المرتضى بن السعيد الى البابا أنوسنت الرابع بتاريخ 18 ربيع الأول عام 648 هـ ـ 10 جوان 1250 م. لأن فيها تتضح محاولات البابا لتنصير خليفة الموحدين. وقد نشر الرسالة مع التعليق المناسب المؤرخان يوجين تيسيران Eugène Tisserant وغاستون فييت Gaston Wiet Hesperis, t. VI, An. 1926, pp. 27-13

(12) انظر : De mas latrie, traités I (Introduction), p. 23

(13) نشر كتابه لأول مرة في عام 1866 م.

(14) Courtois, op. cit., pp. 210-211.

(15) ابن خلدون (عبد الرحمن)، العبر، مجلد 6 ص 335.

(16) ارجع الى النص اللاتيني للرسالة في : De mas Latrie, traités II, (Doc.) p. 6
وانظر الترجمة الفرنسية في : Courtois, op. cit., p. 21).

(17) لم يأت في رسالة جريجوري السابع للناصر بن علناس ما يشير الى مركز أسقفية سرفاندوس. ولكن يتضح من رسالة أخرى كتبها البابا في نفس الوقت (يونيه 1076 م) بأن هذا المركز هو بجاية، والرسالة موجهة الى الطائفة المسيحية وقساوستها في بجاية، وفيها أخبرهم البابا بأنه عين عليهم سرفاندوس اسقفا، وحثهم على طاعة هذا الاسقف الجديد الذي اختاروه هم بأنفسهم لهذا المنصب ، وعلى التحلي بالأخلاق القويمة في حياتهم.
وقد جاءت مقدمة الرسالة في نصها الأصلي كما نشره كاسبار (نفس المصدر، ص 286)، على النحو التالي،

Gregorius, Episcopus, Servus Servorum dei, clero et populo Buzene, (id est jppona) en mauritania sitifense, id est in africa, constitutis, salutem et apostolicam beneddictionem.

وترجمتها: من جريجوري، الأسقف وخادم خدام الله الى اكليروس وشعب بجاية (التي هي هبونة) في موريطانيا السطيفية، التي توجد في افريقية، سلام وبركة رسولية. على أن النص الذي نشره ماس لاتري (Traités II, p. 7 جاء خلوا من كلمة Buzae مع اقرار كلمة هبونة على النحو التالي :

Gregorius... clero et populo hipponensi, en mauritania sitifensi... etc.

وقد نحا نحوه مؤرخون آخرون منهم ديلارك (p. Delarc: saint grégoire VII et la réforme de l'eglise au XI S., t. III, p. 400 N. 2).

ويقول كورتوا، اعتمادا على كاسبار بان الدراسات التي قام بها بايتز العالم في دراسة النصوص القديمة، بأن العبارة التي جاءت بعد كلمة بجاية ـ وهي عبارة «التي هي هبونة» كتبت بيد أخرى غير اليد التي كتبت بقية الرسالة ولكن في عصرها. واذ لاحظ بأنه جرت في نفس الفترة حركة تنقلات بين مراكز الاسقفيات في شمال ايطاليا، استنتج بأن العبارة المذكورة أضيفت كدلالة على انتقال كرسي الاسقفية القديم من بونة الى بجاية العاصمة، وخاصة أن بجاية هي التي تقع في الاقليم الذي كان يعرف قديما باسم موريطانيا السطيفية، وليست بونه أو هبونه التي تقع في نوميديا. ويعتقد كورتوا بأن ماس لاتري نقل

عن نسخة غير دقيقة للرسالة. ارجع الى التحليل القيم الذي قام بن كورتوا لهذه المسألة (210 ـ 207 .

ومن المعروف بأن كورتوا نشر بحثه في عام 1945 . وقد أخذ المؤرخون الذين تعرضوا للموضوع بعده بنتيجة هذا البحث من أن المقصود بجاية وليس بونه. ومن هؤلاء المؤرخين نذكر غولفان (152 وهادي روجر ادريس . (op. cit., p. 719).

(18) يتضح من الرسالة التي بعث بها البابا جريجوري السابع الى قرياقص، رئيس أساقفة قرطاجة، في يونيه 1076 م (De mas Latrie: traités II, p. 6) بأنه لم يوجد في بلاد المغرب وقت أن اتخذ الناصر مبادرته سوى قرياقص هذا، بمعنى أن المهدية كانت خالية من أسقفية تابعة لروما، فلربما اراد الناصر أن يجعل من عاصمته بجاية منافسة لها أو متميزة عنها في هذا الشأن.

(19) في عام 1073 م طلب حاكم تونس استجابة لرغبة الطائفة المسيحية في المدينة، من رئيس أساقفة قرطاجة أن يعين لهذه الطائفة أسقفا خاصا، فلما رفض بحاجة عدم توفر الاساقفة الثلاثة اللازمين شرعا للقيام بهذه المهمة الق به في السجن وضربه بالمقارع. وقد أرسل البابا جريجوري السابع خطابين بتاريخ 16 سبتمبر 1073 م أحدهما الى مسيحي قرطاجة يلومهم فيه لأن بعضهم كان سببا في الحادث، والثاني لرئيس الأسقفة، واسمه قرياقص يواسيه ويشجعه بسبب ما حدث له ـ ارجع الى نص الرسالتين في :
Migne: patrol. Latin., t. CXLVIII, pp. 305-307; De mas Latrie: traités II (doc.,), pp. 5-6.

(20) انظر حسين مؤنس، السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين، في المجلة التاريخية المصرية، عدد مايو 1950، ص 48، حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 252.
وارجع أيضا الى : Pidal (Ramon menedez): The cid and hispain, pp. 137-139.

(21) حسن أحمد محمود، المرجع السابق ص 253.، وارجع ايضا الى :
Lemann (A.): L'origine de l'idée de la croisade, dans Hespéris 1937, p. 139.

(22) انظر : Geoffrey Barraclough: A La papauté au moyen-agé, p. 83.
وارجع أيضا الى الترجمة الانجليزية لرسالة الامبراطور هنري الرابع الى البابا جريجوري السابع المتضمنة قرار عزله، وذلك في :
O. J. Thatcher et E. H. Meneal, (ed.): A source book for mediaeval history, New York 1905, p. 151.

(23) انظر : Courtois: op. cit. pp. 222-225.

(24) ابن أبي دينار القيرواني (ط. 2 تونس 1387 هـ) ص 86. وهناك العديد من المصادر والمراجع المتعلقة بالفتح النورماندي لجزيرة صقلية، نحيلك للتعرف عليها الى :

F. Chalandon: Hist. de la domination Normande en Italie et en Sicile, t. I, Amari (M.,): Storia dei musulmani de Sicilia, vol. 3, Idris (H.R.): op cit., pp. 288-289, Curtis (F.): Roger of Sicily, pp. 60-66, Ge

وكمصادر نرشح :

Geoffroi malaterra: De rebus Gestis rogerii calabriae et Siciliae comitis, dans muratori: rerum Italicarum scriptores, t. V; Aimé du mont Cassin: Histoire de li normant (ed. champollion-figeac) 1835.

هذا فضلا عن مجموعة المستخرجات من المصادر العربية التي جمعها ميخائيل اماري ونشرها في كتاب خاص أعطى له عنوان المكتبة العربية الصقلية.

(25) عن هذه المفاوضات وهدفها أنظر : Geoffrey Barraclough: op cit., pp. 80-81

وعن معركة ماتزيكرت 463 هـ ـ 1071 م يكفي أن نحيلك الى: ابن الأثير، الكامل، ج 10 ص 44. أنظر أيضا:

Michael psellus: The chronographia (trans. by E.R.A. Sewter), London 1953, pp. 86-88.

علما بأن مؤلف هذا الكتاب (بسيلوس) كان بمثابة الوزير الأول للامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع دوكاس الذي تولى عام 1071 م خلفا للامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس أسير الاتراك في ملاذكرد. أنظر : Auguste Bailly: Byzance, p. 268.

(26) انظر : Geoffrey Barraclough: op cit., p. 83.

واقرأ الترجمة الانكليزية لنص الرسالة شديدة اللهجة التي أرسلها البابا للامبراطور في ديسمبر عام 1075 م وذلك في : Thatcher et me neal: op cit., p. 146.

(27) انظر الترجمة الانكليزية للرسالة التي بعث بها الامبراطور للبابا يعلمه فيها بقرار فصله في :

Thatcher et me neal: op cit, p. 151.

(28) انظر : De mas Latrie, traités I p. 22.

(29) انظر الرسالة التي كتبها البابا في يونيه 1076 م لرئيس أساقفة قرطاجة، قرياقص De mas latrie trait II. p. 6. وفيها يقول «وصل الى مسامعنا بأن افريقية، التي يقال بأنها واحدة من أجزاء العالم، والتي كان بها قديما ـ منذ أن ازدهرت المسيحية فيها ـ عدد كبير من الأساقفة لادارتها، أصبحت اليوم مصابة لدرجة أنها لم تعد تملك الأساقفة الثلاثة اللازمين لسيامة أسقف». ولاحظ بأن هذه الرسالة كتبت بعد سيامة سرفاندوس أسقفا لبجاية، بمعنى أن قبل تعيينه لم يكن في افريقية سوى أسقف واحد هو قرياقص.

(30) اقرأ نص الرسالة التي كتبها البابا جريجوري السابع في 16 سبتمبر عام 1073 م لاكليروس وشعب قرطاجة (يقصد الطائفة المسيحية بالمدينة)، والرسالة التي أرسلها هذا البابا في نفس اليوم لقرياقص، وذلك في : De mas latrie: traités II, pp. 5-6.

(31) ارجع الى نص الرسالتين المشار اليها في الحاشية السابقة.

(23) انظر: De mas latrie: op cit., p. 23.

(33) انظر : Bargès: Aperçu de l'église d'Afrique, pp. 22-23.

(34) ارجع الى نص الرسالة في : De mas latrie: traités II, p. 10.

(35) ارجع الى نص رسالة البابا في : Ibid: pp. 14-15.

(36) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس ص 105، ابن الخطيب، الحلل الموشية ص 22. المراكشي، المعجب ص 190ـ191.

(37) ارجع الى:

Pierr Diacre: chron. carin, dans P.L., t. CLXXIII, col, 808, apud. Courtois: op cit., p. 224; Malaterra IV, 3 dans muratori: R.I.S., t. VI, pp. 86-87; Annales pisani, ap. Muratori, pp. 6-7

وهناك الكثير من المصادر العربية التي أشارت الى الحملة النورماندية الأولى على المهدية عام 480 هـ ـ 1087 .

وكأمثلة ارجع الى: ابن خلدون، العبر، مجلد 6 ص 160، الأندلسي، الحلل السندسية 241، ابن عذارى، البيان المغرب ج 1 ص 301، التيجاني، الرحلة ص 331ـ332. ومن المفيد قراءة ما جاء بهذا الخصوص في:

De mas latrie: traités I, pp. 29-54; Lewis (A.): Naval Power and trade in the mideterranean, A II, 500-1100 (princeton University Press 1951), pp. 232-233.

(38) ولهذا دخل مثلا في مفاوضات للصلح مع نورمان جنوب ايطاليا وصقلية، انظر:

Courtois, op cit, pp. 222-225

وقد استطاع البابا كسب المدن الكبرى في شمال ايطاليا وامارة تسكانيا ـ انظر:

Grant (A.H.): A history of Europe, part. II, (The Middle Ages), p. 266.

(39) في عام 1073 م تزوج قسطنطين ابن الامبراطور ميخائيل السابع من هيلانة ابنة جيسكارد برعاية البابا جريجوري السابع ـ انظر :

Anna commena: The Alexiad (trans by E.A.S. Dawes) London 1967, pp. 30-31; Auguste bailly: Byzance, p. 268.

(40) انظر : Runciman (S.): The Eastern Schism, pp. 57-58

(41) انظر الترجمة الانكليزية لنص دعوة جريجوري السابع للحرب الصليبية ضد الاتراك السلاجقة عام 1074 م، في (Thatcher et me neal: op cit, p. 512) . ومما يجدر ذكره بأن الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع علم في عام 1073 م بأن الأمير النورماندي جيسكارد يعد العدة لمهاجمة بيزنطة فكتب للبابا جريجوري السابع يطلب منه التدخل ، ويلمح له في الوقت نفسه بامكانية عودة الوحدة بين الكنيستين، فكان ذلك دافعا للبابا للسعي لدى جيسكارد حتى أقنعه بالتخلي عن أطماعه في بيزنطة ولاعلان الحرب الصليبية ضد الاتراك الذين يهددون من ناحيتهم الأراضي البيزنطية ـ انظر : Runciman: op cit, p. 59.

(42) انظر : Cambridge medieval history, vol. Iv, p. 464.

(43) يكفي ذكر شاهدين على هذا التسامح، أولها أنه أوكل الادارة المالية لمسيحي مهاجر من المشرق واسمه جورجي (جرجس) بن ميخائيل الانطاكي (انظر رحلة التيجاني ص 333). وانظر أيضا ابن عذارى البيان ج 1 ص 313، وكذلك : Idris: La Berbèrie orientale, t. I, p. 764.

وثانيها تلك الأبيات الشعرية التي تغزل بها في احدى وصيفاته واوردها عماد الدين الاصفهاني في جريدته، ومنها :

أليس الله يعلم أن قلبي ... يحبك أيها الوجه المليح
وأهوى لفظك العذب المفدا ... اذا درس الذي قال المسيح
أظاهر غيركم بالود عمدا ... وودكم هو الود الصحيح
وفيكم أشتهي عيد النصارى ... وأصواتا لها لحن فصيح

أنظر في ذلك :

H.H. Abdul-Wahab, dans Revue Tunisienne, No. 120 Janvier 1917, p. 312; H. R. Idris: Fètes Chriennes célébrées en Ifriqiya à l'èpoque Ziride, ap R. Africaine, No. 440-441 (1954), pp. 273-274.

(44) آخر حملة عسكرية أرسلها تميم هاجمت ما زاره في عام 1075 م. وعندما ظهر اسطوله بعد ذلك في عام 1078 م أو في عام 1079 م أمام طاورمينه عرّف قائده النورمان بأن ليس له نوايا عدوانية ـ أنظر :

M. Amari: Storia dei musulmani di Sicilia (2e éd.), t. III, pp. 153-160; Courtois, op cit., p. 221,

وقد اعتمد المؤرخان في ذلك على عدة مصادر أهمها :

Malaterra III, 17; La chronique de Robert Victor (éd. Champollion - Figeac), t. I, p. 298.

(45) انظر A. Lewis, op cit., p. 235.

(46) انظر Courtois: op cit., p. 222; Anna Comnena: The Alexiad, pp. 33-34

(47) انظر:

W. Heyd: Histoire du commerce de Levant au Moyen-Age, Leipzig 1923, vol. I, pp. 98, 124.

(48) انظر : Courtois: op cit., pp. 105-106.

(49) انظر : Ibid, pp. pp. 219-222.

(50) انظر : Aimé du mont cassin: op cit., VIII, 13.

علما بأن كريستيان كورتوا يؤكد في (op cit., p. 223 No. 3) بأنه يقبل التاريخ الذي حدده ايمة لحصار سالرنو. أنظر Chalandon: op cit., pp. 244-245.

(51) ارجع الى نص الرسالة في :

Migne: Patrol. Lat., t. CXLVIII, p. 449; De mas Latrie: Traités II (doc.), p. 6. De Mas Latrie, traités, p. 6.

(52) ارجع الى نص الرسالتين في: De Mas Latrie, traités, II, pp. 1-5.

(53) عن هذا الاسم ارجع الى ابن عذارى، البيان ج 1 ص 169، رحلة التيجاني ص 376ـ377، ابن حماد الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، تحقيق تشيده، سليماني في أطروحة لم تطبع) ص 159.

(54) ابن عذارى، البيان ج 1 ص 278ـ280، 288ـ294، ابن خلدون ، العبر، مجلد 4 ص 131ـ132، رحلة التيجاني ص 328ـ329.

(55) يذكر ابن خلدون ، العبر مجلد 4 ص 132، بأن المعز بن باديس أمر أهل القيروان عندما ضيق عليها العرب الخناق بالانتقال الى المهدية للتحصين بها، وولى عليها ابنه تميا سنة خمس وأربعين (445 هـ ـ 1053 م) ، ثم انتقل اليها سنة تسع وأربعين.

(56) عن سياسة ليون التاسع الاصلاحية ارجع الى :

G. Barraclough: La papauté au Moyen-Age, pp. 74-75.

(57) ارجع الى حاشية رقم 29.

(58) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 9 ص 18.

(59) ابن خلدون ، العبر مجلد 5 ص 434. أنظر أيضا ص 437 حاشية 2 حيث أورد ما ذكره ابن الأثير في هذا الشأن.

(60) انظر : Courtois: op cit., p. 109 No. 3.

(61) تأزمت العلاقات بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية منذ ربيع عام 1053 م، وانتهى بهما الأمر الى

القطيعة في عام 1054 م ـ عن ذلك أنظر :

M. Gugie: Le schisme Byzantin, pp. 189-215; S. Runciman: The Eastern Schisme, pp. 39-49; L. Bréhiers: Le schisme au XIe S., pp. 91-125, 241.

وفي يناير 1954 وجه البابا ليون التاسع اللوم الى بطريك القسطنطينية كيرولاريوس Cerularius لأنه حاول أن يكسب الى صفه بطريك انطاكية، وعن طريقه بطريك الاسكندرية.

Migne: Patrologia latina, t. CXLIII, col. 774

وانظر رسالتي كيرولاريوس لبطريك انطاكية في:

Migne: Patrologia graeco-latina, t. CXX, cols. 789-793, 815-820.

وقد توحي رسالة ليون التاسع المذكورة بأن حركة أسقف المهدية في عام 1053 م ربما كانت نتيجة مساعي من ناحية بطريك الاسكندرية كللت بالنجاح بفضل ما كان من علاقات جيدة بين الكنيستين القبطية والمغربية منذ عصر الفتوح الاسلامية، (عن هذه العلاقات أنظر :

W. Seston: Sur les derni.rs temps du christianisme en Afrique, ap. Mél. d'archéol. et d'hist., t. LIII, 1936 pp. 118-119.

وهي علاقات لا بد وأنها كانت قوية الى الدرجة التي تجعل ابن أبي دينار المتوفي بعد عام 1110 هـ ـ 1698 م يقول في صدد كلامه عن افريقية في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز «وكانت بها عدة قرى عامرة بالكفر الى ما بعد المائة الرابعة، وكانت الأساقفة تأتي من الاسكندرية من قبل البطريك الذي بها الى نصارى افريقية». (المؤنس ص 138)، وان كنا نعتقد بأن الأساقفة الذين تكلم عن وصولهم الى افريقية هم على الأرجح موظفون مدنيون على شاكلة قاضي النصارى في الأندلس (عنه انظر ابن خلدون ، العبر مجلد 4 ص 390). أو صقلية قبل النورمان. (أنظر : (Amari: op cit., vol. 2 p. 458.

ولكن لنا أن نتساءل هنا هل يمكن لهذه العلاقات أن تستمر بعد استقلال بني زيري عن الفاطميين في القاهرة في عهد المعز بن باديس والد تميم؟ وهل يسمح تميم، بعد هذا الانفصال وما نتج عنه من وصول العرب الهلالية المخربين، لأسقف عاصمته بموالاة بطريك الاسكندرية الخاضع للفاطميين؟ وأخيرا هل خفي أمر الصلة هذه ـ اذا كانت موجودة ـ على بقية أساقفة افريقية الذين اشتكوا من تصرفات أسقف المهدية السلطوية لبابا روما ليون التاسع فلم يبلغوه بها حتى أننا لا نرى أن ذكر أو تلميح لهذا الأمر في رده عليهم؟ اننا لا نرى بأن حركة أسقف المهدية لها صلة بموقف بطريك الاسكندرية من الصراع بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية ، ولكن احتمال تمرد هذا الأسقف على حكم ليون التاسع وبالتالي خروجه على البابوية الرومانية قائم.

(62) عن هذه الاتفاقية ارجع الى : G. Barraclough: op cit., p. 78, grant (A. J.): op cit., p. 259; Chalandon: op cit., vol I, pp. 170-172.

(63) ارجع الى المصادر والمراجع التي ذكرناها في الحاشيتين رقم 37، 44.

(64) ابن الأثير . الكامل (طبعة ليدن) ج 10 ص 32ـ33، راجع أيضا : اسماعيل العربي، دولة بني حماد ص 168ـ172، علما بأن مصادره الرئيسية بخلاف ابن الأثير ثلاثة : النويري والعبر لابن خلدون ومعجم البلدان لياقوت.

(65) ابن عذارى، البيان ج 1 ص 300.

(66) انظر : Courtois op cit., p. 109, n. 3.

أضواء على الوضع الاقتصادي والاجتماعي في العراق

في الفترة الممتدة من 41 هـ ـ 661 م / 132 هـ ـ 750 م

صبيحة الخطيب

لقد شهدت أرض السواد ـ العراق ـ طيلة الحكم الأموي الممتد من 41 هـ ـ 132 هـ كثيرا من التغييرات الاقتصادية والاجتماعية. واشتعلت نيران الحروب في المراكز الاسلامية الكبرى في وقت مبكر جدا، حيث شكل الفلاحون القاعدة الاجتماعية لأكبر الثورات عمقا، علما أن جميع هذه الثورات والانتفاضات والهبات قد استهدفت اما الى اجراء تغييرات محدودة في اطار النظام الاقتصادي والاجتماعي القائم حينذاك، أو انها رفضت الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تستهدف استغلال الفلاحين وجمهور العامة... حتى تبلورت هذه الثورات الى استقطاب جميع الطبقات الاجتماعية واستهدفت تغييرا سياسيا وذلك بطرحها شعار خلع الخليفة نفسه.

ان هذا البحث هو محاولة متواضعة لالقاء الضوء على الوضع الاقتصادي والاجتماعي الذي كان وراء هذه الحركات والثورات والتي أجمعت المصادر العربية الأساسية قديمها وحديثها على أن الصراع بين القبائل العربية لم يكن مجرد حروب ثأرية قبلية أو نزاعات كل مشكلات جاهلية قديمة بل كان صراعا يقوم على اختلاف في التفكير السياسي وفي الموقع الاقتصادي والاجتماعي للمراتب الاجتماعية المختلفة في اطار القبيلة الواحدة أو في اطار القبائل المختلفة الحاكمة منها والمحكومة.

لقد رافقت الفتوحات العربية في العراق هجرة واسعة نقلت قبائل قوية وعديدة من الجزيرة العربية الى الامصار الجديدة وقد تجلى ذلك في انتقال العاصمة الى الكوفة وهي من أقوى المراكز العربية في خلافة الامام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه).

ان تغييرات كبيرة طرأت على حياة القبائل العربية بعد انتقالها الى الامصار ذلك أن اقامتها في المدن جعلها تتجه الى الاستقرار والى الحياة الحضرية ومع أن الكثير من القيم والمفاهيم القبلية بقيت، الا أن القبائل أصبحت جزءا من مجتمعات مستقرة ولم تبق دور الهجرة مراكز عسكرية بل تحولت الى مجتمعات حضرية نشيطة بمختلف الفعاليات المدنية، ولقد تمثل هذا التحول في النواحي الاجتماعية والاقتصادية، كما تمثل في النواحي الفكرية، وكان العرب الذين جاءوا من مدن الجزيرة العربية أسبق من غيرهم في التحول، اذ نشطوا بالتجارة في أول الأمر ثم أدركوا أهمية الأرض فاتجهوا الى الملكية الزراعية، وكان أشراف القبائل هم أهول من انتبه الى أهمية الأرض وتمثل ذلك في الاستحواذ على الأرض الخراجية واحياء الأرض الموات(١). وفي هذا السبب تفسير كثير من الصراعات السياسية التي حدثت في العراق خلال الفترة المعنية بالبحث، وكذلك في تفسير الشدة والقساوة اللامتناهية، التي جوبهت بها الحركات الشعبية وهبات الفلاحين وانتفاضات الزنج اللاحقة، وذلك خوفا على مصالح وامتيازات الأوساط المالكة للأرض. وعليه لا بد من القاء أكثر الأضواء تألقا على قضية أساسية اذ أنها مفتاح لكل الصراعات التي شهدها العراق وكانت في خلفية أكثر هذه الثورات عنفا الا وهو الموقف من ملكية الأرض ومن الانتفاع بها والطبقات التي توضحت هويتها وايديولوجيتها في خضم هذه الأحداث خاصة وان عملية التحول نحو الاقطاع في الشرق، ومنها العراق لم يتم بطريق تبدل جذري بانمط الاستثمار بل بطريق الصراع بين أنواع الملكيات المختلفة وبشكل خاص بين الملكية الخاصة من جهة وملكية الدولة من جهة أخرى، وعليه فان هذا البحث يتمثل في محورين أساسين وهما، كما ذكرنا أعلاه، الموقف من ملكية الأرض، وهو الانتفاع بها، والطبقات الاجتماعية الأساسية، التي تبلورت في أرض السواد خلال الفترة المعنية بالبحث.

ملكية الأرض عشية فتح العراق :

يعتقد البعض من الباحثين بأن الفتح الاسلامي في العراق قد قضى على النظام الاقطاعي في وادي الرافدين ما دامت ملكية الأرض قد انتقلت الى الدولة الاسلامية (بيت المال) ولم يظهر شبيه للاقطاع الموجود في أوروبا، في الحقيقة ان النظام الاقطاعي في العراق قد اتخذ شكلا آخر، اصطلح على تسميته بالشكل الاسيوي، أي ان الدولة هي المالك الأعلى لجميع الأراضي وقد تكون حيازتها والانتفاع بها للدولة أو للافراد، ولعل ندرة الأراضي الزراعية في الجزيرة العربية وعدم وجود اقطاعيات واسعة في بداية ظهور الاسلام هما اللذان أديا الى وقوع العديد من الباحثين في الاستنتاج المشار اليه أعلاه.

ان أرض السواد ـ العراق ـ باتفاق أكثر المؤرخين والفقهاء قد فتحت (عنوة) في 16 هـ ـ 636 م تحكمها اذن حكم الغنيمة التي يؤخذ منها الخمس ليوزع بين من سمي الله للرسول وذوي القربى واليتامى وابن السبيل ، وما بقي من الخمس فهو للذين غلبوا عليها تقسم بينهم بالسوية الا أننا نجد ورغم هذا الواقع فان أرض السواد لم تقسم بين الفاتحين وانما أبقاها الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في أيدي أصحابها يؤدون عنها الخراج.

لقد تعرض الخليفة عمر بن الخطاب لمعارضة شديدة حيث طلب منه بعض الصحابة تقسيم أرض السواد على الذين غلبوا عليه بعد أن يخرج الخمس مستندين في آرائهم ومعارضتهم هذه الى أحكام الدين الاسلامي وسنة الرسول ﷺ، وقد واجهوا الخليفة عمر (بأن أقسمه بيننا فانا فتحناه عنوة بسيوفنا)[د].

أبى الخليفة عمر بن الخطاب تقسيم الأرض بينهم واستطاع أن يقنعهم بالحجة واحكام القرآن وأقوال الرسول ﷺ من أنه من الأفضل أن تبقى أرض السواد في أيدي أصحابها يزرعونها ويدفعون عنها الخراج وعن رؤوسهم الجزية وذلك لتكون وقفا لعامة المسلمين بين المقاتلة والذرية (السواد لمن في أصلاب الرجال وأرحام النساء وجعلهم تؤخذ منهم الجزية ومن أرضهم الخراج)[د].

لقد انطلق الخليفة عمر بن الخطاب في موقفه هذا من الأرض واعتبار السواد ملكا للدولة الاسلامية من قضية أساسية حيث أجاب قادة الفتح عند الحاحهم

بتقسيم السواد بينهم (فما لمن جاء بعدكم من المسلمين، وأخاف أن قسمته أن تفاسدوا بينكم في المياه)[هـ] . ان الحفاظ مركزيا على المياه وصيانته يمثل سمة من السمات الأساسية لاقتصاد وادي الرافدين قديما حيث كان ذلك واضحا في (بابل وأكاد وسومر) وهذا يعود الى حاجة الزراعة في هذه المناطق الى المشاريع الكبرى المرتبطة بتنظيم الأنهر وبناء السدود والقنوات، الأمر الذي لا تستطيع ملكية فردية تغطية القضايا الأساسية لري الأرض. اذ ان صيانة نظام الري كان يؤلف أساس كل الرخاء الذي تمتعت به الطائفة المالكة للأرض في كل الحضارات القديمة المشار اليها في وادي الرافدين. وقد برهنت النصوص التي يرقى عهدها الى عصر سلالة أور الثالثة سيطرة الدولة على قنوات الري وان توزيع الماء من القناة ومدة الارواء كانت تنظم من قبل موظفين في الدولة[و].

ان انشاء نظام الري هذا كون اقتصاد العراق وضمن تقدمه بالعمل الجماهيري الذي ساعد على تعزيز سيادة المجتمع وتوطيد حق ملكية الدولة للأراضي المروية، ويذكر بليخانوف بهذا الصدد (أن الطبقات الحاكمة التي نجدها في تاريخ هذه البلدان كانت تتمتع بمركزها الاجتماعي الرفيع نوعا ما وذلك بفضل تنظيم الدولة الذي انبعث الى الوجود من مستلزمات عملية الانتاج الاجتماعي)[ز] . هكذا كان الأمر أيضا زمن الدولة الساسانية حيث كانت أرض السواد ملكا للدولة تمشيا مع نفس الأسس في حاجة الزراعة الى شبكات الري الاصطناعية الكبيرة فسمحوا لسكان العراق الاستمرار في أعمالهم الزراعية كالسابق مستوفين فهم الخراج[ح] . وقد استمر العمل بهذين الشكلين من أشكال ملكية وحيازة الأرض حتى القرن الثالث حيث ظهرت في مطلع الحكم الساساني بوادر الاقتصاد الاقطاعي واعتمادا على ما مر فان امتناع الخليفة عمر بن الخطاب عن تقسيم الأرض ملكية خاصة للفاتحين استهدف وراءه أن تكون الدولة هي المالك الأعلى للأرض، فالسيادة تعتمد على ملكية الأرض المركزة تركيزا يبلغ المستوى الوطني بالاضافة الى عجز الافراد عن القيام بمهمة تأمين الري للزراعة.

ان مركزة رقعة الأرض والمياه قد أوجدت بالضرورة الادارة الواسعة، تلك الادارة التي مكنت من تعبئة جيوش الفلاحين والارقاء والعمال المياومين لبناء السدود

وحفر القنوات واقامة المنشآت الضخمة بجهود مجانية. وان خير دليل على ذلك تلك الانهار التي حفرت في زمن والي العراق الحجاج والخليفة الوليد بن عبد الملك وكذلك المستنقعات التي جففت والبطائح التي استخرجت وامتلكت من قبل الخلفاء والولاة.

بالإضافة لما ذكر فان بقاء ملكية الأراضي للدولة يتيح لها أيضا امكانية تكوين الجيوش والفرق العسكرية الكبيرة العدد وهذا ما ابتغاه الخليفة عمر بن الخطاب اذ اراد أن تستمر الجيوش في الفتح ونشر الاسلام والابقاء عليها كقوة تحمي الثغور اذ قال (أرأيتم هذه الثغور لا بد من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة ومصر لا بد من أن تسحن بالجيوش وادرار العطاء فمن أين يعطي هؤلاء اذا قسمت الأرض والعلوج)[ه].

وعليه وبناء على ما تقدم نجد أن الوظيفة الاقتصادية التي اضطرب الى تنفيذها كافة الحكومات الاسيوية هي بالذات وظيفة تنظيم الأعمال الاجتماعية وقد ارتبط كثرة الخراج وقلة بحزم هذا الخليفة أو ذاك وعدى استفادته من الجهاز البيروقراطي في تعبئة الفلاحين لاستعمالهم في كرى الانهار وحفرها عماد الزراعة في الشرق وفي استصلاح الأرض واستخراج البطائح. وتزخر المصادر العربية والمراجع الأساسية بالوسائل التي ضمنوا بواسطتها عمل هؤلاء المجاني حيث ربطوهم في بعض الأحوال بالسلاسل لاتمام هذه الأعمال وضمان عدم هروبهم[ه] واختصارا لما مر نجد أن للأرض عند الاسلام (رقبة) و(منفعة) فرقبتها هي أصلها (ومنفعتها) هي استعمالها في الزراعة وغيرها. وقد سمح للاسلام بملكية رقبة الأرض كما سمح (بملكية منفعتها) ووضع أحكاما لكل منها.

لسنا هنا بصدد مناقشة ملكية الأرض في الدولة الاسلامية وتطورها ولكن لا بد من التأكيد على أن رقبة الأرض كانت كجهاز الدولة ، وقد حدد الخليفة عمر بن الخطاب وحسم الموقف عندما استرجع الأرض التي كان قد أقطعها لجرير تثمينا لدوره في واقعة القادسية نحو فتح السواد حيث قال له (يا جرير لولا أني قاسم مسؤول لكنتم على ما كنتم عليه ولكني أرى ان ترده على المسلمين)[١٥] وعليه فاننا نجد في تاريخ الدولة العربية الاسلامية وعلى فترات متعاقبة كان يقر للمسلم حق الاكتفاء بدفع العشر عن الأرض التي يحوزها مما يعني حق ملكية الرقبة ، أما الذمي

فكان يدفع الخراج بالاضافة الى الجزية مما يضمن بأن أرضه لأمة الاسلام وممثلها الخليفة القاسم المسؤول ، وبما أن جهاز الدولة هو المالك الكبير لوسائل الانتاج الأساسية حينذاك (الأرض الزراعية) فالمتجون اليه هم المالكون بالوكالة ، أي أن الطبقة المالكة هي الجهاز الحاكم في آن واحد ولذلك يصل الفرد عادة الى الثروة لا بنشاطه الاقتصادي أساسا وانما بتسلق السلم الوظيفي فنجد في التاريخ كثيرا من هذه الأمثلة لمسؤولين من حكام وأمراء جيوش وكبار القضاة الذين تقطع لهم الاقطاعيات (أي يستلمون حق الاستيلاء على خراج احدى المناطق والأقاليم) أو الذين يتولون (التضمين أو الالتزام) أي يستأجرون حق جمع الخراج من منطقة معينة مقابل نسبة منه ، وكان بعض خلفاء بني أمية يفضلون اقطاع الأراضي لبعض ولاتهم بدلا من اعطائهم راتبا معينا أو أن تمنح الاقطاعيات لدوافع شخصية ، وعندما يفقد الشخص منصبه الحكومي فالأغلب أن يفقد وراءه الجانب الأكبر من دخله وتسترجع الدولة ضمانته أو اقطاعه وكثيرا ما تصادر أملاكه المنقولة ولهذا استحدث ديوان المصادرات لتنظيم هذا الأجراء[١٤] . ولذا فان سياسة الدولة كانت هي العامل الموجه لاتجاه التطور الاقتصادي والمحرك له ، فتزدهر الأحوال بالنسبة لفئات أو طبقات معينة أو تضمحل طبقا لهذه السياسة وتتحدث أغلب المراجع العربية عن دور الخليفة بصفته الحاكم الأعلى فبصلاحه يصلح المجتمع ويزهر اقتصاديا ، وبفساده تعم المجاعات والأوبئة وانخفاض مستوى الفيضان وغير ذلك.

وما تجدر الاشارة اليه هو ان امتلاك الدولة والملاكين الكبار للأرض والمياه كان عاملا من عوامل انتزاع الملكيات الخاصة من المزارعين والفلاحين الى جانب ذلك كان سلاما الحق في أن يجيز ويعطي (لمن كان له غناء في الاسلام) سواء من تلك الأراضي التي استقصاها الخليفة عمر بن الخطاب أو من الأرض الموات[١٤] ، بالإضافة الى أن المقطع اليه يحصل على هذه الأرض بامتيازات فاذا كانت تسق من أنهار الأرض الخراجية تعفى من الخراج ويؤخذ منها العشر فقط ، وارتباطا بما مر نجد أن الجهاز الاداري في الشرق كان له دور مزدوج فهو من جهة ينظم جميع النشاطات في المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والدينية والفكرية ويقيم المركزية التي لا حياة للاقطاع الاسيوي بدونها وهذا مما جعل المستشرق الالماني (فلهوزن) يذكر في كتابه الدولة العربية.. (من أن العرب يرون أن كل حاكم قوي يجب أن يكون

استبداديا خصوصا اذا احتاج الى السيف في قمع الرعايا الثائرين[٤٤].

هذا من جهة ومن جهة ثانية فكما ذكرنا من أن الانتماء الى هذا الجهاز هو الوسيلة الأساسية للثراء، ولهذا فان أفراد خمسة يشكلون احدى القوى الكبرى التي تسعى الى تحويل ما يتمتع به من منفعة الأرض (حق منفعة الوكالة) الى حق أجل. أي تحويل حق الانتفاع بريع الأرض – الخراج – الى ملكية الرقبة نفسها وعليه فالبيروقراطية كانت على الأغلب احدى القوى النازعة الى الملكية الخاصة وتسعى الى تفكيك المركزية والانتقال الى شكل من أشكال الاقطاع. واعتمادا على هذا التحليل نجد أن حركات الخوارج والزنج والقرامطة والاسماعيلية كانت تضغط باستمرار من أجل حصر الملكية الخاصة في أضيق الحدود وتثبيت مبدأ (الأرض، أرض الله. والمال، مال الله) وبالارتباط لما تقدم يصبح من الضروري اعارة أهمية كبرى للمحور الثاني وهو الاصطفاف الطبقي في هذه الفترة وتبيان الطبقات الاجتماعية في الفترة الممتدة من الخليفة معاوية بن أبي سفيان حتى الخليفة عبد الملك بن مروان.

أولا : الطبقة العليا – وتكون من أ – كبار الملاكين للأراضي الزراعية وتمثل عائلة الخليفة أبرز أعضائها وعلى قمتها اضافة الى عشيرة الوالي التي كانت في الغالب تشارك العائلة الأموية في امتيازاتها تليهم فئات رجال الدولة العسكريين (ذوي البلاء) والاداريين الكبار ورؤساء العشائر والقبائل وبعض الرجال البارزين ويتمتع هؤلاء جميعا بحقوق وامتيازات تتناسب مع مقامهم في الدولة أو في مناطقهم. نشاط هذه الطبقة تتميز بصفة أساسية باستغلال الأرض بشكل غير مباشر اذ كانوا يؤجرون أرضهم للمزارعين المباشرين من أبناء الريف ويجبون الريع العقاري (الخراج) فالريع العقاري قبل الرأسمالية كما هو معروف ما ينتجه العمل الزائد وأحيانا جزء من العمل الضروري للفلاح التابع للاقطاعي والذي كان يستولي عليه الاقطاع بأشكال مختلفة متمثلا في العمل أو السخرة، وقد ساد في الادوار الأولى من عهد الاقطاعية. لقد جمع الريع بشكلين، أ – الريع العيني حيث كان الفلاح ملزما بأن يقدم للاقطاعي فائض الانتاج على شكل عيني (قمح، شعير، دواجن، ماشية.. الخ). ب – الريع النقدي، حيث كان الفلاح ملزما بدفع الريع بالنقود بعد أن يقوم ببيع انتاجه في السوق، وكانت ضريبة الأرض (الريع العقاري) الخراج – في السواد

حينذاك يجبى أما (خراج على مساحة الأرض) أي ضريبة الأرض المرتبطة بالمساحة الممسوحة، وكانت هذه تختلف عن الضريبة المرتبطة على أساس نسبة مئوية من المحصول السنوي أو ما تسمى (خراج على المقاسمة)، وأخيرا كانت هناك الضريبة التي تسمى (خراج على المقاطعة) وكانت مبلغا معلوما من المال اتفقت مدن كالحيرة مثلا أن تؤديه[٤٥].

كانت هذه الطبقة تسكن الحواضر علما بأن هذه الطريقة من الانتاج كانت تبقي المستأجرين وحفار المزارعين دائما في وضع التبعية الاقتصادية مغرقين بالديون والسلف من جهة ومن جهة ثانية ان هذا الاسلوب أخر بالأرض وأفرغها من خصوبتها علما ان المزارع والمستأجر لم يعد يجد أية رابطة أصيلة تربطه بالأرض التي يستغلها.

ان هذه الفئة لم تكن متجانسة من حيث سعة ملكيتها وأرباحها وانما تتفاوت من فئة لأخرى ضمن الطبقة الواحدة (الطبقة العليا، المالكة للأرض) الا أنها ضمن الاطار العام تشكل طينة واحدة مع الاحتفاظ بصراعات فيما بينها أساسه الحصول على موارد أكثر للثراء والامتيازات، فاذا نظرنا الى التسلسل الهرمي لهذه الطبقة نجد في المرتبة الثانية من التسلسل تأتي فئة :

ب – الملاكين والمزارعين الأغنياء ، وهذه الفئة تتكون من قسمين أيضا. الأولى (قديمة) الذين لم يترحوا من أراضيهم منذ الفتح العربي بل سارعوا الى اعتناق الاسلام وحسبما يذكر المؤرخ البلاذري فانهم بالاضافة الى ملكيتهم للاراضي ملكوا الأنهار فكان جيل بن بصبهري دهقان الفلاليج والنهرين وبسطام بن نرسل دهقان بابل وخطرنيه والرفيل ،فيروز دهقان نهر الملك وكوثي وغيرهم من الدهاقين فلم يعرض لهم الخليفة عمر بن الخطاب (ولم يخرج الأرض من أيديهم وازال الجزية عن رقابهم)[٤٦] على هذا النحو بقيت الأرض بأيديهم وتعاونوا مع العرب ابان عمليات الفتوح حيث كانت أغني الأراضي المزروعة في الضياع الكبيرة تلك التي يشرف عليها الدهاقين وكان موكولا اليهم أيام الساسانيين الاشراف على العدل محليا وكذلك جمع الضرائب، وقد أرتأى الخليفة عمر بن الخطاب أن يستخدمهم في نفس المجالات اذ أن هؤلاء كانوا ممثلي الحكومة أمام حراثي الدولة وعليه فقد كان الدهاقين سابقا كعملات نادرة لا غنى عنها في آلات الدولة وهم قليلا ما يظهرون في الحوادث

التاريخية الخطيرة ومع ذلك كانت لهم قيمة لا تنكر اذ أنهم أساس متين للادارة وبناء الدولة ولكن في أغلب الأحيان لم تكن الأراضي المزروعة التي تؤول للدهقان بالميراث ورغم أن ملكية أموالهم اعتبرت من جانب الدولة مشرعا الا أن الخليفة عمر بن الخطاب سمح لهم بأن تظل الأرض في حوزتهم ، شرط أن يدفعوا نفس الضرائب التي كانوا يدفعونها سابقا لكسرى[١٥].

كثيرة هي الشواهد التي تدل على تعاون قادة الفتح مع الدهاقين وكثيرة هي الأمثلة التي ذكرتها المراجع العربية عن دهاقين أسلموا وفرض لهم العطاء تقديرا ومكافأة لهم وعلى سبيل المثال فقد فرض الخليفة عمر بن الخطاب لعهرمزان دهقان الأهواز ألفين درهم حين أسلم[١٦]. لم يكن من الصعب تعاطف هؤلاء الدهاقين مع الاشراف الموسرين من العرب وذلك بسبب اتقان المصالح بين الارستقراطية الزراعية القديمة وبين الذين نزعوا للحصول على الأرض وتوسيعها من العرب، هذه المصلحة شدت ما بينهم للوقوف ضد صغار المزارعين والفلاحين والعامة ومما شدد من اضطهاد هؤلاء أن أغلبية كبار الدهاقين كانوا يمتلكون منشآت الري والأنهر وبالحماس الذي سعى اليه هؤلاء لامتلاك الأراضي الواسعة كانوا هم المبادرين أيضا للحفاظ على منشآت الري في القنوات الكبيرة حيث كانت هذه القنوات عماد ثرواتهم.

أما القسم الثاني من الملاكين والمزارعين الأغنياء ضمن هذه الفئة كانوا من العرب الذين حصلوا على الأرض ابان الفتوحات وعليه فان اشراف القبائل أول من انتبه الى أهمية الأرض واتجهوا الى امتلاكها وذلك بالاستحواذ على الأرض الخراجية، واحياء الأرض الموات.

وقد شهدت فترة الخليفة عثمان بن عفان تحولا نحو سيادة الملكية الكبيرة حيث اتجه الخليفة المذكور الى اقطاع وتحليل عدد من الصحابة (فالسواد بستان قريش)[١٨]. وقد سمح ببيع الأرض وتأجيرها. فقد اقطع عبد الله بن مسعود فلان أرضا بالنهرين واقطع عمار بن ياسر اسبينا، واقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز بالاضافة الى أنه سمح ببيع الأرض أو تأجيرها وكذلك شمل الاقطاع الأرض الموات (من أحيا أرضا ميتة فهي له)[١٩].

وقد كان لاستشهاد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب وما رافق ذلك من

تطورات قد أتاح فرصة لافراد من القبائل المتعاونين على الادارة الأموية لكي ينموا ثرواتهم وملكياتهم وذلك بالتجاوز على الأرض الخراجية علما بأن السلطة الأموية ساهمت في خلق الارستقراطية الزراعية وذلك باقطاعها الارض الى أنصار الأمويين واقربائهم.

وقد تسامح الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد للعرب بشراء أرض الخراج ودفع العشر عنها وفي أثناءثورة ابن الأشعث في العراق(81ـ82 هـ ـ701م) تجاوز مستأجري أراضي الصوافي وذلك بحرق الديوان الخاص بهذه الأراضي والادعاء بملكيتها[٢٠]. وقد تحولت مساحات واسعة عن هذا الطريق الى ملكيات خاصة مما ترك آثاره الواضحة في الخزينة وهددها بالافلاس.

ان سياسة فرض الخراج على الأرض الزراعية زرعت أم لم تزرع بقدر متساو وأجبر الفلاحون والمزارعون الصغار على ترك أراضيهم، مما وفر مجالا لاشراف القبائل وبعض القواد واثرياء المسلمين للاستيلاء على الأراضي الزراعية وتوسيع ملكياتهم العقارية التي حصلوا عليها عن هذا الطريق بأثمان بخسة. وقد نمت هذه الفئة أيضا عن طريق استئجار أراضي الملاكين الذين لا يرغبون في ادارة الانتاج المباشر للارض كما حدث لعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص حين أعطيا الأرض التي اقطعت لهما مقابل الثلث أو الربع[٢١].

عموما فان هذه الفئة من المالكين وازدهارها كان يتم باستغلال الفلاحين. وقد تميزت مزارعهم بزراعة المحصولات المنتجة من أجل السوق كالقطن والكتان. ومن البديهي أن توسيع ملكية الأرض لدى بعض افراد هذه الفئة أو تلك ينقلهم الى مرتبة أعلى، ونجد في اطار هذه الطبقة فئات متعددة من المالكين تتفاوت في المكانة الاجتماعية.

ثانيا : ان الطبقة الثانية والكبيرة حجما والتي شكلت القاعدة الاجتماعية الأساسية في الانتاج والتي أمدت المدينة بالسلع الاستهلاكية وكانت دائما جيش الانتفاضات والهبات والحروب فكانت طبقة الفلاحين بكل فئاتها. الأغنياء (ذوي القطع الصغيرة) والفقراء والمعدمين والعمال الزراعيين ورقيق الأرض.

لقد اعتبرنا الفلاحين الأغنياء هم أولئك الذين يمتلكون قطعا من الأرض ويتواجدون اينما وجدت الأراضي العربية والمسيحية والتي لا تعتمد زراعتها على

أدوات ضخمة ومعقدة ولا تحتاج الى رأس مال كبير يزرعها هو وأفراد عائلته لتوفير القوت الضروري لحياتهم وعلى الأغلب كان هؤلاء من الموالي ، ولربما باعوا بعض المحاصيل لسد الضريبة النقدية المفروضة اداؤها أو لتوفير بعض احتياجاتهم من السلع الاستهلاكية، وكانت جميع هذه الصفقات تتم في الريف وهي مبيعات محدودة (٤٤).

لقد ابتلعت الملكيات الكبيرة أراضي هؤلاء فنقص عددهم وتحول القسم الأكبر منهم الى فلاحين اجراء. أما فئة الفلاحين الفقراء المعدمين ــ وهم الذين لا يملكون أرضا ولا رأسمالا وهؤلاء أما أن محاصصين أو عمالا زراعيين أو فلاحين أو قنان، وتوجد عدة حالات للفلاحين المحاصصين لا مجال للخوض في تفاصيلها. وقد أسهب المؤرخ الشهير أبو يوسف في كتابه الخراج في ذكر هذه التفاصيل والحالات. المهم ان الفلاح المحاصص يملك قوة عمله العامل الحاسم في الانتاج حينذاك، وربما عنصر آخر الى أن الأرض دائما كانت ملكا للاخرين وهناك كما أشرنا أشكال كثيرة ومختلفة للمحاصصة افترضها الفقهاء وفي كل تلك الحالات لا يحصل المحاصص لقاء الجهد المضني والاستغلال غير الكفاف وشظف العيش والبؤس، وهذا مما حدا بالمستشرق السوفييتي (ياكوبوفسكي) (بأنه من غير الممكن كتابة البناء الاجتماعي لدولة الخلافة دون المعرفة التامة للمنتجين المباشرين)(٤٥).

أما العمال الزراعيون فهم الجماهير المعدمة من الفلاحين في الريف، ان هذه الفئة من الفلاحين كانت تعمل في أراضي الملاكين حيث استعانوا بهم لتتحقق أكبر نسبة من الأرباح وكانت البساتين تمتلئ بهم أيام الحصاد والمواسم الزراعية(٤٦)، علما بأن العلاقة بين هذا الفلاح والأرض تنقطع حال أن ينتهي الموسم الزراعي وكذلك تنقطع علاقته مع مالك الأرض وقد استخدمت الدولة هؤلاء في أعمال السخرة وفي المشاريع الكبيرة حيث حفر نهري النيل ووادي الزابي بجهودهم أيام الحجاج(٤٧).

أما بالنسبة للفلاحين الأرقاء فانهم يشتركون مع الفلاحين الفقراء لعدم تملكهم شيء عدا قوة عملهم فانهم اضافة لما سبق كانوا فاقدين لحريتهم الشخصية على المستويين العملي والقانوني، وقد استخدم هؤلاء في الانتاج الزراعي بشكل واسع. وقد قام الزنج خلال العهد الأموي بحركات وانتفاضات سميت باسمهم الا ان والي

البصره خالد بن عبد الله بن خالد استطاع القضاء عليهم وتشتيتهم وكذلك قاموا بانتفاضة واسعة في ولاية الحجاج مستغلين مهاجمة الخوارج الازارقة على البصرة وانشغال قوات الدولة وكانت هذه المرة أكثر تنظيما وسعة الا أن الحجاج قد قضى على هذه الحركة قضاء مبرما. كانت جميع هذه الحركات رد فعل للأوضاع القاسية التي كانوا يعيشونها وقد وجد اعداد كبيرة منهم يكدحون في مزارع السواد ولا سيما في جنوبه وهناك دلائل تشير الى وجود رقيق تابعين للدولة (خمس الامارة) حيث كانوا يشتغلون في المشاريع الكبرى(٤٨).

ان هذا الوضع السيء للفلاحين عموما والفقر المدقع الذي كانوا يعيشون فيه وسوء أوضاع الرقيق العاملين في الأرض واستغلالهم المزدوج كان يدفعهم بالضرورة للقيام بتمردات عديدة والمساهمة في صفوف الحركات السياسية المناهضة للأمويين، وقد شكلوا القاعدة الاجتماعية والقوى الثورية المساهمة فعليا في الحروب المعادية للأمويين.

بالاضافة لما مر وجدت في المدن فئات اجتماعية أخرى لعبت دورا كبيرا في الحياة السياسية والثقافية ثم أصبحت لها مكانة مؤثرة في كيان المجتمع الاسلامي في العراق في ريفه وحواضره الكبرى. هذه الفئات كانت رجال الدين مثقفي ذلك العصر حيث كان معظمهم من العامة وكانوا خارج دائرة السلم الاجتماعي الاقطاعي كما لم يكن لهم نصيب في ثرواتها ولما كانوا من أصل عامي أو من أبناء المدن فقد كانوا أقرب الى حياة الجماهير، حيث احتفظوا بعواطفهم مع العامة، سكان المدن الكادحين ورغم مركزهم الديني فقد لعب هؤلاء دورا كبيرا في حركات وانتفاضات هذه الفترة فأيدوا هذه الحركات بالمنظرين والايديولوجيين والمفكرين ورافقوا حركات الفلاحين الثورية حتى في أحلك الأزمات والظروف خاصة عندما أجلاهم الحجاج عن المدينة، وقد ملأت فتواهم ونصائحهم المراجع والمصادر العربية والاسلامية وكانت هذه الفتاوي في أكثر الأحيان تتحول الى عمل يسري مفعوله والالتزام به بكل احترام وحيوية.

أما الفئة الثانية من سكان المدن، فكانوا التجار وبعض موظفي الادارة من الموالي والذميين وهؤلاء جميعا لم يكن لهم ارتباط مباشر بالانتاج ، وكانت هذه

الفئات تتضخم بتضخم الجهاز الاداري للدولة حيث اضطرت الى استخدامهم وتعيين رواتب ثابتة لهم وبشكل خاص ما كان منهم من مثقفي الموالي ذوي الانحدار الارستقراطي حيث استعانوا بهم لتسيير شؤون دولتهم وأعمالهم الخاصة ، ومن هؤلاء أيضا من اشتغل بالصيرفة والعلم وأصحاب الحرف من مختلف الأصناف، خاصة وأن العرب في هذه الفترة لم يساهموا بالحرف فقد انصرفوا الى الحكم والادارة والجهاد وضمن هذه الفئة أيضا كان ممثلي الاشراف ووكلائهم في الريف حيث كانوا ممثلو السلطة وكبار الاقطاعيين وقد سلك هؤلاء سلوكا متعاليا تجاه مواطنيهم وابناء جلدتهم، بالاضافة لما مر من تركيب سكاني في المدن كانت هناك أيضا اعدادا كبيرة من المفلسين والمحرومين من الحقوق المدنية، الاجراء عمال المياومة، اسلاف حثالة البروليتاريا، الذين يوجدون حتى في أدنى مراحل تطور المدن وهي بشكل عام ظاهرة توجد بدرجة وبأخرى في كافة مراحل تطور المجتمع المعروفة حتى اليوم، وقد زاد عددهم في المدن حيث لم يكن لهم عمل محدد أو سكن ثابت، وخاصة بعد الهجرة الواسعة من الريف والذي لا يسع المجال هنا لشرح أسبابها، مما مر يتضح أن البون كان شاسعا بين الأقلية المالكة للأرض والحكام والاداريين والاشراف ورؤساء القبائل وبين السواد الكادح خاصة وان الأمويين في منح الاقطاعيات وزيادة رقعة ملكية الأراضي الخاصة قد أتاح لهؤلاء احتكار الأقوات وفرض الأسعار العالية ليحصلوا على أكبر قدر من الأرباح يستدل على ذلك من خطبة والي الكوفة خالد بن عبد الله القسري (انكم زعمتم أني أغلي أسعاركم فعلى من يغليها لعنة الله)[27].

أن تملك الأراضي الزراعية بهذا الشكل من قبل فئة محدودة من الناس كان البادرة الأولى لتشكيل القاعدة المادية للاقطاع في المجتمع الاسلامي الذي ارتكز عليه التفاوت بين السلطة الحاكمة وهؤلاء الملاكين من جهة وبينها مجتمعة وبين الطبقات المسحوقة من الجهة الأخرى. ومما تقدم يمكن التأكيد ان قسما كبيرا من سكان المدن كانوا من الفلاحين الذين جوهم أصحاب الملكيات الكبيرة الذين توسعوا على حساب ضم الملكيات الصغيرة اليهم الى اجراء متجولين في المدن كما في الريف، وقد كان رد الفعل لدى هؤلاء قويا ومؤثرا وسريعا حيث تعاطفوا مع أي ثائر شهر السلاح بوجه السلطة الأموية خاصة وقد وصلت هجرة الفلاحين من الريف الى المدن زمن الحجاج حدا كبيرا وشكلت هجرة جماعية ونزوح كبير الى المدن حيث كونت في

مجموعها ازمة اقتصادية واجتماعية واضحة أثرت على حالة الزرع في الريف وادت الى تغيير التركيب الاجتماعي في المدن، وان مما يؤكد هذه الهجرة واستفحالها الاجراءات المشددة التي اتخذها الحجاج بصدد ارجاعهم الى قراهم. وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في القاء الضوء على بعض المحاور الأساسية للتركيب الاقتصادي والاجتماعي لأرض السواد في الفترة التاريخية المشار اليها بالبحث.

الهوامش

(1) الدوري، عبد العزيز ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص 20.
(2) البلاذري، فتوح البلدان ، ص 265ـ277.
(3) أبو يوسف، كتاب الخراج، القاهرة، المطبعة السلفية 1346، ص 30.
(4) البلاذري، فتوح، 374.
(5) مجموعة من العلماء السوفيت (العراق القديم) ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، 1976، ص 30.
(6) بليخانوف، المفهوم المادي للتاريخ ، ترجمة عامر عبد الله، النجف 1970، ص 65.
(7) ابراهيم كبة، دراسات في الاقتصاد والفكر الاقتصادي، ج 1، ط. الارشاد، ص 93ـ97.
(8) البلاذري، فتوح، ص 275.
(9) المصدر السابق، ص 283ـ284.
(10) يحيى بن آدم، كتاب الخراج، بريل 1895، ص 39ـ50.
(11) الدوري، التنظيمات الاسلامية، بغداد 1950، ص 199.
(12) أبو يوسف، الخراج ص 69.
(13) فلهوزن، تاريخ الخلافة العربية وسقوطها، ترجمة يوسف العش، دمشق 1956، ص 131.
(14) دينيت دانيال، الجزية والاسلام، ترجمة فوزي فهيم، بيروت 1960 ص 90.
(15) البلاذري، فتوح، ص 374.
(16) دينيت دانيال، الجزية والاسلام ص 55.
(17) البلاذري، فتوح البلدان ص، 374. (18) الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ 2، ص 323.
(19) أبو يوسف الخراج، ص 77. (20) البلاذري، فتوح ص 381.
(21) الدوري، الجذور التاريخية للاشتراكية العربية (شباط ـ فبراير 1965 ـ بحث).
(22) الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص 21.
(23) قادروفا، من تاريخ الحركة الفلاحية لما وراء النهر وخراسان ـ طشقند 1965 ، ص 42 (بالروسية).
(24) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة 1958، ص 239ـ240.
(25) البلاذري، فتوح، ص 283ـ284.
(26) صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في القرن 1 هـ في البصرة، ص 157ـ159.
(27) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، النجف 1358، ج 2، ص 520.

العمارة المدنية بالاندلس

(الدار الاندلسية)

سامي حسن

لمحة تاريخية عن الاندلس :

قبل أن نتعرض للعمارة المدنية بالاندلس وهي عمارة عربية اسلامية، يجدر بنا أن نستعرض تاريخ العرب في تلك البلاد، فقد فتح العرب بلاد الأندلس بعد أن دانت لهم مصر وبلاد المغرب، وما كاد الأمر يستقر لعمرو بن العاص في مصر حتى اندفع الى السير غربا كي يقضي على سلطان الروم في بلاد المغرب حتى يؤمن بذلك حدود مصر، ومن بلاد المغرب غزا العرب شبه الجزيرة التي تقع الى الشمال من المغرب الأقصى واطلقوا عليها اسم الاندلس. ولفظ الاندلس كان ينصرف في بادئ الأمر الى جميع البلاد التي فتحها العرب في شبه الجزيرة ثم صار مدلوله يتقلص بتقلص نفوذهم في البلاد وهي الآن تطلق على الجزء الجنوبي من اسبانيا.

وقصة فتح العرب لاسبانيا وهو الاسم الذي عرفت به شبه الجزيرة عند الرومان تتلخص في أنهم بعد أن استقر بهم الأمر في بلاد المغرب ودانت بأكملها لهم، بقيت مدينة واحدة خارجة عن سلطانهم وتابعة لاسبانيا وهي مدينة «سبتة» ولم يكن أمير تلك المدينة على وفاق مع ملك بلاده، وعندما استحكم العداء بينهما، واشتدت الجفوة اتجه أمير سبتة بدافع من كراهيته الى تحريض العرب على غزو اسبانيا،

واستجاب موسى بن نصير حاكم بلاد المغرب في ذلك الوقت لهذا الاغراء واستأذن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في غزو تلك البلاد فأذن له وتم الفتح على يد طارق بن زياد، الذي أطلق اسمه على الجبل الذي يقع الى الجنوب من شبه الجزيرة وسمي بجبل طارق. وانضم موسى بن نصير الى قائده طارق لكي يشاركه شرف الجهاد وينعم معه بحلاوة النصر. وتعاون الاثنان على اتمام فتح البلاد وبلغا أقصى حدودها الشمالية عند جبال البرانس حيث لجأ اشراف الاسبان والقوط واستقروا هناك مترقبين الفرصة لاستعادة بلادهم. وحكمت الاندلس من دمشق تسعا وثلاثين عاما اختلف عليها فيها من الولاة عدد كبير ونجح العرب في خلالها في التوغل في قلب فرنسا حتى وصلوا مدينة (تور بواتيه) غير أنهم هزموا هناك أمام جيوش الفرنجة في واقعة «بلاط الشهداء» التي نظر اليها المؤرخون الأجانب من زاويتين مختلفتين، فريق منهم رأى أن هزيمة العرب هناك قد حالت دون انتشار الاسلام في أرجاء أوروبا ومكنت للمسيحيين فيها وحمتها من هذا الدين الجديد الذي وجد سبيله الى نفوس المسيحيين في البلاد الأخرى . وفريق آخر رأى أن هزيمة العرب في هذه الواقعة قد أخرت أوروبا في ميدان الحضارة سنين عديدة وهذا حقا هو الواقع ، فلو أن العرب نجحوا في التوغل داخل أوروبا لاستيقظت من سباتها. وبدأت عصر نهضتها قبل التاريخ الذي قامت فيه هذه النهضة بعدة قرون.

سقطت الخلافة الأموية في دمشق سنة 750 م ونجا من فتك العباسيين الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي استطاع أن يفر الى بلاد المغرب ثم عبر منها الى الأندلس ودخلها وأسس بها إمارة في مدينة قرطبة ظلت تقوى على مر الزمن حتى اخضعت لسلطانها الاندلس بأكمله. وهكذا أصبح الأندلس لبني أمية، ولكن سرعان ما دبّ الضعف في جسم الخلافة الأموية الاندلسية وانسلخ حكام الأقاليم عنها واحدا بعد الآخر. وقامت عدة دويلات على رأسها ملوك يطلق عليهم المؤرخون اسم ملوك الطوائف. وكان عصرهم من أزهى عصور الحضارة الاسلامية على الرغم من انه كان عصر انحلال سياسي. ذلك ان كل عاصمة من عواصم تلك الدويلات حرصت أشد الحرص على أن تنافس قرطبة في عنايتها بالعلوم والفنون والسمو بالحياة الاجتماعية. ونتيجة للطمع الذي سيطر على هؤلاء الملوك وانقسامهم السياسي ضعف نفوذ العرب في الاندلس مما مهد السبيل أمام أشراف الاسبان

والقوط المرابطين في الشمال للتعاون على القيام في وجه العرب لاسترداد بلادهم. وكان من الطبيعي أن يستعين عرب الاندلس باخوانهم في الجنس والدين وكان أقرب العرب اليهم امراء بلاد المغرب حيث قامت في ذلك الوقت دولتان فتيتان هما دولة المرابطين ودولة الموحدين، وقد نجح ابن ياسين في أن يوقظ الحماس الديني في نفوس أتباعه فخرجوا معه يفتحون البلاد ونجحوا في الاستيلاء على المغرب وخفوا لنجدة اخوانهم من عرب الاندلس وانتصروا على الاسبان انتصارا باهرا في واقعة «الولاقة». وبمضي الوقت وقيام امراء ليست لهم قوة خلق ابن ياسين أو اخلاص يوسف بن تاشفين تسرب الضعف الى هذه الجماعة وانغمس رجالها في الترف وانتشر الفساد، الأمر الذي مهد لقيام الموحدين وظهور ابن تومرت، وقد كان ورعا متقشفا حارب المنكر في كل مكان ونجحت دعوته نجاحا منقطع النظير وأعلن للناس انه المهدي المنتظر، وعلى أي حال فان ضم المرابطين للاندلس لم يقطع سلسلة التقدم الحضاري لتلك البلاد بل استمرت عجلة التطور تدور بنفس السرعة التي كانت تدور بها من قبل، أما الموحدون فكان دورهم على مسرح التاريخ أطول زمنا وأبعد حدا، وقد نهلوا بدورهم من معين حضارة الاندلس وتمتعت البلاد في عهدهم بالهدوء وتوفر فيها الجو المناسب لاقامة المنشآت المعمارية العظيمة التي لم يبق منها الا القليل، ولعل أشهر ما وصلنا منها مئذنة المسجد الجامع في اشبيلية وتعرف عند الاسبان باسم «الخيرالدا». ولم تزدهر فنون العمارة والزخرفة وحدها في هذا العصر بل ازدهر كذلك فن الشعر وتجلت فيه الرقة والطرافة كما وصلت الثقافة الى ذروتها العليا فظهر رجال العلم والأدب نذكر منهم ابن سهل الشاعر وابن البيطار عالم النبات وابن رشد الفيلسوف وابن عربي من أئمة الصوفية وابن جبير الرحالة المعروف.

وقد نجح الموحدون في نقل هذه الحضارة الى مدى أوسع تجاوزوا به بلاد المغرب الى قلب افريقية كما ان اتساع ملكهم وطول مدة حكمهم كانا لها أثر واضح في نضج الحضارة العربية فقد امتزجت المقومات الحضارية في البقاع المختلفة في هذا الملك الواسع وتفاعلت معا تفاعلا كان كله خيرا وبركة على حضارة العرب. ولما ضعف أمر الموحدين بالاندلس وأخذت قواعد ملكهم تخرج من أيديهم تباعا بعضها يقع في أيدي الاسبان وبعضها يقع في أيدي العرب ظهرت دولة بني الأحمر (1232 ـ 1492 م)، وبرز على المسرح محمد بن يوسف المعروف بابن الأحمر.

واستطاع أن يشق لنفسه طريقا وسط تلك الفوضى التي كانت سائدة في الاندلس ونجح في اقامة مملكة غرناطة سنة 1232 م. على أن حكم العرب في الاندلس كان قد أخذ يهتز بقوة قبل قيام مملكة بني الأحمر بما يزيد على قرن من الزمان وأخذت ممالك ملوك الطوائف تسقط الواحدة بعد الأخرى في يد الاسبان. ففي سنة 1118 م سقطت سرقسطة وفي سنة 1235 سقطت قرطبة وفي سنة 1241 سقطت بلنسية وفي سنة 1243 سقطت مرسية وفي سنة 1246 سقطت اشبيلية. وكان من الممكن أيضا أن تسقط مملكة غرناطة وينتهي بذلك حكم العرب في تلك البلاد لولا أن شاء القدر أن تقوم فيها دولة بني الأحمر التي صمدت للاسبان ولم تسقط الا في سنة 1491. وفي خلال هذه الفترة تجمع في غرناطة المهاجرون من العرب الذين استولى الاسبان على بلادهم وانتشروا في ربوع غرناطة يعملون في حرفهم المختلفة التي حذقوها في بلادهم. حتى قيل انه لم يبق في غرناطة شبر من الأرض لم يستغل. وهكذا بلغت غرناطة الذروة، في الحضارة الانسانية وتركزت هذه الحضارة العربية بشتى مظاهرها في هذه المملكة الصغيرة. فازدهر العلم. ويكفي أن نشير الى ابن خلدون ومؤلفاته وازدهر الشعر ازدهارا كبيرا نحس به حين نقرأ قصائد ابن زمرك على جدران قصر الحمراء وازدهر فن البناء والزخرفة بل وجميع الفنون الزخرفية الأخرى كما تتجلى على الخشب وعلى الخزف وعلى الجص. والأمر الذي لا سبيل الى نكرانه هو أنه في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش في ظلمات الجهالة والفساد. كان العرب في اسبانيا قد أقاموا حضارة زاهرة، ولعبت اسبانيا العربية دورا هاما في تطور العلم والفن في أوروبا وكانت هي حاملة مشعل الحضارة تبدد به سحب الجهل وتنير به أرجاء أوروبا المظلمة.

العمارة المدنية بالاندلس :

كانت العمارة المدنية احدى أنواع العمارة بالأندلس وتشمل الدور والقصور والحمامات والفنادق والقيساريات ودور الصناعة وجسور المياه والقناطر، أضف الى ذلك العمارة الحربية من أسوار وقلاع وقصاب وبطبيعة الحال كان أيضا للعمارة الدينية نصيب كبير في بلاد الأندلس لما بناه المسلمون من مساجد وجوامع.

لقد افتتح المسلمون في الاندلس مدنا مزدهرة العمران وشاهدوا مبان تختلف

عما شاهدوه في المشرق بهرتهم عمارتها، وكان لا بد لهم أن يعيشوا في دورها حتى تتهيأ لهم الوسائل لبناء دور خاصة بهم. ولم يكد يمضي على فتح الاندلس نصف قرن حتى شهدت حركة معمارية ضخمة في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل وبنيه من بعده وخاصة عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر، فأقيمت في عهدهم ابنية تتسم بنظام الدور السابقة على الفتح الاسلامي. وتطور هذا النظام تدريجيا متأثرا في تطوره بنظام المسجد وهو أساس كل المباني الاسلامية.

ولم تتخذ الدار في الاندلس طابعا اندلسيا خاصا الا منذ عهد ملوك الطوائف. وبمرور الزمن وصل نظام الدار الأندلسية الى ذروة الاتقان في عهد الموحدين ودولة بني نصر.

وقد وصف ابن سعيد المغربي دور الاندلس بانها «في غاية الجمال المبالغة أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون منها». وكان أكثر هذه الدور لا تخلو من الماء الجاري والأشجار الكثيفة كالنارنج والليمون وغيرها. وكانت الدار الأندلسية تتألف من جزأين أساسيين هما الواجهة الخارجية وداخل الدار، أما الواجهة الخارجية فكانت خالية من الزخارف على حين ان داخل الدار مزخرف بزخارف جميلة اذ أن أهل الأندلس كانوا يبنون دورهم لأنفسهم كي يتمتعوا بالحياة داخلها، كما ان المرأة الأندلسية كانت تؤثر دائما البقاء داخل بيتها فلا تخرج الا نادرا ومن ثم فحياتها وثيقة الصلة بداخل الدار. ولهذا كان من الضروري تزيين داخلها بالزخارف الرائعة حتى تعوض للمرأة ما كانت تفقده من بقائها رهينة دارها. وكان مدخل الباب في دور الأغنياء يؤدي الى ردهة وهذه بدورها تؤدي الى البهو، أما المدخل في الدور العادية فكان يتصل بممر منكسر على شكل زاوية قائمة حتى لا يتاح للمارة في الطريق رؤية من بداخل الدار. وظهر في دور بني نصر التي ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي طابع جديد لواجهة المدخل غنية بالزخرفة اذ يعلو المدخل عادة عتب يعلوه نافذة مزدوجة ويكتنف المدخل من كلا جانبيه عمود ملتصق بالجدار يعلوه مسند نصفه الأدنى من الجص والأعلى من الخشب المنقوش ويستقبل هذا النصف العلوي من المسند أحد طرفي ظلة بارزة من الخشب وظيفتها حماية الزخارف الجصية الملونة والزليج الذي يكسو أزار واجهة المدخل. كما كانت الواجهة الخارجية للدار تزود

أحيانا بشراجيب أي نوافذ بارزة تشبه الشرفات تعلو فتحة الباب وتغطي هذه النوافذ شبكات من الخشب تتيح للمرأة رؤية المارة دون أن يراها أحد من الخارج. واذا كانت هذه الشراجيب البارزة عن الجدران تسبب ضيقا في الحارات وتزيد من ظلماتها الا أنها في الوقت نفسه كانت تخفف من حرارة شمس الأندلس، كما كانت تمنح النساء فرصة التمتع بما يجري خارج الدار دون أن يراهن أحد من المارة. وما زالت ذكرى الشراجيب ماثلة في شرفات الدور الاندلسية حتى الآن وخاصة في مدن مرندة واشبيلية والسهلة. (الشكل).

وبالإضافة الى الشراجيب كان يطل على الشارع بطول الواجهة حجرة كبيرة بارزة تحملها مساند تسمى الغرفة البرانية ويغلب على الظن ان انتشارها كان بسبب رغبة الأهالي في استغلال مساحة الأرض التي تبنى عليها الدار الى أقصى الحدود. وكانت هذه الغرف تجعل من الشوارع الأندلسية ممرات مسقوفة تحجب حدة الضوء وتخفف حرارة الجو.

أما الدار الأندلسية فكان يتوسطها بهو مربع يمدها بالهواء والضوء، ويقول المؤرخ الاشبيلي الونسو مورجادو، الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي، في بعض بيوت اشبيلية: «وللابهاء التي لا تخلو منها دار أرضية من الاجر المحكوك ويكسوها الأغنياء بالزليج ويحيطونها بأعمدة الرخام وكانوا يعنون كل العناية بتنظيفها. وكثيرا ما تغطى هذه الابهاء بظلات من النسيج في الأوقات التي تشتد فيها الحرارة. فيلطف الزليج والرخام من حرارة المكان.

وأكثر من هذا كانوا ينصبون نافورة مياه في وسط الابهاء ويغرسونها بأجود الأشجار. أما البيوت التي يتعذر على أصحابها عمل ذلك فقد كانوا يستغنون عن ذلك بآبار المياه. وكانت بالاحياء التجارية في الاندلس دور صغيرة تتكون من طابق واحد وأحيانا من غرفة واحدة تعلو أحد الحوانيت التجارية. وكان يصعد الى هذه الغرف العليا عن طريق فتحة بجدار الحانوت يخرج منها درج يصل بين الحانوت والغرفة. وكانت هذه الغرفة تستقبل الضوء من منافذ صغيرة تشبه منافذ السهام في الأسوار والقلاع. وكانت هذه الغرف تسمى «بالمصاري» جمع مصرية. وما زالت اللغة الاسبانية تحتفظ بهذا الاسم العربي.

وتذكر الوثائق الاسبانية التي تبعت سقوط المدن الاسلامية بمناسبة توزيع الدور الأندلسية على الفاتحين الاسبان ان كثيرا من هذه الدور كانت تشتمل على اصطبلات ومطابخ ملحقة بفناء الدار. ومن أمثلة الدور الاسلامية التي بقيت في بعض المدن مثل مدينة غرناطة دار اسلامية حفظت حتى أواخر القرن الماضي. وكانت تتكون من بهو مربع طول ضلعه خمسة أمتار تحيط به غرف. وبكل من الجانبين الشمالي والجنوبي ممر يطل على البهو بثلاثة عقود ترتكز على أعمدة والزخارف التي تكسو هذين الجانبين زخارف جصية هندسية ونباتية بينها عبارات «لا غالب الا الله»، لا إله الا الله، وهي محفورة في الجص. وكان باب الدار في الجدار الشمالي المطل على الفناء تعلوه ثلاث نوافذ أقواسها نصف دائرية وتكسو هذه النوافذ شبكات جصية من الزخرفة الهندسية وتشغل الفراغ بين النوافذ زخرفة نباتية غاية في الجمال. كما يحيط بالنوافذ اطار مستطيل به افريز كتابي تتكرر فيه عبارتا «العزة لله». «البقاء لله».

وصف لنا جين روبلز في كتابه «مالقه الاسلامية» دارا ترجع الى عصر بني نصر فذكر انها مستطيلة الشكل تتكون من طابقين ومدخلها في الواجهة وفي وسطها بهو مكشوف تحيط به أروقة مسقوفة تطل على هذا البهو ببائكات من ثلاثة عقود ترتكز على أعمدة وتتوزع الحجرات على هذه الأروقة . وكانت تسقف هذه الحجرات لوحات خشبية تتخذ شكل هرم ناقص. أما فتحة الباب فهي على شكل عقد متجاوز تحيط به تربيعة من الاجر.

فحص مدينة الجزائر

(نوعية الحياة الاقتصادية والاجتماعية عشية الاحتلال)

ناصر الدين سعيدوني

يتشكل فحص مدينة الجزائر من المنطقة الشرقية لاقليم الساحل التي تؤلف في حد ذاتها حاجزا طبيعيا بين ساحل البحر وسهل متيجة الأوسط بأوديته وهضابه العديدة التي يبلغ أعلى ارتفاع لها عند قمة جبل بوزريعة 417 م.

وتقدر المساحة الاجمالية لفحص مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني بحوالي ثلث مساحة اقليم الساحل كله [1]، أي ما لا يقل عن 150 كلم²، وهو بهذه المساحة يمتد الى ما يزيد على اثني عشر كيلومترا عن أسوار مدينة الجزائر [2]، فيتاخم من جهة الجنوب والجنوب الغربي وطن بني خليل ومن ناحية الشرق وطن الخشنة، أما من جهة الجنوب الشرقي فيحاذي وطن بني مسوس [3].

ويمكن أن نقسم فحص الجزائر الى ثلاث مناطق متمايزة حسب الطرق الرئيسية المؤدية اليها والأبواب التي تنفتح عليها. فهناك المنطقة الشمالية التي يرد ذكرها في وثائق الوقف باسم فحص باب الوادي وهي تضم النواحي التالية: السد، أبي النور، الرملة، المنية، واد قريش، أكمان ، قامة الفول، بوسكور، بوزريعة، عين السخاخنة، بير طرارية، تاقليت. وهناك أيضا المنطقة الجنوبية أو الوسطى التي تعرف بفحص الباب الجديد، والتي تشتمل على البقاع التالية: الابار، عيون حيدرة، بير الدروج، عين بن عطية، برج حسن باشا، سيدي يحيي الطيار، القادوس، أجنان عين الزبنوجة، الوادي الأكحل، وادي الرمان، بني مسوس.

أما المنطقة الثالثة وهي الجهة الشرقية التي يمر بها الطريق السلطاني ، الذي يربط مدينة الجزائر بشرق البلاد عبر قنطرة وادي الحراش. وتشير اليها الوثائق عادة بفحص باب عزون، فهي تتكون من الأماكن التالية: تاجرارت، عين الربط، عين الأزرق، الحامة، عين الرمانة، تلاواملي، كهف النسور، العناصر، منزل المحلة، رأس تافورة، تيفولت، الصنائجة، عين السلطان، الوشاحية، عين العجلة، بير مراد رايس، بئر الخادم، القبة، تقصرين.

ومما يلاحظ ان حدود فحص مدينة الجزائر لم تكن قارة، كما ان مساحته لم تكن محددة، فقد تمتد في فترات الرخاء، وعند استتباب الأمن وأثناء تزايد السكان الى جهات أخرى. مثل نواحي دالي ابراهيم والعشور والسحاولة والدرارية والخريسية وزمام بني ربيعة من وطن بني خليل. وقد تنكمش نتيجة الأوبئة الفتاكة والمجاعات المهلكة، ومن جراء القحط والجراد والزلازل التي اشتدت وطأتها منذ أوائل القرن الثامن عشر، فلا تتجاوز دالي ابراهيم من الجهة الجنوبية الغربية وبئر الخادم من الجهة الجنوبية الشرقية والقبة-وحسين داي من ناحية الشرق.

وعلى كل فان الفترة الأولى من الحكم العثماني للجزائر امتازت بشيوع العمران وتطور الزراعة بفحص مدينة الجزائر، وكان ذلك نتيجة للظروف الملائمة المتمثلة في أرباح الجهاد البحري التي مكنت كثيرا من الحضر والأتراك حيازة الضياع خارج مدينة الجزائر والانتقال اليها، بعد أن ضاقت المدينة بجماعات الاسرى والعبيد، كما كان لنشاط المهاجرين الأندلسيين دخل كبير في ازدهار فحص الجزائر في هذه الفترة، اذ يعود اليهم الفضل في استصلاح الأراضي بسهل الحامة، وغرس الأشجار المثمرة بنواحي بئر الخادم وبئر طويلية والثغريين حيث أصبحت أغلب الأراضي الزراعية بهذه الجهات ملكا لأفراد الجالية الأندلسية(٤). وهذا الازدهار العمراني والتطور الزراعي هو الذي دفع الرحالة ورجال الدين الأوروبيين الى ذكر أرقام قد يجد فيها الدارس للأوضاع الاقتصادية تجاوزا للحقيقة وميلا الى المبالغة، فهايدو مثلا يذكر أن فحص الجزائر كان يشتمل على 1000 بستان(٥)، والأب دان يسجل أن الجهات القريبة من الجزائر تتوفر على 18000 مزرعة(٦).

بعد هذا لم يلبث فحص الجزائر ان فقد ازدهاره ، وتردت أوضاعه

الاقتصادية منذ أواخر القرن 18، وذلك نتيجة سوء تصرف الحكام، وانعدام الأمن، وشيوع الاضطراب ، الذي ارتبط بظهور الامراض الفتاكة والآفات الطبيعية المدمرة. ومن أهم الأوبئة الفتاكة التي تسببت في افقار فحص الجزائر من سكانه تلك التي حدثت أثناء السنوات التالية : 1787 و1812 و1816 و1819 و1822. والتي زادت وطأتها بفعل الآفات الطبيعية كزحف الجراد (1722 – 1794) واشتداد الجفاف 1800 و 1804)، وحدوث الزلازل المدمرة أثناء سنوات 1716 و 1717، 1755(٧). وكانت النتيجة المباشرة لهذه الكوارث الطبيعية والأمراض الخطيرة تشتت وهلاك كثير من سكان فحص الجزائر، واشتداد الضائقة الاقتصادية بفعل غلاء الأسعار وشح الأقوات واتلاف المزروعات.

وبذلك لم يعد فحص الجزائر منطقة كثافة سكانية(٨)، بعد أن تناقص سكانه وبقيت مساحات كبيرة منه بدون استغلال، وتحول جزء هام من ملكياته الى مؤسسة الأوقاف، في وقت لم يعد يتجاوز فيه عدد البساتين ألفي بستان بما فيها بساتين منطقة الساحل ومتيجة(٩)، ولم يزد فيه عدد سكان مدينة الجزائر.

ومع هذا التقهقر العمراني والانكماش الاقتصادي الذي عرفه فحص الجزائر أواخر العهد العثماني فان المظهر العام لفحص الجزائر عشية الاحتلال كان يتميز بمنازله الريفية التي تحيط بها الأسوار العالية(١١) وتنتشر حولها البساتين والحدائق، وقد أثر هذا المنظر في بعض الكتاب الفرنسيين المصاحبين للجيش الفرنسي الغازي عام 1830، فوصفوا الفحص بأنه من أكثر جهات العالم انشراحا وبهجة(١٢)، وأبدوا اعجابهم بتلك المنازل الريفية التي كانت تنتشر على المنحدرات المواجهة للبحر بفحص باب عزون، أو بأعالي بوزريعة وهضاب الأبيار ومصطفى والقبة، أو في منعرجات أودية بئر الخادم وبير مراد رايس، أو بجهات دالي ابراهيم وتقصرين(١٣) ومن أهم تلك المنازل والضياع التي كانت مثار أعجاب القادة الفرنسيين عام 1830 نذكر: ضيعة الداي التي شيدها الداي بابا حسن في أوائل القرن 18، على مسافة 1500 م شمال باب الوادي، وسخر لخدمتها بعض الاسرى المسيحيين(١٤)، والدار الحمراء بالأبيار، التي كان يقطنها في القرن 17 م كل من علي رايس و صالح رايس، وأصبحت قبل الاحتلال من أملاك حسين داي، الذي أوكل تسييرها الى القنصل الانكليزي روبيرت سان جون. وكذلك جنان رايس حميدو بالابيار الذي اتخذه دو

بورمون مؤقتا مقرا لقيادته وأمضى في احدى حجراته معاهدة تسليم مدينة الجزائر. كما نذكر من المعالم العمرانية بفحص الجزائر دار حسين داي ودار بن سحنون ودار بن شكيكن ودار القائد أحمد، وجنان المفتي، ودار الآغا، ودار الضياف. ودار الأمير عمار، ودار بن رضوان، ودار قايد الباب ودار عبد اللطيف ودار محي الدين ودار الكرغلي ابراهيم، ودار حسن باشا ببئر الخادم، ومنزلة المحلة بعين الربط(15).

وعلى كل فان الحياة الاقتصادية والاجتماعية بفحص الجزائر كانت تتأثر بعدة عوامل مختلفة منها الوسط الطبيعي والعنصر البشري والتنظيم الاداري وطبيعة الملكية ونوعية الانتاج.

فمن حيث الوسط الطبيعي كان فحص الجزائر يتوفر على كل الشروط المساعدة على الاستقرار البشري والتطور الزراعي، فالمناخ صحي رطب معتدل(16) عكس سهل متيجة الذي ترتفع فيه نسبة الرطوبة وتنتشر به المستنقعات التي تسببت في اصابة السكان بحمى المستنقعات، ويضاف الى هذا ان تربة فحص الجزائر تتميز بخصوبتها لا سيما ما يقع منها ببطون الأودية أو عند السفوح، بخلاف تربة الساحل الخفيفة المغطاة بالأعشاب والشجيرات البرية، وتربة متيجة العميقة السيئة الصرف الضعيفة التهوية. على أن أهم ميزة طبيعية لفحص الجزائر هي ثروته المائية الضخمة التي تسد حاجة مدينة الجزائر من المياه وتوفر ماء السقي الضروري لحدائق وبساتين الفحص(17)، فضلا عن انها تعتبر وسيلة اقتصادية ملائمة لتشغيل مطاحن الحبوب المقامة على نهر الحراش ووادي المغاسل. وتتوزع هذه المصادر المائية على العديد من العيون الطبيعية التي ناهز عددها 24 عينا اشتهرت منها عيون : الزنبوجة، وتلاوملي، وبرج مولاي حسن، والحامة، والازرق، والسلطان(18). وعلى بعض الآبار الغزيرة مثل الابيار وبير طويلة وبير مراد رايس، وبئر الخادم، هذا بالاضافة الى الأودية الطبيعية التي ينبع أغلبها من مرتفعات الفحص. ويصب في خليج الجزائر مثل وادي المغاسل، الذي يصب شمال المدينة، ويسقي فحص باب الوادي، ووادي كنيس، الذي تشح مياهه صيفا، ويسقي جهات بئر مراد رايس، ونواحي الحامة الشرقية، ووادي الأكحل، فضلا عن وادي الحراش، الذي يفصل بساتين الفحص عن أحواش متيجة.

أما العنصر البشري باعتباره عاملا يؤثر على أوضاع الفحص الاقتصادية

والاجتماعية فهو يتصف بتعدد طوائفه واختلاف أصوله، فهناك بعض الأفراد من الاتراك وجماعات من الكراغلة والحضر وبعض النصارى الذين كانوا يحتكرون ملكية منازله وبساتينه، وهناك جماعات من العمال الريفيين ينتسبون الى قبائل متيجة أو عشائر جرجرة يتولون خدمة الأرض مقابل أجرة زهيدة لا تتعدى خمس الانتاج وهم يعرفون بالبحارين أو الخماسين، وفي بعض المزارع يستغنى عنهم ويعوضون بجماعات من الأسرى المسيحيين(19). ويلحق باعمال الزراعيين بالفحص بعض الفرق من القبائل التي كانت تقيم عادة عند حدود الفحص وتضع نفسها في خدمة آغا العرب، وتستأجر بعض أفرادها للعمل في مزارع الفحص، ومن هذه الفرق التي كانت همزة وصل بين أوطان متيجة ومنطقة الفحص نشير الى أولاد سوالة والدوايرية وبني عربية وأولاد سرياح بجهات القادوس وبني مسوس وزواوة بناحية الشراقة وأولاد قايد والشراقة بالجهات الوسطى من الفحص وبعض العشائر من بني منديل بالنواحي الجنوبية من الفحص(20).

هذا ويخضع سكان الفحص الى سلطة آغا العرب (آغا الصبايحية) المتحكم في قيادات الساحل وأوطان متيجة، وينوب عنه في المحافظة على النظام وتطبيق الأحكام موظف صغير يعرف بقائد الفحص أوكلت له صلاحية القيام بتنفيذ عمليات الغزل والتغريم وتصفية التركات ومراقبة المقابر وكان يعاضده في عمله هذا رجال مسلحون يعرفون بشرطة الأعياد يسخرون عادة في تنفيذ العقوبات التي يأمر بها آغا العرب عند باب عزون(21)، وهذا ما جعل لفحص الجزائر وضعا اداريا خاصا به يميزه عن بقية أقاليم الايالة الجزائرية.

هذا وقد نتج عن هذا الوضع الاداري الخاص والتركيب السكاني المتميز والشروط الطبيعية الملائمة، أن أصبحت طبيعة الملكية وعلاقة الانتاج ونوعية المحاصيل تتصف بالخصائص التالية :

1) أصبحت أغلب الأراضي الزراعية بالفحص في حوزة بورجوازية محلية تتألف من الموسرين من الاتراك والحضر والكراغلة واليهود وبعض التجار والقناصل الأوروبيين، الذين أقاموا المنازل الريفية، التي لا تختلف في شيء عن منازل المدينة(22)، وأنشأوا الحدائق الغناء فاختار القناصل الأوروبيون مقر اقامتهم بأعالي

باب الوادي ومرتفعات برج مولاي حسن، وفضل اليهود نواحي بوزريعة مكانا لتجمعهم[23]، بينما استقر الحضر من أصل أندلسي بناحية تاقرين وبئر الخادم، في حين انتشر الكراغلة بنواحي الحامة وبير مراد رايس والابيار وباب الوادي، تاركين الأراضي الواقعة على مشارف المدينة أو الكائنة ببطون الأودية بدون استغلال[24]، لينتفعوا بها في الرعي، ولتكون مصدرا للتزود بالأخشاب كما هو الشأن بمنحدرات بوزريعة الشمالية والغربية، وهضبة أوسطا علي، التي كانت تغطيها الأدغال وتنتشر بها النباتات البرية وأشجار النخيل القزمية[25].

2) تعرضت جماعات العمال بالفحص من خماسين ومحارين وأسرى الى الاستغلال من طرف هذه الطبقة الموسرة، فساءت العلاقة بين المالكين للأرض والعاملين فيها، فرغم أن غنى مالكي الفحص وازدهار الزراعة به كانت نتيجة الأعمال المضنية والمجهودات الشاقة التي بذلها العمال والعبيد الا أن أغلب المالكين لأراضي الفحص كانوا يعاملون مستأجريهم معاملة قاسية وينظرون اليهم نظرة احتقار وازدراء، فحمدان خوجة الذي كانت عائلته من مالكي أراضي الفحص يصفهم بأنهم مجبولون على الكسل والنذالة والخيانة والحقد والدسيسة وبأنهم يحتاجون من أجل عيشهم الى اعانات يجود بها عليهم مالكو هذه الأرض[26].

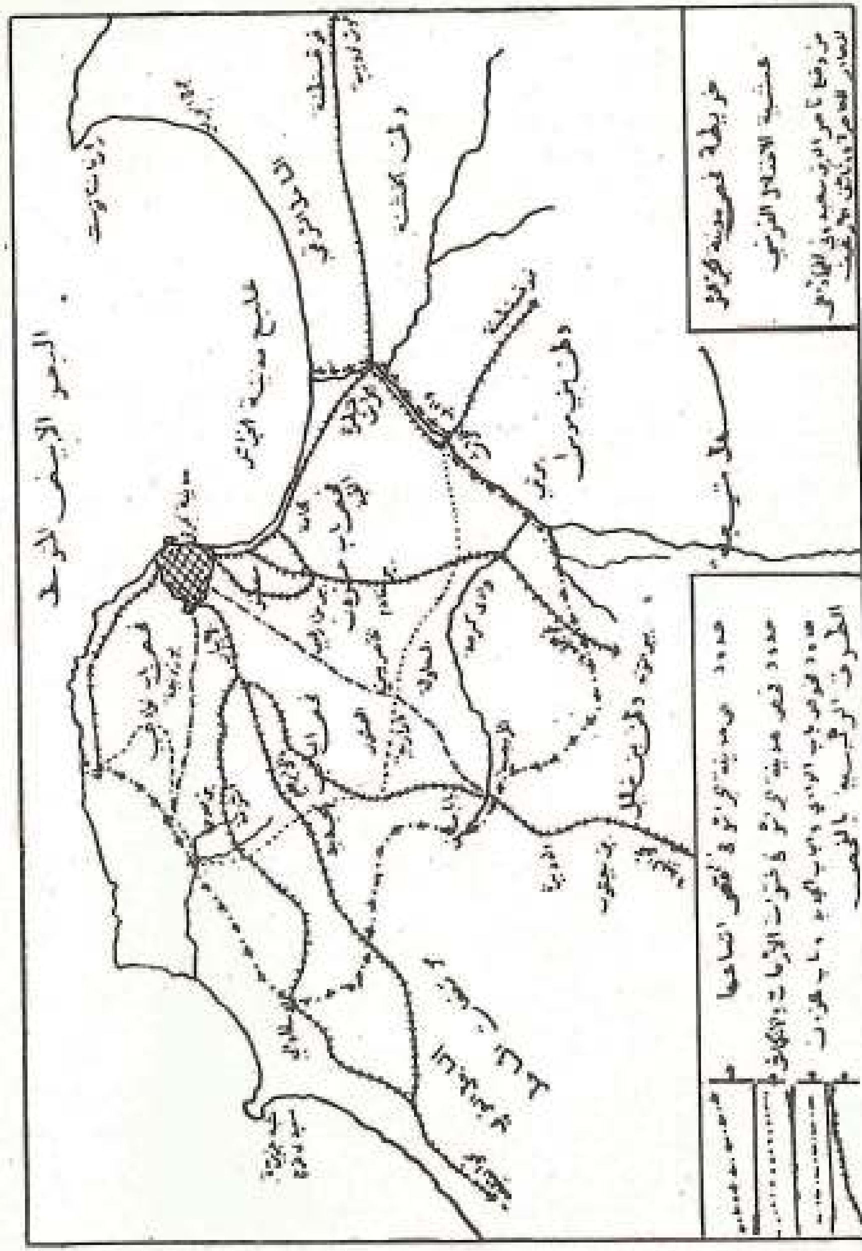
3) اختلفت الملكيات المشاعة بالفحص وتلاشت وحدة القبيلة[27]، لتحل محلها جماعات من السكان ذات أصول حضارية وانتماءات عنصرية مختلفة، وأصبحت الزراعة تمارس في حدود ملكيات صغيرة لا تتجاوز مساحة الواحدة منها 28,40 آرا[28]، وهذا عكس ما كانت تتميز به الأقاليم الأخرى حيث تؤلف القبيلة أساس التنظيم الاداري وقاعدة البناء الاجتماعي وحيث تشكل الأحواش الكبيرة للبايليك والأراضي القبلية المشاعة قاعدة نظام الملكية التي لا تستند الى العقود، وانما تعتمد على العرف والتقاليد. ولقد أثار هذا الوضع المميز للملكية بالفحص تساؤل كثير من الفرنسيين عند احتلال الجزائر والمناطق المحيطة بها، وذهب كثير منهم الى التشكيك في صحة عقود الملكية وأحكام الوقف التي كانت تخضع لها أراضي الفحص، بعد أن لاحظوا ان هذه العقود وتلك الأحكام كانت خير وسيلة مكنت العديد من الاتراك من أن يحتفظوا بملكياتهم بالفحص بعد أن تعرض الكثير منهم الى الطرد من أملاكهم بالمدينة[29].

4) اشتهر فحص الجزائر بانتاجه لمختلف أنواع الخضر والفواكه، تستدل على تنوعها بذكر الأصناف التي أوردتها المسافر الفرنسي توماس، في وصفه لبستان ابراهيم الكرغلي . عند زيارته له: وهي البرتقال والليمون واللوز والعناب والرمان والتين والتفاح والخوخ وحب الملوك والتوت الأبيض والأحمر والمشمش، بالاضافة الى مختلف أنواع الزهور كالياسمين وأصناف الخضر. ولعل أحسن بساتين الفواكه بالفحص تلك التي كانت في حوزة القناصل الأوروبيين الذين استطاعوا أن يطوروا زراعة البرتقال والعنب التي لم يقبل الأهالي على تقليد الطرق المتبعة في زراعتها[30].

بهذه المزروعات استطاع الفحص أن يسد حاجة سكان مدينة الجزائر من الخضر والفواكه، في وقت كانت فيه سهول متيجة ومرتفعات الساحل وباقي الاقاليم الأخرى تستغل في زراعة الحبوب وانتاج الزيت والشمع والعسل والصوف والجلود والأخشاب، التي كانت في أغلبها موجهة للتصدير الخارجي وليس للاستهلاك المحلي، ومما يلاحظ أن فحص الجزائر كان يتوفر على مساحات كافية للرعي ومناطق ملائمة للتزود بالأخشاب، مما مكن مدينة الجزائر من سد حاجتها من المواد الغذائية وساعد كثيرا على استقرار حكم الدايات.

(1) C. Rousset, l'Algérie de 1830 à 1840, les commencements d'un empire, 3ème éd., Paris, Plon, 1900, t. I.
(2) P. Boyer, L'évolution de la démographie des populations musulmanes du département d'Alger 1830-1948, in Revue Africaine, 1954, p. 311.
(3) L. Rinn, La carte du Royaume d'Alger sous le dernier Dey, in Revue Africaine, t. 41-43, 1897-1899.
S. Ben Cheneb, Un acte de vente drèssé à Alger...... in Revue Africaine, t. 89, 1945, pp. 287-290.
(5) D. Diego de Haëdo, Histoire des Rois d'Alger trad., H.D. de Grammont, Alger, 1881.
(6) Le Père Dan, Histoire de Barbarie et des corsaires des Royaumes et des villes d'Alger de Tunis de Salé, Paris, 2ème éd., rocde, 1637, p. 87.
(7) Marchika, La peste en Afrique septentrionale, Alger, J. Carbonel, 1927, p. 151.
— Boutin
— P. Boutin, Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger pub. par G. Esquer, Paris, 1927, pp. 68-69.
(8) P. Boyer, op. cit., p. 311.
(9) Payssonnel et Desfontaine, Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, pub. par M. Durcaud de la Malle, Paris, 1838, t. I.
(10) M. Emérit, Un document inédit sur Alger, t. 17, 1959, p. 237.
(11) G. Esquer, Les commencements d'un empire: la mrise d'Alger 1830, Paris, la Rose, 1929, p. 353.
(12) C. Rousset, op. cit., t. I, p. 24.
(13) A.J. Blanqui, Alger; rapport sur la situation économique de nos possessions dans le monde de l'Afrique, Paris 1840, p. 10.
— Bernard, Voyage pour la rèdemtion des captifs en 1720, Paris, 1721.
(14) Bouton, op. cit., p. 43.
(15) H. Klein, Feuillets d'El-Djazair, coll. des cahiers du comité du vieil Alger, t. VII, 1914, pp. 37, 44, 47, 84, 104, 105.
(16) Dr. Bonnafont, Géographie médicale d'Alger et ses environs, Alger, Brachat et Bastide, 1839, p. 20.
(17) A. M. Perrot, Alger: esquisse topographique du Royaume et de la ville, Paris, 1830, p. 36.
(18) Dallouni, Le problème de l'alimentation en eau potable de la ville d'Alger, in Bull. de la société de géographie d'Alger, 1928, pp. 6-8.
(19) J. Morgan, Histoire des états barbares ques qui exercent la piraterie, Alger, Tunis, Tripoli et Maroc, trad, par Boyer Brebaudie, Paris 1757, t. I, pp. 306-307.
— Kokoutsov, Description de l'archipel et de la cote barbaresque, trad., par Carnard, in Revue Africaine, t. 95, 1951, p. 213.

(20) Announi, Les populations rurales musulmanes du Sahel d'Alger, in revue Africaine, t. 67, 1953, pp. 375-376.
(21) Tachrifat: Receuil de notices historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, publ., par A. Devoulx, Alger, 1952, p. 22.
(22) Morgan, op. cit., t. I, p. 306.
(23) Ab. Cahen, Les juifs de l'Afrique septentrionale, Constantine, 1867, p. 97.
— Klein, op. cit., t. III, p. 54.
(24) Announi, op. cit., p. 376.
— Boudicour, De la colonisation de l'Algérie, Paris, 1856, p. 37.
(25) R. Lespes, Alger, esquisse de géographie urbaine, Alger, carbonel, 1930, p. 176 (cité par dallouni, op. cit., p. 177).
(26) حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري، الجزائر، 1975 ص 87.
(27) Isnard, La réorganisation rurale dans la Mitidja 1846-1867, Alger, Jourdan, 1948, p. 15.
(28) Emérit, Le voyage de la condamine à Alger 1731, in revue Africaine, t. XIVIII, 1954, p. 369.
(29) Ch. Raynal, La domination française en Afrique, Paris, 1832, p. 88.
(30) Laugier de Tassy, Histoire du Royaume d'Alger et du bombardement de cette ville en 1816, Paris, pilton 1830, p. 195.



رسالة من العنتري القسنطيني الى المترجم فـيرو

أبو القاسم سعد الله

من منّا من قرأ شيئا عن تاريخ قسنطينة ولا يعرف اسم محمد الصالح العنتري؟ لقد لعب العنتري في الحياة الثقافية بعد الاحتلال الفرنسي لقسنطينة سنة 1837 دورا يجعله جديرا بالذكر في تاريخ القرن التاسع عشر، وان كان دورا قد لا يرضى عنه جميع الناس. وهذه الرسالة التي ننشرها له اليوم تعكس جانبا من هذا الدور وتلقي بعض الضوء على علاقات العنتري بالفرنسيين.

وأسرة العنتري قديمة في تاريخ قسنطينة(1). فنحن نجد أحمد العنتري الذي قد يكون جدا لصاحبنا،كاتبا في خدمة صالح باي أواخر القرن الثامن عشر. ونجده مرافقا له أثناء حملة أوريلي (1775) على الجزائر،وهو يترك لنا أخبارا مكتوبة عن هذه الحملة وعن بلاء صالح باي فيها(2). واذن فان خدمة آل العنتري للدولة تعتبر أمرا واضحا وارتباطها بالأعمال الادارية والكتابة الديوانية لا يحتاج الى دليل.

(1) من أقدم الكتب المخطوطة التي تعرضت لتاريخ العائلات بقسنطينة كتاب (منشور الهداية) لعبد الكريم الفكون، ولكننا لا نجد فيه ذكرا لعائلة العنتري. والملاحظ ان هذا الكتاب ألفه صاحبه في القرن السابع عشر الميلادي.

(2) كان أحمد العنتري موظفا لدى صالح باي، وكان ممثلا له لدى الشركات الاوروبية في عنابة. وقد كتب خلاصة عن حملة الاسبان على الجزائر بقيادة أوريلي سنة 1775، ويبدو أن فيرو قد حصل على نسخة من هذا العمل وترجمه ونشره في مجلة Recueil des notes et mémoires سنة 1866 ص 1ـ16، وهي المجلة التي كانت تصدر بقسنطينة.

وقد ولد محمد الصالح في أحضان هذه المهنة ، فأبوه محمد العنتري كان أيضا من الموظفين عند الحاج أحمد، آخر بايات قسنطينة. وانه لمكانته لديه بعثه لمفاوضة الفرنسيين، ولكن الوشاة، كما يقول ابنه محمد الصالح، كانوا السبب في مقتل والده متهمين له بأخذ الرشوة من الفرنسيين لتثبيط عزائم المسلمين. وقد روى ابنه ذلك في شيء من التأثر والنقمة على الحاج أحمد باي وعهده.

وكثيرا ما كانت الوظائف سببا في البغضاء والشحناء بين العائلات . ولو كانت عائلة العنتري قد وجدت في الحاج أحمد ما وجدته في صالح باي لما مال محمد الصالح الى الفرنسيين ضد باي قسنطينة. ولكن الجهل بنوايا الفرنسيين وضعف الايمان الديني والوطني جعلا محمد الصالح يختار الفرنسيين ويحلف انه لن يخونهم [3].

توظف محمد الصالح العنتري الذي يبدو أنه كان ما يزال صغير السن [4] وقت دخول الفرنسيين الى قسنطينة (1837) ، عند الفرنسيين وأصبح كاتبا لدى (المكتب العربي) الذي أنشئ وسط مدينة قسنطينة تحت مسؤولية الضابط بواسوني. وكان العنتري حسن الخط متدربا على الاعمال الادارية والقلمية بحكم الوراثة. ويبدو أنه كان ذكيا ماهرا في العلوم العربية منذ شبابه، كما تدل على ذلك كتاباته المبكرة، ويبدو أيضا أنه كان ولوعا بالاخبار والتواريخ ، ولا سيا أخبار الشرق الجزائري والعهد العثماني به.

ولا ندري أين تلقى العنتري تعليمه وثقافته. فهو قلما يذكر شيوخه في كتاباته التي لدينا. ولكن يبدو أنه، كزميله سي الشاذلي القسنطيني، من تلاميذ الشيخ أحمد العباسي، الذي كان عالما وقاضي المدينة مدة طويلة، وكان ذائع الصيت لعلمه وورعه. ولعل العنتري تلقى العلم عن غير العباسي أيضا من أمثال علي الونيسي، وعمار

---

(3) انظر تاريخ قسنطينة طبع فاند، قسنطينة 1846، وهو مطبوع على الحجر، وكذلك أحمد الانبيري (علاج السفينة في بحر قسنطينة) الذي درسناه في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، ط. 2، 1981، ص 329. وكذلك كتاب (فريدة مؤنسة) تحقيق أحمد سيساوي، قسم التاريخ جامعة قسنطينة، دبلوم ، غير منشور، ص 227.

(4) لا ندري متى ولد محمد الصالح العنتري ولا متى توفي. ولكننا ندري أنه كان سنة 1844 رجلا ناضجا، ألف تقويما سماه (هدية الاخوان)، و(تاريخ بايات قسنطينة)، وندري أنه كان ما زال حيا سنة 1876، كما جاء في الرسالة التي نحن بصددها، ونعتقد أنه من مواليد العشرية الأولى من القرن التاسع عشر.

المغربي ، ومحمد بن عبد الرحمن باش تارزي. ولا تدل الوثائق التي لدينا أن العنتري قد ذهب الى جامع الزيتونة للتعلم أو اعتنق التصوف.

كانت مهمة العنتري بالمكتب العربي اذن هي تحرير المكاتبات باسم بواسوني وغيره الى أعيان المدينة والى قواد النواحي وحفظ المستندات وصياغة كل ما يصدر عن هذه المؤسسة الخطيرة التي هي عين فرنسا على الأهالي. ولعله كان يحرر أيضا وقائع المحكمة الاسلامية التي كانت هي أيضا بمقر المكتب العربي المذكور، ولم يكن العنتري مجرد موظف عادي، ذلك أن أنظار بواسوني قد توجهت اليه، دون غيره، في أمور، منها أنه طلب منه تحرير (تقويم) على طراز خاص يذكر فيه وقائع وأفكارا تهم الفرنسيين في علاقتهم بالأهالي، كما طلب اليه كتابة عمل عن تاريخ الحكم العثماني في قسنطينة، ولا شك أنه طلب أيضا معونته على اللغة العربية ونسخ بعض الكتب التي يحتاجها مثل (الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية) لابن القنفذ ، الذي نشره بواسنوي. ومما يساعد على هذه المهمة ويدخل في نطاق هذه المهنة أن العنتري كان حسن الخط ، ومن توابع ذلك جودة الهندام والفطانة الاجتماعية ولطافة المعشر.

ولا نعرف الآن ان العنتري قد ألف أكثر من ثلاثة أعمال:

1) هدية الأخوان :

ظهر هذا الكتاب في فاتح السنة الميلادية (1847). ولا شك أنه كان بوحي من بواسوني الذي أراد أن يؤسس تقليدا أوروبيا بين المسلمين وهو اصدار (تقويم) فيه من كل عشبة زهرة: أخبار في العلم، والدين والسياسة والأحداث الجارية والآداب، وهلم جرا.. وما دام لكل شيء هدف، فان هدف بواسوني من نشر هذا التقويم هو اشاعة بعض الأفكار الفرنسية بين الأهالي وبعض التعاليم المسيحية والتقريب بين الفرنسيين والأهالي بضرب أمثلة على التعاون ، كالتعاون الفرنسي – المصري، الذي كان جاريا آنذاك (في عهد محمد علي باشا)، وتحرر علماء الدين المسلمين كمقولات الشيخ حسن العطار (شيخ الأزهر عندئذ) في الفرنسيين، الخ. وقد اشتمل (هدية الاخوان) أيضا على اشعار للشيخ سي الشاذلي القسنطيني وغيره،

في مدح الفرنسيين وبلادهم[5]

2) الفريدة المؤنسة (أو تاريخ بايات قسنطينة) :

وقد قام العنتري بكتابة هذا العمل بتكليف من بواسوني أيضا. ويبدو أن العنتري كان يملك وثائق كثيرة عن عهد البايات في قسنطينة، ربما وثائق عائلته التي كانت، كما أشرنا، في خدمة صالح باي وأحمد باي، والتي كان لها اهتمام واضح بالتواريخ. ومهما كان الأمر فان محمد الصالح العنتري قام بهذه المهمة خير قيام وكتب عملا ما يزال مرجعا أساسيا في تاريخ قسنطينة. ولو لم يكن لدى العنتري ذلك الاستعداد الفطري لكتابة التاريخ وتوفير مصادره لما استطاع القيام بتلك المهمة. وقد كان في قسنطينة عندئذ من هم أعلم منه بمفهوم ذلك الوقت، ومع ذلك لم يقم أحد منهم بمثل ما قام به[6]. يضاف الى ذلك أن عمل العنتري قد استغله واستعمله الفرنسيون الذين كتبوا عن قسنطينة، مثل فايسات وميرسييه[7]. ومع ذلك لم ينصفوه بالتنويه به، كعادتهم. فقد كان كثير منهم يستكتبون علماء ومثقفي العرب المسلمين الجزائريين ثم ينسبون أعمالهم لأنفسهم، أمثال الضابط لويس رين، والعالم والاداري لوسياني، وكثيرون غيرهم.

3) مجاعات قسنطينة (أو رسالة القحط) :

وهي تأليف صغير ألفه العنتري أيضا بتكليف من فرنسي آخر هو دلير. وقد تحدث فيه عن الأحوال الاقتصادية في آخر العهد العثماني وأوائل العهد الفرنسي، مع

---

(5) عنوانه كاملا هو (هدية الاخوان في موافقة التاريخين وتوقيعات الزمان وفوائد متفرقة لها شان)، أنظر عنه كتابنا (القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني)، الجزائر، ط 2، 1985. أنظر أيضا ما قاله عنه (المجلة الأسيوية) عدد 10 (سنة 1847) ص 259ـ262. قارن ذلك بما نشرته هذه المجلة (أي المجلة الأسيوية) عن كتاب رفاعة الطهطاوي المصري (تلخيص الأبريز)، وذلك في عددها لسنة 1833، ص 222ـ251. وكذلك نفس المصدر، سنة 1831، ص 534ـ535.

(6) نشير هنا الى (تاريخ حاضرة قسنطينة) لأحمد بن المبارك المعروف بالعطار، الذي كان معاصرا للعنتري، والذي كان قد كتب عمله بطلب من بواسوني أيضا. وقد قام بنشر هذا الكتاب نور الدين عبد القادر سنة 1952 ثم رابح بونار سنة 1971 (؟) كما قام دورنون بترجمته الى الفرنسية ونشره سنة 1913.

(7) قام أحمد سيساوي من جامعة قسنطينة بتحقيق هذا الكتاب (أي تاريخ بايات قسنطينة)، ونال به دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ سنة 1981.

مقارنة لكلا العهدين. وكان رأي العنتري في هذا التأليف قد نضج. ولم يعد في نفس الاندفاع الذي كان عليه يوم احتلال بلاده عندما كان ما يزال يافعا ينظر الى ظواهر الأمور وليس الى بواطنها. واذا كنا قد اطلعنا على عمليه السابقين في حرف المطبعة فاننا اطلعنا على عمله الثالث بخط يده[8].

ولا شك أن للعنتري رسائل كثيرة شخصية، في أغراض شتى، موجهة الى مختلف الادارات والأشخاص. واذا كنا الآن قد عثرنا[9] على واحدة فقط، فليس معنى ذلك عدم وجود أخريات منها. ان ما يلفت النظر في هذه الرسالة عدة أمور :

1 ـ انها مكتوبة في أواخر عمر صاحبها، اذ هي مكتوبة بتاريخ 1876.

2 ـ انها تتضمن شكوى مريرة ليس فقط من أعمال «أصدقائه» الفرنسيين له بل من علاقاته بالفرنسيين عموما، وتتضمن كذلك خيبة أمل واضحة من معاملتهم له، هو وأمثاله، ممن ظنوا بهم خيرا، فاذا بهم يلفظونهم لفظ النواة، ويرمون بهم رمي الفتات.

3 ـ أنها تصور لنا حالة الفئات الاجتماعية المتصلة بالادارة الاستعمارية وتكالبها (حسب تعبيره) على المناصب والرتب والمال دون مراعاة للاخلاق والوسائل شريفة كانت أو وضيعة.

4 ـ انها تعريض صريح بسوء عدل الفرنسيين (الحكام ـ كما يسميهم) الذين يقربون ويبعدون لا على أساس الاستحقاق ولكن على أساس الولاء والترضيات.

وخلاصة هذه الرسالة، التي هي بخط العنتري نفسه، ان العنتري يكشف عن تنافس الموظفين (وهو يعني المسلمين المتصلين بالادارة الفرنسية) على المناصب رغم ما بأيديهم منها وما لديهم من الثروة، دون مبالاة بأصحاب الجاه والقدر والاستحقاق «وما ذلك الا من سقوط الهمة والتهافت على جمع المال». ومما يزيد في خيبة أمله ان الفرنسيين كانوا يساعدون على ذلك لعدم تطبيقهم العدل وأحكام الشرع وأصول الصداقة. لقد أخبر العنتري صديقه شارل فيرو بأنه كتب في أمر لم يكشف عنه الى

---

(8) المكتبة الوطنية ـ الجزائر رقم 2330. وقد قام رابح بونار بطبع هذه الرسالة بعنوان : (مجاعات قسنطينة)، الجزائر 1971.

(9) أرشيف ما وراء البحار بإيكس (فرنسا)، رقم 16 MI 31.

السيد (ابلان)[10] بالجزائر العاصمة يطلب منه مساعدته على انجازه، ولكنه لم يتلق منه ردا، رغم ما بينهما من «صداقة» سابقة «احد الأحباب المنصفين الصادقين الينا» ، وقد وجه العنتري اليه قريبا له اسمه أحمد بن الضرباني[11] يستحثه على الرد والمساعدة ، فوعده (ابلان) ولكن دون جدوى، ولذلك يئس العنتري من حصول مرغوبه منه، واكتفى بطلب وظيفة ادارية لولده، مصطفى، كمساعد (أساسور) قبائل أو شاوية، كما يقول ، وطلب من فيرو بذل الجهد في ذلك لدى (ابلان) ولدى الحاكم العام[12] ، ووعد العنتري بأنه قد يزور العاصمة من أجل ذلك متى عاد الحاكم العام من غيبته، ولكن بعد تلقيه من فيرو رسالة مشجعة على ذلك.

وقد أخبر العنتري شارل فيرو بأنه لا يطلب ذلك المنصب لولده من أجل الابهة والمفاخرة وانما من أجل سد حاجة مادية. ونفهم نحن من ذلك أن العنتري كان في ضنك من العيش وان أمثال هذه المناصب كانت تطلب للتحيّن لا من أجل مبادئ سامية وأداء خدمة وطنية أو دينية ونحوها، بل ان فكرة التفاخر بالمنصب موجودة في الرسالة، ألم يقل العنتري فيها بأنه اذا لم يحصل على ذلك المنصب لولده فانه سيحس بالمهانة بين زملائه «أهل الزيغ والاحتقار». ولا ندري من الوثائق ما اذا كان العنتري قد حصل لولده على المنصب المذكور أو مات كمدا. ومهما كان الأمر فان العنتري كلف فيرو بابلاغ السلام الى شخصين يبدو أنه كان على صلة بهما أحدهما جزائري وهو البداوي، والثاني فرنسي وهو الضابط (كوماندو) سطرول.

ومن ذلك يظهر أن لهذه الرسالة أهمية تاريخية وأدبية. فهي تكشف عن علاقات العنتري الشخصية ببعض كبراء الفرنسيين أمثال فيرو، وابلان، وسطرول.

---

(10) لا نعرف الآن ما دور (ابلان) بالضبط وما تاريخ حياته. أما شارل فيرو فقد تولى عدة مهام، منها رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية، التي كانت تسهر على (المجلة الافريقية)، ومنها انه كان المترجم الرئيسي للجيش الفرنسي في الجزائر، وقد نشر عدة مؤلفات عن الجزائر، وتولى أيضا وزيرا لبلاده في طنجة وطرابلس، وتوفي وهو يشغل هذه الوظيفة، انظر عنه (المجلة الافريقية) سنة 1914، ص 91ـ93. ولشارل فيرو ابن يعرف بالعقيد فيرو تولى قائد مركز تاوريرت... الخ.

(11) عائلة الضرباني من العائلات العلمية القديمة في قسنطينة. ولعله يقصد باسم (البداوي) السيد أحمد البدوي. الصحفي و السياسي الجزائري المعروف عندئذ.

(12) الحاكم العام عندئذ هو شانزي، الذي تولى الحكم في الجزائر من 1873 الى 1879، ثم أصبح سفيرا لبلاده في روسيا.

وتظهر العنتري في حالة المتخلف عن ركب المقربين الى السلطات الفرنسية التي نالت ما تريده منه من أوطار فبقي حاشرا يترجى ويلح في الرجاء. ويبدو أنه لم يحصل على طائل. وفي الرسالة اشارات الى ما أصبحت عليه علاقات النخبة الأهلية بالفرنسيين بعد ثورة 1871 (التي مست عواقبها العظم من أهل الشرق الجزائري)، فقد اختلفت الموازين ورمي بالصداقات عرض الحائط.

والى جانب خط العنتري الجميل فالرسالة تتضمن أسلوبا من أساليب الانشاء العربي في آخر القرن الماضي، ولا سيما الانشاء الديواني، الذي مارسه العنتري فترة طويلة من حياته. فهناك السجع الكثير ولكنه غير ظاهر التكلف، وهناك الحديث الشريف، والعبارات المحفوظة من قوالب المتقدمين في الخطاب والديباجة. ومع ذلك فان في الرسالة أخطاء لغوية واملائية مثل (المتوضفين) و(الضنون) و(مداوات) و(سخفتهم) و(الضناء)، الخ.

وأخيرا ، لا بد من ذكر أن العنتري قد وقع رسالته هكذا، الصالح بن العنتري، حرر في 25، شهر أوط، سنة 1876.

وهذا هو نصها :

الحمد لله وحده   واليه يرجع الأمر كله.

حضرة المحترم النجيب المحب الذي عمنا وداده، والصديق الذي ألّمنا بعاده، حبيبنا العزيز السيد فيرو، باش (كذا) ترجمان بحاضرة الجزائر، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والسؤال الكثير عنكم وعن صحتكم ، وأهلكم وأنجالكم، أدام الله هناكم، وحسن مساعيكم، آمين، يليه.

فن أغرب العجائب ما وقع بهاته الايام عندنا بأني ترى الناس المتوضفين (كذا)، صاروا يتنافسون ويتكالبون على أخذ المناصب زيادة على ما بأيديهم مع ما هم فيه من الغناء والثروة والجاه، ولم يلتفتوا قط لغيرهم ممن يعاينهم من ذوي الاقدار مثلهم المستحقين لتلك المناصب شرعا وطبعا، وما ذلك الا من سقوط الهمة والنهاقة (كذا) (في جمع) المال لا غير، وعليهم صدق قول الشارع عليه السلام حين قال في

ابن آدم وحرصه على الدنيا: ان ابن آدم لوكان له وادان من ذهب وفضة لتمنى ثالثا. وأغرب شيء من ذالك (كذا) مساعدة الحكام لهم على سخفتهم (كذا) ، مما يزيد في الحمق حتى أن ذالك (كذا) الفعل صار عند النصف لا يعد من الأمور السديدة، بل هو خارج عن ماهية العدل، سيا بين المستخدمين لديكم في دواوين الدولة والمنسوبين عليكم سابقا ولاحقا، فلا شك ان الله تعاى (كذا) يسأل ذالك الفاعل عن عدم تسويته لموازنة العدل بينهم مع كونهم أحباب (كذا) وكلهم في درجة واحدة.

وقولنا هذا في معنى مثل نازلتنا التي لا تخفى عنكم بداية ونهاية، فانك ترى الطالب الأول تأخرت طلبته وألغيت في كرات والطلبة المتأخرة تقدم صاحبها ونال مرامه، فهل ثم عادل ينصفنا؟ وهل من حبيب منصح يرشدنا؟ فوالله ما كانت الضنون (كذا) هاكذا (كذا) اذ كان جلّ اعتقادي من قبل اليوم وأن حبيبنا سعادة الكانده ابلان ، هو أحد الأحباب المتصفين الصادقين الينا، والساعين فيا يعود بالنفع علينا، من أول وهلة، لكونه موصوف (كذا) بذلك. وسيرته معروفة كذالك. ومنها عرفنا ما له من الطلع السليم، والقلب الحليم، اذا بي اليوم نراه قد يخلني برد الجواب، الذي هو معتاد بين سائر الأحباب، فضلا عن أن يسعى لي فيا هو أكثر من ذالك. ومع هذا فاني كتبت له جوابين في ذالك الشأن، وعرفته بحالي كما كان، وخاطبه عن ذالك قريبنا سي أحمد بن الضرباني فواعده (كذا) برد الجواب حالا مع البوشطة. ولم نره منه، ما ندري أي سبب عاقه عن ذالك، فالله يجعل المانع خيرا. مع أني نحسبه هو أقرب الأحباب لي.

أخبره الآن بذالك على التفصيل، بارك الله فيك، ولك علي جميل، وأرغب منه ما هنالك وعرّفه بأني لائم عليه كثيرا، وان فات ما طلبناه منه الان قد لا يفوت ما طلبناه منه سابقا لولدنا سي مصطفى، منصب أساسور قبايل أو شاوية لما له من اليد القادرة على ذالك وعليه وعليكم أن تجتهدوا لنا في نيله من سعادة الوالي حسبما وعدتمونا به سابقا، ان كان وعدكم معنا صادقا. واسعوا في مداوات (كذا) جراحاتنا بشفقتكم ومحبتكم من غير تأكيد منا، ولا تتركوا آمالنا مقطوعة لديكم، وأعناقنا ملتفتة نحوكم، واعلموا اني ما قصدت هذا المنصب لأجل الأبهة والافتخار، وانما قصدته للاعانة على تيسير النفقة وتسديد الأحوال، اعرفوا مني حقيقة الحال، ومن

فعل خيرا لا شك يجازيه الفاعل المختار، الذي أخرني وقرّب الأشرار، نسأله سبحانه أن ينقذني من أهل الزيغ والاحتقار بمنّه، آمين، وعليكم أتم السلام، من حبيبكم على الدوام، زابره المعتمد على الباري، الصالح بن العنتري، عفى (كذا) الله عنه، آمين.

حرر في 25 شهر أوط 1876

(ملحق) وتب علينا في السلام لدى الهام سعادة الكواند (كذا) سطرول وكذالك على الأديب البارع كاتبكم السيد البداوي، واعلم أني مترقب لرجوع سعادة الوالي، وعند رجوعه نرسل له كتابا شافيا في شأن طلبتي منه، ويحتمل تقدم اليكم إن ساعدتني المقادير، ولا يكون ذالك الا بعد رد الجواب من سيادتك وما تشير علينا به تصنعه بحول الله، ومنه الاعانة والتوفيق والسلام.



علم الآثار والهوية الوطنية

الشيخ قادر مظفر

مقدمة :

سجل النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد أعظم حدثين غيّرا مسيرة التاريخ بشكل كبير. ففي المشرق أدى تجمع العالم الاسلامي تحت راية واحدة الى انحسار المد الصليبي، وانتهى بسقوط عاصمة الامبراطورية البيزنطية (القسطنطينية) في عام 1453. وفي المغرب ، نتج عن تجمع أوروبا تحت راية الفاتيكان، سقوط غرناطة في عام 1492. وهنا تحول البحر الأبيض الى ساحة صراع دامية بين الهلال والصليب، دام قرابة الثلاثة قرون ونصف القرن، وانتهى بسقوط مدينة الجزائر في عام 1830. فبدأت صفحة جديدة من التاريخ، تميزت بتفوق عسكري للشمال على الجنوب، رافقته مدرسة تاريخية ـ آثارية، فرضت منهجا تتبناه تلك المدرسة الاستعمارية التي يديرها اساتذة متفرغون للتاريخ والتدمير (التبشير)، وضعوا برنامجا في تدوين وقراء الاحداث التاريخية، والأوجه الحضارية والانثرولوجية والاقتصادية والسياسية لبلدان الجنوب.

وبطبيعة الحال، أحدث النظام الرأسمالي، الآخذ بالنمو، منذ الثورة الصناعية، الحاجة الى التوسع واقتناص الأسواق واستعباد الشعوب في طول وعرض النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. فتولى المؤرخون الذين رافقوا حملات الغزو، مهمة كتابة التاريخ بالصيغة التي توافق برنامج «المدرسة الاستعمارية» ومراميها. استمرت هذه

الحالة وتنامت مع انطلاق أعمال التنقيب الأثري، عند بداية القرن الثامن عشر، بهدف البحث عن الكنوز الفنية، لملء القصور الأوروبية بروائع الحضارات التي ازدهرت في جهات متعددة من العالم الثالث المغلوب. الى جانب البحث عن مصادر الانجيل والتوراة.

ومع انبثاق فجر الثورات التحريرية للشعوب المغلوبة، وبدء مرحلة الاستقلال الوطني، تم الالتفات الى اعادة النظر في صياغة التاريخ على ضوء التنقيبات الأثرية الوطنية، وتحليل مصادر التاريخ المدون. لكن هذا الجهد ظل محدودا بسبب القالب الذي تأطر به بعض المثقفين الجدد، بتأثير الثقافة الغربية المبرمجة على نحو خاص، فصار هؤلاء ينقلون أو يرددون أقوال وتخريجات الباحثين الغربيين دون نقد أو تحليل.

ومن هنا تكون محاولتنا هذه مجرد جهد متواضع ومبسط، لايضاح بعض الأمور التي يجب أن يأخذها الجيل الجديد من المؤرخين والأثريين بنظر الاعتبار، عند محاولتهم استقصاء مصادر تاريخهم لصياغته بالشكل الموضوعي والمنطقي المجرد عن العواطف والسالم من اللوث الاستعماري.

علم الآثار ومفهومه وأهدافه:

قبل الحديث عن الآثار ودورها كمصدر أساسي لمن يود معرفة التاريخ لبلد ما، لا بد أن نشير الى أن البحث عن المصادر تمكننا من رسم اطار واضح قدر المستطاع لمجتمع ذلك البلد في كل جوانب حياته ضمن زمن محدد. سواء نشاطه الاقتصادي وممارسته التجارية وتكوينه البشري الاجتماعي الطبقي، ومعتقداته الروحية التي كانت تحدد تصرفاته حسب درجة قناعته بها. أو تنظيماته السياسية التي كانت توحد بين أفراد ذلك البلد أو تقسمهم الى درجات وجماعات صغيرة أو كبيرة، أو علاقاته الخارجية بالمجتمعات والدول المحيطة به، وكذلك الوسائل المادية التي كان يصنعها حسب ظروفه وبيئته ودرجة تقدمه الحضاري، معبرا بذلك عن وجوده وعن حصيلة تجاربه في كل جوانب الحياة العملية ونمط معيشته.

فالآثار اذا، تحتل المرتبة الأولى من بين تلك المصادر، فهي الصورة المادية الملموسة التي خلفها لنا مجتمع ذلك البلد أو الأقوام والبلدان التي كانت على تماس به.

فما هو اذا هذا العلم الذي نسميه بـ علم الآثار» أو «الاركيولوجيا»؟ نعلم ان علم التاريخ هو باختصار العلم الذي يدرس الماضي، وبما أن هذا (الماضي) متعدد الجوانب فهو جيولوجي ونباتي وحيواني وبشري وأدبي وفني وسياسي واجتماعي وتشريحي ونفسي.. الخ. فهو يتضمن اذا جوانب عديدة ومختلفة من الحياة، لكنها ترى بمنظارين اثنين، أما أنها اضمحلت واختفت تاركة وراءها بعض المعالم أو انها ما زالت قائمة ومستمرة. فتأريخ هذه الأخيرة يكون اذا هو تاريخ تطورها وتغيرها واستمراريتها عبر الزمن.

أما «علم الآثار» فهو الذي يهتم بدراسة ومعالجة وتفسير القسم المندثر من «التاريخ». اذ يبحث وينقب عن آثاره ومعالمه المتبقية ويلاحظها ويفحصها ليستخلص منها النتائج العلمية والمنطقية المناسبة. وبطبيعة الحال، فقد تكون هذه المعالم اما فنية بحتة أو معمارية، وحينئذ يتدخل «تاريخ الفن» في الموضوع، لكنه لن يتجاوز المحتوى التشريحي والطرازي وحتى المضمون الجمالي للقطعة الفنية والاحساس بنفسية ومشاعر المعمار أو الفنان نحو التأثيرات التي أملت عليه هذا الشكل أو ذاك من عمله الفني. بينما يكون عالم الآثار مركزا على اعتبار هذه التحف أو المظاهر التاريخية كشواهد لنشاط الانسان عبر الزمن وكدلائل لحضارة ما أو لتفكير اجتماعي، وهو يقوم بدراستها ليس لأنها أعمال فنية راقية فحسب وانما لكونها كنوزا من الوثائق فآلة بسيطة ما، قد تكون لها أحيانا قيمة عالية جدا عند عالم الآثار، تتجاوز قيمة تمثال رائع الجمال الفني، ذلك لأن تلك الآلة البسيطة تدله على تفاصيل عن حياة الانسان الذي صنعها واستخدمها أكثر بكثير من التمثال رائع الجمال. وهنا يجب الاشارة الى وجوب عدم الخلط بين «النقد الفني» الذي ينحصر دوره في التعريف بالعمل الفني أو الفنان المعاصر، وبين التعريف بهما وابراز أهميتها في الواقع الحياتي. كما يجب تحاشي الخلط بين ذلك «النقد الذني» و«تاريخ الفن»، الذي حددنا مفهومه من قبل وقلنا عنه أنه واحد من الجوانب التي تعتمد في بعض الأمور على علم الآثار في منحى دراسة الأعمال الفنية. لأنه من الضروري أولا أكتشاف القطعة الفنية ومن ثم معالجة جانب تاريخها الفني.

وأما «تاريخ الأدب» فمهمته تنحصر في دراسة كل ما أنتجه الابداع الانساني في جانب الكتابات فهو يحلل تلك الانتاجات ويربط بينها ويبحث مصادر الوحي

فيها ويدرس التأثيرات الشخصية والحياتية للمؤلفين والتي طبعت مؤلفاتهم. بينما يرى الاثري في تلك المؤلفات بأنها مصادر ومنابع للوثائق التي تعينه على دعم تحليلاته الدراسية أثناء البحث وهو يعتبر أسلوب المؤلف أمرا ثانويا، بعد أن استخلص الوقائع والتواريخ والخطوط الكتابية من الك المؤلفات.

وهنا تبدأ مهمة قارئ الخطوط ، فبالاضافة الى مهمته في الترجمة، يقوم بتحليل وتصنيف أنواع الخطوط والاشارات والعلامات للتوصل الى معرفة منابعها ومعرفة التأثيرات التي طرأت عليها وطرز وأساليب عصرها ومكانها. فيستعين الأثري بهذه النتائج ليس من جوانبها الجمالية، وانما باعتبارها وثائق مساعدة. وبنفس الطريقة يستفيد الأثري من مصادر التاريخ الجيولوجي والحيواني والنباتي وغيرها كثير.

فعلم التاريخ اذاً يتكامل بل يعتمد على علم الآثار، رغم ان هذا الأخير يختلف عن العلم الأول، في اهدافه وطرق بحثه. اذا فتعريف «علم الآثار» بكلمة واحدة يصبح مستحيلا تقريبا، ذلك لأنه يعتبر، قبل كل شيء، نمطا من «المقالة» المتكاملة أو التركيب المعقد، يتجه هدفه الرئيسي نحو صياغة سؤال «كيف كان يعيش أسلافنا وكيف كانت طريقة تفكيرهم في المشاكل اليومية؟» والاجابة على السؤال تكون بتكريس الجهود على دراسة كافة أنواع الوثائق، مهما كانت طبيعتها، والتي قد تعين على القاء ضوء ما على ماضي الانسان. والأثري ليس، كما يحلو للبعض تسميته، «عالم دراسة الاحجار القديمة!!»، ذلك لأنه رغم اهتمامه بتلك الأحجار فهو يحلول من خلالها العثور على أثر نشاط الانسان الغابر.

الحقيقة تبين ان عالم الآثار يتجاوز الاهتمام بعصر من العصور بل يستمر حتى «يوم غده». ومن المستحيل تحديد امتداده التاريخي طالما ان هناك «اليوم» وهناك «الأمس». ذلك لأن دراسة نمط ومسيرة الحياة في مدينة بابل ببلاد الرافدين وفي عصر حمورابي – مثلا – هو في نفس مستوى أهمية دراسة نمط ومسيرة الحياة في مدينة تاهرة في عصر عبد الرحمن بن رستم مثلا، أو مدينة غرناطة غداة احتلالها من قبل الملكة اليزابيت الكاثوليكية... وهكذا، ذلك لأننا نشهد في كل وقت ميلاد وموت البشر، وانماط وتقاليد حياتية مختلفة ، وأفكار وقوانين وأعمال فنية متنوعة. وميلاد وموت أدوات كان يستعملها الانسان في أموره الحياتية، وكذا طرز فنية تبناها

ذلك الانسان... لذا نقترح اصطلاح «الامس اللامحدود» على حقل بحوث علم الاثار، وبالتالي يكون من المستحيل رسم حدود معينة تفصل بين علمي الاثار والتاريخ (في البعد الزمني). وكما نعلم أنه من الصعوبة القيام بدراسة منهجية وعلمية لأحد هذين العلمين، ما تعمل على تقسيمها الى فروع في المجالين الزمني والمكاني.

يبقى الموضوع الأهم الذي يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار، وهو ان الانسان لا يمكن فصله عن الانسان، مهما كان لونه أو عقيدته أو أسلوب تفكيره أو مستوى حضارته أو العصر الذي عاش فيه، لذا فافضل تقسيم لحقل دراسة الاثار نراه على النحو التالي:

– علم الاثار ما قبل التاريخ، ويبدأ مع فجر الانسانية (العصور الحجرية) وينتهي بظهور أول آلة معدنية استخدمها الانسان.

– علم اثار فجر التاريخ، وهو اصطلاح صعب التحديد ولكن يمكن تعريفه بأنه الفترة التي تشمل كل الحضارات التي كانت تستعمل الأدوات المعدنية، قبل أن تتوصل الى اكتشاف الكتابة.

– علم الاثار لفجر الكتابة، الذي يبدأ مع أول اكتشاف للكتابة.

– علم آثار المرحلة التاريخية، ويشمل حضارات السومريين والكلدانيين والبابليين والفراعنة والاخميتيين والحيثيين والفينيقيين والأشوريين.

– علم الآثار الاسلامية، ويحوي «مكانا» يمتد من حدود الصين حتى جبال البرانس، و«زمانا» يبدأ مع القرن السابع ميلادي ويستمر حتى يوم «أمس».

مفهوم الهوية الوطنية والثقافية :

لقد دل التاريخ، على امتداد فتراته وتغير أطواره ، من أن مس الهوية الوطنية أو احتقار ثقافة شعب من الشعوب، كان دوما خزان البارود الذي عانت منه الانسانية من انفجاره بالويلات والدمار والاستعباد. والبديل لهذا هو الحوار والتكامل والوفاء للقيم الحضارية العليا التي يعتز بها كل شعب من الشعوب وينتسب اليها. فالمحتم اذاً السعي الى محو آثار الالتباس التاريخي الذي أفسد علاقات الشرق والغرب.

منذ قرون عديدة ومهد للحروب الصليبية وبرر الاستعمار والاعتداء على

شخصيات الشعوب وعرقلة نهضتها، بحجة تحضيرها وانقاذها من التخلف. أما الفئة المتعايشة في اللغة والدين والوطن فالواجب ايقاظ هممهم نحو خصائص تراثهم القومي والروحي، وانتزاع روح الجهل من نفوسهم التي خدرتها الفلسفة الاستعمارية وأظلتهم بمظلة الثقافة الغربية ، غير المهضومة من بعضهم. والتأكيد على كشف الطريق أمامهم ليكتشفوا ذاتهم وليعرفوا ان الوطنية والكرامة والاستقلال الحقيقي قد تبق حلها مظاهر خادعة اذا هي لم تستند الى رؤية حضارية أصيلة، بمقومات الكيان الفردي والجماعي الروحية والاخلاقية والفلسفية. ولن يتم هذا بغير الثقة في النفس والاطلاع على مناهل الفكر والعلوم والأخذ بأسباب العصر والاقدام على الابتكار والخلق والاجتهاد للوصول الى الحلول الجذرية للمشاكل المعقدة التي يطرحها علينا محيطنا الثقافي والاجتماعي والاقتصادي. والقناعة بان مستقبل البشرية هو مسؤولية مشتركة لكل الشعوب، تساهم كل الأمم، في صيانته وتحمل تبعاته. لا فضل لأمة على أخرى الا بدرجة عطائها ومبلغ مساهمتها الايجابية في سعادة الانسانية.

أما المجتمعات الغربية المتقدمة والتي نراها مشحونة بأسباب التفسخ والانحلال، بسبب انعدام الغاية فيها، فنراها مليئة بظواهر اجتماعية خطيرة، كانتشار المخدرات، وموجة الانتحارات في أوساط الشبيبة، وتلك نتيجة منطقية لحصيلة نفاد الموارد الطبيعية وانحسار الاستعمار الذي أعاد للشعوب المستغلة ثرواتها المنهوبة.

أما النهضة الأوروبية، التي يراها أصحابها بكونها حركة ثقافية، نراها المحرك الأساسي والمولد المزدوج للرأسمالية والاستعمار، اللذان أديا الى الاستهانة بحضارات أرقى شأنا من حضارة الغرب في علاقات الانسان بالطبيعة والمجتمع والنواحي الروحية. والا فكيف نفسر الابادة الجماعية للهنود الحمر في أمريكا خلال القرن السابع عشر، أليس من أجل السيطرة على مناطق المعادن الثمينة في القارتين الجديدتين؟ وكذلك كيف نفسر ازدهار التجارة الغربية، والمتمثلة في خروج البواخر من الموانئ الأوروبية، محملة بأتفه البضائع نحو افريقيا، حيث تباع مقابل شحنات من العبيد يباعون في أمريكا، ومنها تعود محملة بالسكر والقطن والمعادن الثمينة؟ وكنتيجة حتمية فقد نقل منهم الملايين الى القارة الجديدة، مات منهم في الطريق عشرة أضعافهم، فهل عرف التاريخ مثل هذه المهانة عبر كل مراحله؟

مقابل هذا، يحدثنا (اناتول فرانس) في كتابه الحياة الزاهرة، من أن «أشأم يوم في تاريخ فرنسا كان يوم معركة بواتييه، عندما تراجع العلم والفن والحضارة الاسلامية سنة 732 م أمام الهمجية الفرنكية». كما يحدثنا الكاتب (بلاسكوايباريز) في كتابه تحت ظلال الكاتدرائية، على أن «أحياء اسبانيا لم يأت من الشمال مع الطغمة الهمجية بل من الجنوب مع الفاتحين «العرب».

ان هذين النموذجين من أقوال الكتاب الغربيين غير التابعين للمدرسة الاستعمارية في التاريخ يضيعان أمام غزارة ما كتب من قبل تلاميذ هذه المدرسة ، والتي لخصها روجيه غارودي في كتابه: حوار الحضارات، بالقول «ان من المصائب الكبرى للتاريخ المكتوب هو أنه كتب من قبل المنتصرين الذين ارادوا دوما اثبات ان هيمنتهم كانت حتمية تاريخية وناتجة بالضرورة عن تفوق ثقافتهم وحضارتهم» وهذا ما يعيننا على فهم عقلية ومواقف بعض مثقفي العالم الثالث من ثقافاتهم، بعد أن قرأوا تاريخهم كما كتبه مستعمروهم.

فلنحدد الآن مفهوم «الهوية الوطنية والثقافية» بحالة نعيشها ، ولنجعلها مقياسا لحالات أخرى، تلك هي حالة الشعب الجزائري:

ولا بد في البداية من تحديد مفهوم «الشخصية الوطنية الجزائرية» ومميزات الشعب الجزائري الناتجة عن جملة من العوامل الاجتماعية والسياسية والبيئية، مر بها عبر تاريخه الطويل الحافل بالأحداث والمتغيرات. ولا يمكن فهم تلك الشخصية دون المرور عبر «خصائص الفرد الجزائري» وتلك الخصائص نراها في «مدخل التقرير حول التوجيه العام» الذي أصدرته اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم في الجزائر:

«ان مسيرة الانسان الجزائري طوال تاريخه القريب والبعيد، أورثته مجموعة من الخصائص، ومعاناته الحضارية، ومؤسساته الاجتماعية اكسبته طائفة من الفضائل الاخلاقية، ومقاومته للاستعمار، منذ غلب على أمره، وهبته مجموعة من الخصائل النادرة، وتلك كلها تؤلف مجموعة من القيم السلوكية التي جعلت منه انسانا متميزا في حياته الفردية والجماعية.»

ولا شك في أن هذه الخصائص هي التي منحت ذلك الانسان الوجود السليم والوفاء للاصالة والاستمرارية على المقاومة، عبر سلسلة المحن والمعاناة ومحاولات

القهر التي استهدفت وجوده ومقومات ذلك الوجود. ولا ريب في أن هذه الأصالة مرتبطة بالشخصية القومية والروحية الأكثر شمولا من الحدود القطرية [1]. ومن هنا نرى تركيز القوى المحتلة تصوير الأمر للفرد الجزائري وكأنه بلا جذور تربطه بتاريخه الغني وحضارته السحية. محاولا بالتالي فصله عن لغته وعقيدته وماضيه الثقافي المتميز.

اذا، فتركيز علماء الاثار والتاريخ المرتبطون بمفاهيم الاحتلال، في بحوثهم على تاريخ الجزائر في العهد الروماني، مع اهمال متعمد لاثاره الاسلامية حتى عام 1830 ما هو الا محاولة لاقناع الجزائريين بأن أصولهم أوروبية في الماضي والحاضر. وان الفتح الاسلامي ما كان الا احتلالا عربيا وتركيا، ولذا فترة مظلمة من تاريخ هذا الشعب. والقاء نظرة على مناهج التاريخ والجغرافيا في عهد الاحتلال الفرنسي يشرح ذلك بكل وضوح. قابله الشعب بالاقبال على «جمعيات المدارس الحرة» في كامل التراب الجزائري، حيث التركيز على محاربة تلك المفاهيم الخاطئة بالتعليم الوطني الأصيل ضمن نطاق الثقافة الوطنية، باعتبارها الأمل الكبير في عدم ضياع الشبيبة الجزائرية في متاهات آلهتهم.

ونتهي بالاشارة الى رائد التاريخ الجزائري الحديث المرحوم أحمد توفيق المدني، الذي أنتج ـ ضمن الظروف الصعبة التي كان يعانيها ـ كتابه المعروف بـ «كتاب الجزائر»، الصادر في عام 1930، ليحاجج به الكثير من الأمور الخاطئة، بمناسبة مرور قرن كامل على احتلال بلاده، وليساهم في احياء التاريخ الجزائري، لكونه واحدا من المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية ولهويته الثقافية.

الحقول التي يمكن اعتمادها في الربط بين عالم الاثار والهوية الوطنية :

المفروض أن يعني المؤرخ بحوادث وقعت وأدت الى نتائج محددة. لم تعد قائمة، لكنها انتجت أمورا أثرت في حياة الانسان والمجتمع المعاصر لها، وبالتالي خلفت آثارها في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية في حياة الأجيال اللاحقة. وبعبارة أخرى انها فعلت فعلها في بلورة خلفية تلك الأجيال وحددت الاطار المناسب لشخصيتها الوطنية. ومن هنا نفهم دور وأهمية علم الاثار الذي يسعى بالمعول والقلم، الى اظهار كل الدلائل المادية، لكي تكون المعين الوثائقي

في اعادة صياغة تاريخ الشعب المعني. وبالتالي تحديد معالم هويته الوطنية واصالته الثقافية. ونعني بالأصالة هنا، الاحاطة بما سبق نقده وتحليله والاتيان بجديد يغني الثقافة الشعبية. وعند هذه النقطة يبرز دور الجامعات الوطنية، التي يقع عليها العبء الأكبر في هذه المهمة نظرا لدورها في تكوين القيادات الفكرية، اكمالا للانسجام في مصطلح الأصالة، وتحاشيا للارتباك في استخدامه. لكي لا تتحول هذه الأصالة الى مجرد شعور حالم بتراث الأمة التي تحتاج الى امتداد واستمرارية حية نامية ومتطورة في واقعها وصيغة تراثها الذي تفخر به. باعتبار ان ذلك هو التعبير عن حقيقة أعماق الشعب وأبعاده التاريخية والمعاصرة معا.

ولنبدأ بمناقشة بعض الحقول التي تسهل «الربط» الذي نعنيه:

التاريخ :

أول تعارف بين الانسان و«التاريخ» يبدأ وهو طفل في المدرسة الابتدائية، ومع تقدمه في الدراسة يكتشف كتبا أخرى، تختلف عما عرفه في الابتدائية، وعندها يبدأ بالتساؤل لماذا هو يقرأ التاريخ؟ وما الهدف من دراسته لهذه المادة؟ فيواجه مشكلة تحسين فهمه لهذا «التاريخ»، فيبدأ بتحليل العبر التي يستخلصها من محتوى كتابه، فيرى انه عبارة عن «قصة حياة الانسان عبر الزمن»، ويعرف ان كل الأحداث التي مرت هي من صنع رجال ماتوا، فيكتشف انه هو الآخر وكل مجتمعه المعاصر له منهمكون في صنع صفحة أخرى من التاريخ مع اختلاف الأسماء والأعوام، وانه هو ومجتمعه سيصبحون قريبا على صفحات تاريخ آخر يقرأه جيل آخر بعده.

وعليه، فمن أجل أن نساعد «تلميذ التاريخ» هذا على هضم واستيعاب العبر المرجوة من دراسة التاريخ، لن يتم ذلك ما لم نعمل على ربط الأحداث التي مرت بشخصية «تلميذ التاريخ» وعززنا فيه الثقة بهويته الوطنية التي هي ناتج تلك الأحداث التي يقرأها. مع تحذيره بأن كتب تاريخه في السابق كانت تستهدف «قبل كل شيء»، شخصيته الوطنية، وتحاول أن تمسخ هويته، بأسلوب منهجي ذكي وتذكيره بأن الحكمة في قراءة التاريخ أو دراسته هي معرفة الخلفية التي تسند حاضره، ثم تحذيره من الوقوع في مصيدة المؤرخ الذي يحاول أن يبرر ما يريد اختياره

من تسلسل معين للوقائع والأحداث واهمال الكثير مما تدحض أهدافه. اذن ، فمهمة مبرمجي الدراسات التاريخية تعتبر مهمة خطيرة ، اضافة الى دور مخططي برامج التلفزة والمذياع في مجال الثقافة بشكلها العام. وخطورة برمجة التاريخ نابعة عن كون هذه المادة تختلف عن علوم كثيرة ، مثل الرياضيات التي تنتهي بنتائج لا جدال فيها يقبلها العقل. أو العلوم الطبيعية التي تلتزم بقوانين ثابتة، تعززها الاختبارات التجريبية ، لا يمكن رفضها أيضا. أو لغة من اللغات التي تخضع لقواعدها الثابتة.. الخ. أما التاريخ، فهو غالبا ما يناقض نفسه عبر الزمن. وهو خاضع له، ينقل لنا منه معلومات متغيرة ومتفرقة لم تثبت صحتها بعد.

ان مفهوم «لفظة التاريخ» في اللغة اليونانية هو، في أصله، فعل النظر أو شاهد العيان، فما مدى صحة هذه «الشهادة» التي تحكي لنا جملة من الأحداث التي عاشها البشر عبر قرون عديدة وعلى امتداد مساحات جغرافية متباينة؟ وهي بلا شك ستكرر في قرون تالية وعند أماكن أخرى بصيغة قريبة أو بعيدة عن الاحداث الأولى.

وبما أن المؤرخ أصبح، وفق تعريفنا اليوناني السابق، هو شاهدنا. فعلينا أن ندرس خلفية هذا «الشاهد» أولا ونستقصي جذور فكره واتجاهه والمدرسة التي ينتمي اليها أو يمثلها. لأنه هو الذي يرسم لنا لوحة الماضي التي نتأملها من خلال كتاباته. وكم من مؤرخ حاول أن يصيغ لنا «حقائق» من خلال نتف متقطعة في قصة عابرة أو حادثة ماضية لا قيمة لها. فسماها «عبرا تاريخية»؟

ومن المفيد التذكير بأن صناعة المؤرخ هي متابعة احداث الماضي. فهو بمتابعته هذه «الأحداث الماضية» يضيف قرونا مرت الى عمره ويحيا أكثر من حياة واحدة، ذلك لأن له ذاكرة وهو في كل لحظة يستحضر في ذهنه صور الاحداث وعبرها، فيحس انها حدثت ومرت وانتهت، ومن خلال أحاسيسه هذا يحاول أن يلقي ضوءا وافيا على صيغ تدوينه للتاريخ. كما يستعين بالوثائق المتوفرة ليدعم وجهة نظره، وبذلك يعكس لنا الأفكار والمشاكل القائمة في وقت كتابته لمؤلفه التاريخي. وهو كذلك يعكس لنا ذاته أولا قبل أن يحيلنا على المرحلة الزمنية التي اختارها كموضوع. وبالتالي يثبت لنا أنه كان يكتب الحاضر بصيغة الماضي، لأن هذا الحاضر تطلب العودة الى ذلك الماضي للاستعانة به في تأكيد الحاضر نفسه.

ولكي نقرب الى الذهن تحليلنا السابق لمفهوم التاريخ وأهدافه عند نفر من المؤرخين الذين يمثلون مدارس معينة، نورد بعض النماذج من أقوالهم. لنكون قادرين على بناء السور اللازم لحماية «هويتنا الوطنية»، يقول المؤرخ لويس فويو (1844):

«... ان أيام الاسلام الأخيرة تقترب ، ومن المؤكد ان قرننا الحالي (التاسع عشر) سيرى هذا الدين انحسارا عن تخوم أوروبا، التي غزاها وهددها خلال فترة طويلة ، والتي امتدت لتشمل كل أوروبا القديمة التي حملت «الصليب». انا نرى «الهلال» المحاضر من جميع الجهات وهو يتهشم وينمحي. ان الاله يدفع به نحو الصحارى حيث خرج منها. وقد حددت الحسابات المبنية على (ابوكاليبس) القديس جان ونبؤات دانييل ان حكم محمد سيدوم 13 قرنا فقط. وها هو القرن الثالث عشر (من حكمه) وهو لم ينتهي بعد، حيث سنرى بيزنطة (استانبول) وهي تسقط في يد المسيحيين. أما مدينة الجزائر، فهي بعد عشرين سنة سوف لن يعبد فيها اله غير المسيح. وبعد عشرين عاما أخرى ستصبح الاسكندرية انكليزية... فأين سيتوقف الصليب بعد أن تصبح كل من الاسكندرية والجزائر والقسطنطينية نقاط الانطلاق للصليب؟» ثم يقول «... واذا كان هناك شك بأن أرض الجزائر سوف لن تدوم لفرنسا، فن المؤكد على الأقل بأن الاسلام قد فقد المعركة نهائيا». ويضيف «... مها كانت نهاية الجزائر، سواء على يد الانكليز أو الالمان أو الاسبان أو الفرنسيين فانها ستبقى مسيحية، ولا مكان للاسلام فيها، وكذا سيكون مصير كل من تونس والمغرب قريبا. وتلك هي مشيئة الاله الذي يجب أن نشكره على تحقيق هذا النصر على أيدينا. وبعد ذلك فها يحصل يمكننا الفخر بأننا قد نجحنا في تتمة المحاولات التي لم تكتمل للصليبيين من قبلنا... وقد أنجزنا ذلك باضافة صفحة ما زالت تكتب بدمائنا».

ويخبرنا لويس فويو أيضا بأنه كان ضيف الجنرال بوجو في عام 1841 عندما عين حاكما عسكريا عاما للجزائر، فيقول : «... بعد عشر سنوات من الجهود ، كنا نرى أن عملية الغزو وقد تقدمت أقل مما تم تحقيقه في الأيام الأولى منه (!!). فقد نظم العرب صفوفهم، وكانوا منتصرين الى حد ما. وكنا نحارب بشكل سيء وادارتنا مرتبكة وحكامنا سيئون. وعمليات الاستيطان كانت صفرا. صحيح كنا

نسيطر على بعض المدن هنا وهناك بامتداد الساحل وفي عمق محدود من داخل البلاد، لكننا كنا سجناء في داخلها. فالحرب ما زالت تدوي عند أبواب وهران وقسنطينة، وكنا نحتاج الى مدافع لكي نتمكن من الانتقال من مدينة الجزائر الى البليدة، وكنا نحتاج الى جيش كامل من أجل تموين حامياتنا المحاصرة في مليانة والمدية، لكن هذا الجيش المتحرك كان محاصرا من قبل جيش آخر غير منظور، كان يحرم على أي عربي أن يتعامل مع المسيحيين. وهذا الأمير عبد القادر كان يناور معنا بالحرب وبالمفاوضات ، حيث كنا نحس بوجوده في كل مكان، ولكننا لا نراه في أي مكان... وكان العدو يقتل جنودنا بطريقة غير مرئية وأكيدة، وما كنا نسميه بمستعمرتنا مدينة الجزائر، ولم تكن في حقيقتها سوى مستشفى داخل سجن... اذن فلماذا لم يعتنق الجزائريون المسيحية، لأنهم لم ولن يصبحوا فرنسيين، وطالما لم يصبحوا كذلك، فلن يكون في مقدور أي جيش ضمان السلام ولو لشهر واحد في هذه البلاد.» .

ونكتفي بهذه الأمثلة لنعود الى التساؤل كيف يمكن فهم أو تفسير مؤرخ «شاهد» عاش احداث احتلال الجزائر وهو معاصر للثورة الفرنسية التي كان شعارها «الحرية ـ الأخوة ـ المساواة» ، وهي الثورة التي هاجمت الكنيسة المسيحية ، واتهمتها بكونها سند للاقطاع والاستغلال والاحتكار في المجتمع الفرنسي؟ وكيف يمكننا تفسير اعادة طبع هذا الكتاب وبشكل أنيق من قبل دار كبيرة في باريس، وبعد ستة عشر عاما من استقلال القطر الجزائري؟ ثم كيف نفهم قصد دار النشر باعادة طبع هذا الكتاب بعد 134 سنة من طبعته الأولى، ان لم يكن الهدف اعادة تنظيم الحرب الصليبية الثالثة بعد فشلها في القدس وفي الجزائر (بفضل الاستنجاد بالأخوين: عروج وخير الدين).

ان الاجابة الشافية لكل هذه التساؤلات تقع على عاتق المؤرخين والأثريين الاكفاء، وخاصة منهم الجزائريين، الحريصين على صيانة الاطار اللائق للشخصية الوطنية وحمايتها من التلوث والارتباك.

الفن والعمارة :

اذا كان (هيرودوت) و(ارسطو) قد عبرا بوضوح عن فكرة اختلاف احساس

الأوروبيين (بالديمقراطية) ورضوخ الأسيويين للعبودية، فان هذه الأفكار ما زالت محتضنة من قبل مؤرخين من احفادهما في أرووبا وغيرها. بل انها تطورت وزادت في غلوها وتطرفها ، رغم ان الحقائق التاريخية تشير وتؤكد على ترابط متكامل بين حضارات وثقافات حوض البحر المتوسط.

لكن أحداث القرون الوسطى تعكس لنا وجها آخر لمثل تلك الفلسفات، فقد كان الاسلام سيد البحر المتوسط المتحضر وما حواليه، فظهرت الحركة الدينية التي تدين «الحضارة البربرية» وتطرح فكرة «المسيحي والكافر» . ففي الوقت الذي يجل فيه القرآن السيد المسيح نرى (دانتي) في كوميديته الالهية وهو يلقي بالرسول محمد ﷺ وأتباعه (رضوان الله عليهم) الى الجحيم، وفي عين الوقت نرى أوروبا خلال القرن الثالث عشر معجبة ومبهورة بالحضارة المادية والثقافة المرفهة في الشرق[٥].

أما القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الأوروبيين فقد رأينا فيهما الأثريين والفنانين وهم يبحثون عن مصادر الفن والثقافة والجمال. وقد ادى اطلاع الفنانين الغربيين على كنوز الشرق المنسية الى نوع من الاخصاب الغني في مجالات الفنون التشكيلية والرسم، وبالتالي الى اعادة النظر في تاريخ الفن ودحض مبدأ الامتياز الأوروبي الذي احتكر مادة تاريخ الفن وحصره بالغرب فقط، حتى مطلع القرن العشرين. وأما اسطورة «المعجزة اليونانية» فقد تبين للباحثين الى أن جذورها تمتد الى الحضارات المصرية والفينيقية وبلاد الرافدين. كما أوضحت بحوث عصر النهضة مدى تأثرها بفنون الاسلام، التي كانت تشكل وجها آخر من علاقة الانسان بالكون وعلاقة الانسان بأخيه الانسان، والانسان بمستقبله القريب والبعيد.

وإذا ما استوعبنا الدلالة الروحية للفن الاسلامي وأدركنا علاقة ذلك الفن بمبدأ التصوف، يمكننا أن نفهم صيغه ومفرداته التشكيلية ومدى تعبيره عن تصور الكون وتركيبه. ذلك لأنه يرفض التقليد الاستنساخي للمخلوقات، تحاشيا من الانزلاق في عبادة الأوثان التي حاربها ، ودعا بالوحدانية، فضلا عن ان مثل ذلك التقليد يصرف ذهن المؤمن عن التوجه الى الخالق مباشرة ، ودون واسطة.

وان نحن ألقينا نظرة فاحصة على تركيب بناء المسجد لوجدناه يختلف عن الكنيسة والمعبد الوثني في زخرفته وتخطيطه واضاءته وأسلوب الصلاة فيه، فهو ليس

تربيعي مثل المعبد الاغريقي ولا طولي مثل الكنيسة، بل انه عرضي، يسمح لأكبر عدد من المصلين ليسووا صفوفهم كتفا بكتف، وتلك ظاهرة اجتماعية بالغة الأهمية توحي بالمساواة وتنفي الطبقية والكهنوتية المعروفة عند غير المسلمين. أما الزخارف النباتية والهندسية والألوان الزاهية فهي عناصر تزيد البناء جمالا والروح اطمئنانا وراحة، دون حاجة الى تماثيل تراجيدية أو لوحات قاتمة أو اضاءة مرهبة. وبهذا تتحقق في بيت العبادة المهمة الوظيفية والتجريدية الموسيقية المتكاملة، لأن الصلاة عملية تأمل عميق وليست مسرحية.

ولو تأملنا في جزئيات التركيب المعماري في المسجد، فان أولى العناصر التي تشد عيوننا اليها هي تلك التشكيلة المتنوعة من الأقواس التي تشكل نوعا من الألحان الهادئة. فمن القوس الحدوية الى القوس المدببة، ومن الهيكل الطاقي الى القوس المقرنص وغير ذلك من التراكيب المنحنية الرشيقة المستندة غالبا على أعمدة رشيقة تنتهي بتيجان تبرز لنا روعة التنسيق بين الزخارف النباتية والهندسية لتضيف وقارا وبهاء الى مبنى بيت ولتوحي للمؤمن الذي يرتاد المسجد الهاما روحيا هادئا.

وقد أوحت السمفونية المعمارية الاسلامية خلال مجدها في القرن العاشر وحتى القرن الثالث عشر، مقاطع من ألحانها للبناء المسيحي في آسيا الصغرى وشبه جزيرة ايبريا (اسبانيا)، فتمثل الكثير من كنائسه بها، وامتد هذا التأثير ليصل شمال فرنسا. كما تحكيه لنا كاتدرائية شارتر بطراز أقواسها المنضودة والمتعانقة، فتذكرنا بملامح جامع ابن طولون بالقاهرة، وخاصة تراكيب سياج سور الجامع. أما مكان الوضوء في المسجد، فهو ينقلنا الى عالم الابداع في رسم الخطوط وينعش احاسيسنا بالنافورات التي تلقي بمياهها الراقصة باستحياء ورشاقة، تتكامل مع انحناءات الأقواس والعقود المنتظمة والأعمدة الرشيقة والمنحنيات الجذابة ، وهل هناك مثل أروع مما تمثله أعمدة وأقواس مساجد قرطبة واشبيلية في نقل أجواء واحات النخيل الى الاندلس؟

أما مساجد طاشقند وبوخاري واصفهان فهي تعكس لنا من خلال قبابها الخيام الأسيوية المشعة بضياء ذهبي أخاذ، فضلا عن تناسق الألوان والخطوط الذي يذكرنا بالألحان الموسيقية لتلك البقاع. ورغم كل هذا التنوع والجمال المعماري، فان البناء المسلم لم ينس الوظيفة الأساسية لبناء المسجد اذ ظل حريصا على عدم الفصل بين المشاعر المادية والروحية للمؤمن ، والتزم دوما بقواعد هندسية أمينة على مصدر

وحيها الأساسي الأول (مسجد المدينة). كما كان موفقا في جعل الفن الزخرفي ملتزما في الجمع بين التجريد والوزن. وأعطى معنى للطبيعة الموسيقية وللعقلانية الهندسية، فجعلها يؤلفان عناصر اللغة الحضارية في هذا الفن، ولمفهومها في النظام الكوني، وذلك عندما زين المسجد بآيات من القرآن الكريم وهي تتداخل بألوانها وانحناءاتها بين الأغصان والأوراق والأشكال الهندسية التي لا نهاية لها، فأضافت بذلك جمالا الى الجمال المعماري، حتى ان مؤرخي الفن الغربي وأثرييهم يجدون صعوبة في الحديث عن الكتابات الكوفية المسطرة على واجهة كاتدرائية (بوي) بفرنسا ، فكانوا يفسرونها بمجرد أشكال زخرفية في حين أنها التوقيع الاسلامي الذي يعبر عن الشخصية الحضارية للاسلام الذي امتد تأثيره الى تلك البقاع.

ونستخلص ، ان هذا الفن وتلك العمارة التي أبدع الاسلام في تشكيلها، يعتبران ثروة ثقافية وحضارية في الحضارة الانسانية، ويعتبران شهادة خالدة عبر الزمن لعراقة الشخصية الاسلامية والعربية، رغم تعدد الأجناس والألوان واختلاف الثروات وامتداد الأرض. وهي حافز على اعادة النظر في عقد الغرور والاستعلاء ونزوات السيطرة والاستغلال واحترام خصوصية كل ثقافة، لأن ذلك حق وواجب ، ولأن تجاهل مساهمة الشعوب في اغناء التراث الانساني هو الاصرار على محو شخصيتها وتشويه لهويتها الوطنية. فمن المصيبة أن يكتب التاريخ منتصر يحاول الايهام بأن سيطرته كانت حتمية تاريخية فرضها تفوقه الثقافي والحضاري، والمصيبة أكبر عندما يتبنى بعض «مثقفينا» تلك الآراء بعد أن «درسوا» أولئك «المؤرخين» و«الأثريين».

النصوص المدونة :

ونسميها بالمصطلح العلمي الحديث «الباليوغرافيا»، أي علم دراسة النصوص القديمة المدونة. وهذه ذات دور هام في التعريف بالجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وبالشخصية الوطنية لأصحاب تلك النصوص المكتوبة قديما. فانتشار نص معين مكتوب بلغة أو لهجة محددة، في مناطق متباينة، يشكل دليلا على انتشار المجموعة البشرية التي كانت تتحدث بتلك اللهجة أو تكتب بتلك اللغة في مناطق اكتشاف تلك الكتابات، أو انها يمكن أن تدلنا على تواجد مجموعة بشرية

معينة في تلك الأماكن ، كما أن وجود كتابات بلغات مختلفة، في منطقة جغرافية معينة، يشير غالبا الى أن تلك المنطقة كانت مكان تلاقي أو مرور للمجموعات التي كانت تتحدث باللغات المكتشفة. وأسباب التلاقي أو المرور قد تكون اجتياحا عسكريا أو تعاملا تجاريا أو توافقا دينيا يقوم، بتأثيره، قوم بعيدون بانشاء نصب رمزي لاله معبود لهم في تلك المنطقة، مع تدوين تفاصيل واحداث على ذلك النصب لتخليد ذكرى منشئ النصب. وهذه معلومات تعين الأثري على دراسة ومعرفة أسماء الحكام والملوك والالهة والشعوب المختلفة في لغاتها والمتقاربة في تقاليدها، إضافة الى معرفة الاحداث التاريخية وأزمانها حسب ما مدون على الانصاب المكتشفة.

ومن هنا تبرز أهمية جمع وتصنيف وتحليل جميع الكتابات القديمة المكتشفة في القطر الجزائري والانعكاف على استخلاص الحقائق المتعلقة بدور شعب هذا القطر ومعرفة مدى امتداد جذوره في التاريخ، وبالتالي تحديد اطار هويته الوطنية بالصيغة العلمية الصحيحة، بعد دحض التخريجات المستهدفة تلك «الهوية» بالتشويه. وما أكثر مثل هذه الكتابات أو الوثائق التاريخية ـ الأثرية في أرض الجزائر.

الفخار :

أما تواجد الفخار أو كسره، فهي مصادر ذات أهمية بالغة في تحديد أصول الحضارات التي انتجتها أو استخدمتها في الحياة اليومية. ولا بد أن نشير الى أن الفخار هو دليل هام ووثيقة بالغة الأهمية عند الأثري، ذلك لأنه كان في القديم السلعة التي استخدمت بشكل أوسع الانتشار في الحياة اليومية، عند سكان المواقع الأثرية التي ينقب فيها الأثري لاستجلاء حقائق الماضي، اذ نعرف أنها كانت تنتج لأغراض الاستخدام الحياتية، كأواني الطعام، وأوعية لحفظ أنواع مختلفة من المواد الغذائية وكالمؤونة، وحتى في الدفن، الى جانب المزهريات والمنجزات المستخدمة في المعابد والبيوت وأماكن الملتقيات.

فالفخار اذا، مؤشر علمي ومادي على نشاط وهجرات وتبادلات الشعوب وهوكذلك دليل على درجة نمو امكانياتها الصناعية وحسها الفني، بل أنه مادة ثمينة للمقارنة والتحليل، في تحديد وربط الطبقات الأثرية من موقع الى آخر، وهو بالتالي برهان على هوية الشعوب.

المسكوكات : أو العملة أو النقود. هي عبارة عن وثائق تاريخية هامة، يعكس آثار الأحداث والمشاكل عبر الماضي. وتلك هي مشاكل تتعلق بالتاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي لأمة من الأمم أو البلد من البلدان ، خلال مرحلة من المراحل التي تمر بها. وبهذه الوثائق يتمكن الأثري أو المؤرخ باستعراض منطقي وعلمي، من أن يربط بين الوقائع الاقتصادية وتأثيرها على مجرى الأحداث السياسية والعسكرية والدينية والنفسية والاجتماعية، لأن هناك نوع من التداخل المستمر بين تلك الوقائع ، مما يؤكد استحالة التقرير الحاسم بالاعتماد على واحد من هذه العناصر دون الأخذ بالمجموع.

من كل ذلك يمكننا اعتبار الحقائق المتعلقة بمسار اصدار وانتاج وتطور النقود عنصرا أساسيا، بل محورا، يرتكز عليه الأثري في دراسته للتاريخ. ونستشهد بما حصل في القرنين الرابع والخامس ميلادي من تسرب للذهب البيزنطي نحو الشرق لاستيراد البضائع النادرة في الغرب، مثل التوابل والحرير والأنسجة الموصلية والمصنوعات الأخرى من الكماليات لسد حاجات ورغبات القصور الأوروبية، كما يحصل اليوم في تسرب البترودولار من الشرق نحو الغرب لشراء الأسلحة، ثم ما تلى ذلك بعد انتصار الاسلام، من سيطرة على منابع الذهب البيزنطي (الدينار) والفضة الساسانية (الدرهم) ، وسبات أروبا في القرون الوسطى حتى القرنين الخامس عشر، والسادس عشر، حيث سقطت غرناطة وبدأت الهجمات البحرية الاسبانية على سواحل الشمال الافريقي واحتلال أجزاء منه. وعندها بدأ سيل المعادن الثمينة يأخذ اتجاه شرق ـ غرب وجنوب ـ شمال، بالاضافة الى السيل الآخر لتلك المعادن باتجاه غرب ـ شرق، بعد اكتشاف الأمريكيتين. فبدأت مرحلة النظام الرأسمالي وانتعاش الاقتصاد والتجارة الغربية وانطلاق الثورة الصناعية. كل ذلك يوضح لنا بجلاء كيف أن شحة أو زيادة الاحتياطي من المعادن الثمينة، تتحكم في الأوضاع السياسية والاجتماعية لتلك العصور.

اذا، من أجل أن يتوصل الأثري المؤرخ الى استنتاجات شبه مؤكدة عن الأحداث التاريخية، لا بد له من الاهتمام بجملة من المصادر النقدية والمعدنية الضرورية، ان هو أراد التعمق الجدي في دراسة الأحداث الماضية، وهذه المصادر يمكن تصنيفها كالآتي :

1) مجاميع النقود نفسها، نوع معادنها ومصادر تلك المعادن، ثم الظروف السياسية والعسكرية المحيطة بتوفرها وندرتها.

2) دراسة قيم تلك المعادن وكذلك أبعاد وقياسات وحجوم وأوزان تلك النقود المضروبة والعوامل المؤثرة فيها.

3) ميدان انتشار طرزها في الأسواق المحلية والاقليمية والدولية.

4) تحديد التقسيم الجغرافي للمجاميع المكتشفة من المسكوكات. واعتبارها كمؤشر مادي، لحركة التجارة والنظام السياسي السائد وعقيدة الحكام، ثم معرفة الازدهار في ضرب تالك النقود.

5) الاشارة الى مسار التجارة العالمية في حقبة معينة من الزمن.

6) متابعة التأثيرات الاقتصادية الاجمالية ضمن للدول والامبراطوريات.

7) تصنيف وجمع ما هو مسجل في كتب التاريخ عن النقود وسكها ودور صناعتها.

8) اعداد جداول تتضمن اشارات المؤرخين والجغرافيين الى الاحداث الاقتصادية.

9) تنظيم الأرشيف الوثائقي المتعلق بالمسكوكات والمعادن. لأهميته عند دراسة طرز الكتابة والنقوش النقدية.

10) العمل على اعداد خارطة يمكن تسميتها بخارطة المسكوكات التي نقترح أن تتضمن وتبين حدود توغل وانتشار كل نقد ومعدن ومدى تداولها عبر الحدود الجغرافية والسياسية، ثم عبر الفترات التاريخية. ونتوخى من اعداد مثل هذه الخارطة، تمييز مناطق التعامل بالنقد وغيره أو التعامل بهما معا. كما كان يوجد هذا النوع من التعامل بغير النقد عند الاغريق من خلال وثيقة تعود للقرن الرابع ق.م. والتي تشير الى اتخاذ الثور وحدة نقدية في التبادل باعتبار الثور = دراخمين من الذهب[4]. وهذا يؤدي بنا الى استخلاص:

ان العادات والتقاليد الاجتماعية والاطار التفكيري لأفراد وجماعات ذلك العصر، تلعب دورا هاما في مثل هذا التعامل. ولا شك في أن أخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار عند دراسة النقود، سيحقق قيمة علمية اضافية عند دراسة النقود التحليلية. ويمكننا تسمية ذلك بنقد المصادر الاقتصادية من منابعها ومصادرها.

وانطلاقا من هذه الحقيقة يمكننا القول في نطاق استعمال النقود وتداولها قديما، بأنها قد تكون مستعملة ومعروفة عند التاجر ولكنها مجهولة لدى الفلاح النائي، نظرا لطبيعة علاقات كل منهما في اطار احتكاكه بالوسط الذي يعايشه. وهذه الحقيقة تشابه كثيرا محدودية استعمال الصكوك والحوالات المصرفية في كثير من بلدان العالم الثالث حتى يومنا هذا. فهي مستعملة في الأوساط المصرفية والتجارية ولكنها نادرة على صعيد المواطنين كمجموع.

ولا بد ان نذكّر هنا بتاريخ ظهور أول نقد للتعامل، حيث كان في مراكز المدن التجارية الكبرى مثل صور وصيدا في المشرق وقرطاجة بالمغرب، وذلك خلال القرن الخامس ق.م. واستعملها الأخمينيون في القرن السادس، والاغريق في القرن السابع. بينما عرفت مصر أول نقد لها في زمن غزو الاسكندر لها.

أما مسألة ظهور أول نقد اسلامي، والظروف السياسية والاقتصادية التي تحكمت في فشله أولا (مبادرة الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ)، ومن ثمة نجاحه وبروزه كأساس للنظام المالي الدولي خلال عدة قرون[5]. حيث النقود الأموية المكتشفة في البلدان الاسكندنافية خير دليل على مدى انتشارها والتعامل بها. وتلك ظاهرة تثبت حقيقة السيادة النقدية المرتبطة بالسمعة السياسية والعسكرية والاقتصادية للدولة العربية ـ الاسلامية، حتى مرحلة الانحطاط.

ونورد على سبيل المقارنة سيادة الدولار للموقف الاقتصادي الدولي حتى عام 1962، حيث بدأ تدهوره نتيجة تدهور سمعة الولايات المتحدة سياسيا وعسكريا، بسبب تورطها في حرب الفيتنام، وما تلا ذلك من أزمتي عام 1969 و1973، واللتان كادتا أن تؤديا بجبروت هذه الدولة الى الصفر لولا نجدة البترودولار الذي بدأ ينهال على بنوك أمريكا، مما أعاد الحياة لتلك العملة المحتضرة حينذاك لتعود فتصل القمة في يومنا هذا.

وما أحوج الموقف اليوم الى اعادة بناء نظام نقدي عربي قوي. أساسه الدينار الذهبي والدرهم الفضي بنسبة 20/1، لانهاء سيادة الدولار، كما فعل الدينار والدرهم الاسلاميان في الماضي عند انهائها لدور النومسما البيزنطي والدرهم الساساني من على مسرح السوق الدولية، وتلك هي سيادة الارادة المخططة المؤدية

الى اقامة قوة اقتصادية متكاملة ومتينة، وبها تتعزز الشخصية الوطنية التي نقصدها في هذا المقال.

مثال في نقود الجزائر : شاءت الصدفة أن يصطدم محراث فلاح جزائري بسيط في ربيع عام 1966، وهو يحرث أرضه ليزرعها، باكتشاف كنز وثائقي هام يعود الى ما قبل مئة وثلاثين عاما، وذلك في قرية قرب مدينة الأصنام، انها مجموعة تتألف من 497 مسكوكة نحاسية، تشير قراءة نصوصها الى أنها سكت لأمر دولة الأمير عبد القادر الجزائري بين الأعوام 1254 و1256 هـ (1836 ـ 1841 م)، مضروبة في (تاقدمت). هذا اضافة الى نقدين آخرين ضربا في عهد السلطان محمود بمدينة الجزائر سنة 1240 هـ (1824 ـ 1825 م)[٥] اذن ماذا يمكننا أن نستوحي من مثل هذا الاكتشاف العفوي الهام؟

انه يعني :

1. تأكيد معرفتنا بوجود دار لسك النقود بمدينة (تاقدمت)، الى جانب دار صناعة السلاح فيها. وهما المؤسستان الأساسيتان اللتان تبرهنان لنا على أن الأمير عبد القادر كان يتمتع بمقومات دولة يقودها رغم تواجد الاحتلال الأجنبي (1832 ـ 1841)..

2. ان انحصار تواريخ النقود المكتشفة، بين عامي 1254 و 1256 هـ، أمر طبيعي، لأننا نعرف أن قوات الاحتلال كانت قد غزت مدينة تاقدمت في 25 مايو 1841 واحتلتها ثم دمرتها بالكامل.

3. ان اكتشاف هذه المجموعة من الوثائق داخل اناء فخاري قرب مدينة الشلف (الأصنام سابقا) يعني ان القهر الاستعماري كان يستهدف أولا جمع كل وثيقة رسمية (بما فيها المسكوكات) يمكن أن تثبت في المحافل الدولية شرعية وجود دولة ذات كيان متكامل، فيمحو أثرها بالتدمير. وهذا بلا شك هو الذي دفع بمالك ذلك الكنز الى اخفائه في تلك الأرض المجهولة، بأمل العودة اليه بعد انكشاف غمة الاحتلال، الذي يبدو أنه كان يتوقعه، عاجلا أم آجلا، بحسه الوطني الثوري. كما ان هذه العملية تشرح لنا الحالة النفسية للشعب الجزائري في تلك الفترة من بداية الاحتلال وتؤكد المعنويات العالية لدى جماهير الشعب رغم بطش وقساوة جيوش الاحتلال.

4. ان اختيار الامير عبد القادر لبناء تاقدمت على أنقاض مدينة تاهرت التي أسسها عبد الرحمن بن رستم (144 هـ ـ 761 م) لهو أمر ذو دلالة تاريخية هامة، فهو محاولة للاصرار على تأكيد استمرارية حكم وطني (741 م ـ1841 م) واحياء لذكرى ودور الدولة الرستمية المعروفة.

5. ان الموقع الجغرافي والاستراتيجي الذي تحتله هذه المدينة (تاقدمت ـ تيارت)، بوقوعها عند ملتقى طرق الجزائر ـ مليانة في الشمال الشرقي ومستغانم ووهران في الشمال ومعسكر في الغرب والصحراء في الجنوب، لدليل واضح على الحس الاستراتيجي لدى رجل دولة مثل الأمير عبد القادر. رغم أنه كان ينشط في عين الوقت عند تخوم ولاية قسنطينة في الشرق.

6. ان اقتصار هذه النقود على المادة النحاسية، دون الذهب والفضة، لا يقلل من أهميتها الوثائقية البتة، بل يدلنا على وضعية الحصار العسكري والاقتصادي الذي كانت جيوش الاحتلال تفرضه على امارة فتية تناضل من أجل الثبات والبقاء.

7. ان النصوص الواردة في هذه النقود هي ذات دلالات تاريخية وعقائدية ووطنية بالغة الأهمية. فهي محاولة لتثبيت السيادة الوطنية شرعا، عن طريق ضرب السكة (حسب الشريعة الاسلامية، تكون الامارة قانونية بعد ضرب السكة باسم الأمير، وذكر اسمه في خطب الجمعة، والتي يبدو أنه تحاشاهما الأمير، بهدف جمع كلمة المقاومة الوطنية ضد الاحتلال واكتفى برفع شعارات يؤمن بها كل الشعب)، ومحاولة لخلق نظام نقدي موحد يشمل كافة القطر الجزائري. وهي أيضا عملة منظمة للتداول بموجب تقسيم مالي محسوب يتكون من صنفين، الأول هو (المحمدية) والثاني هو (النصفية)، أو ما يمكننا تسميته بالمئة دينار والخمسين دينارا (بعد مقارنة القوة الشرائية لها)، من خلال كتاب وشائح الكتائب.

كما وان عملية نشر العملة الوطنية للتداول كانت نوعا من التحدي لارادة المحتل في محاولة طمس الشخصية الوطنية الجزائرية. وبهذا يتوضح تفسير تحاشي الأمير في ذكر اسمه على المسكوكة والاقتصار على نصوص وشعارات تجمع الكلمة وتمنع الانصهار في بوتقة المستعمر، كما كان يريد ذلك. ومسألة سعة انتشار التعامل بنقود الأمير، على كافة التراب الجزائري، تثبتها الاكتشافات العديدة لهذه النقود وفي بقاع متباينة من أرض الجزائر، فهذه واحدة يكتشفها أيضا فلاح بسيط (نحاسية

مضروبة في تاقدمت عام 1256 هـ) قرب قسنطينة، وتلك تكتشف في تيبازة (نحاسية مضروبة في تاقدمت عام 1255 هـ)[8]. وثالثة تكتشف عند أسس مسجد مازونة (على بعد 45 كلم عن مدينة الشلف)، وبهذا النقد الأخير يمكن تقرير تاريخ بناء ذلك المسجد، ان افتقرنا الى معلومات أخرى عن تاريخه . وبه تتجلى أهمية ودور المنقب الأثري في هذا الميدان.

اذن، فانتشار نقود الأمير في مختلف المدن الجزائرية، وفي بقاع من تونس والمغرب، لهو ذو معنى كبير في تحليل النشاط السياسي والاقتصادي لدولة الأمير عبد القادر، الذي كان همه المحافظة على الهوية الوطنية للشعب ومنع محاولات صهر شخصيته.

ونختم هذا المقال بالنقطة الأساسية في نقود الأمير، وهي الشعارات المسجلة عليها، فنقرأ :

«ان الدين عند الله الاسلام» مضروبة في الأعوام 1250 ـ 1255 هـ، أي في الأعوام 1834 ـ 1839 م.

«ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين» مضروبة في عام 1256 هـ ـ 1840 م.

«حسبنا الله ونعم الوكيل» مضروبة في عام 1258 هـ ـ 1842 م.

«ومن يبتغي غير الاسلام دينا فلن يقبل منه» وهي فضية، يصعب قراءة تاريخها.

فلنناقش الآن الأسباب والدوافع الى اختيار الأمير عبد القادر للشعارات اعلاه. ونشرها على نقوده، بعد المقارنة والتحليل، نجد أن شعار «ان الدين عند الله الاسلام» كان هدف وعقيدة الجماهير، وهو السلام الأمثل لرفعه في وجه الأفكار التي حاول نشرها الاحتلال، كما رأينا في أقوال مؤرخهم الأول وروحه الصليبية المتعصبة (انظر ص 7ـ8)، وقد استمر رفعه منذ بدء حركة المقاومة (1250 ـ 1256 هـ ـ 1834 ـ 1840 م)، التي كان همها الأول صيانة الشخصية الوطنية للشعب.

أما شعار «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فيدلنا على العنف والمضايقة التي كان يمارسها الاحتلال لاضعاف معنويات الشعب ومقاومته له في عام 1258 هـ. وأخيرا شعار «ومن يبتغي غير الاسلام دينا فلن يقبل منه» ، وطرح هذا الشعار في المرحلة الأخيرة من مقاومة الأمير (1256 هـ ـ 1840 م) فقد جاء بعد أن نجحت قوى

الاحتلال في استمالة النفوس الضعيفة الى افكارها. وضيقت على المقاومة الوطنية الحصار العسكري والاقتصادي.

ونختم بالقول، تسعى الجامعة الجزائرية الى الاهتمام بالتنمية الثقافية وباللغة الوطنية، وتحث على وضع الأسس المتينة الوافية لضمان وحدة العمل والتطور المتوازن والمنسجم ، اضافة الى محاولة جني ثمار التكامل الفكري والحضاري بين التراث الغني والحضارة المعاصرة الحديثة.

الهوامش :

(1) أحمد طالب الابراهيمي، التجربة الجزائرية في الثورة الثقافية، مجلة الثقافة، عدد 8ـ9 (1972).

(2) محمد البشير الابراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء الثالث، قسنطينة (1955).

(3) L. Veuillot, Les Français en Algérie, éd. Centre Français, Paris, 1978, pp. 7-8.

(4) روجيه غارودي، حوار الحضارات، ص 129.

(5) A. Pietre, Les trois âges de l'économie, éd. Fayard. Paris, 1967, pp. 31-32.

M. Lombard, Monnaies et histoire, éd. Mouton, Paris, 1974, p. 7.

(7) هناك أيضا مجاميع من نقود الأمير عبد القادر، محفوظة في متاحف مدن: الجزائر ووهران ومتحف الباردو بتونس والمكتبة الوطنية بباريس، وهي تنتظر الباحثين لاستجلاء أسرارها.

(8) رغم أن هنري لا فوا، في فهرسته للنقود الاسلامية، يشير الى أن الأمير توجد له قطعتان فضيتان بالمكتبة الوطنية في باريس (أصدرهما في عامي 1840 ـ 1841 م).

(9) عبد الرحمن الجيلالي، حول سكة الأمير عبد القادر الجزائري ـ الجزائر 1966. ومنير بوشناقي ، سكة الأمير عبد القادر، الجزائر 1976.

ثانيا :

عرض : أطروحـات ـ كتب ـ محاضـرات

أ ـ الأطروحـات :

المسكوكات المغربية الاسلامية

(من الفتح الاسلامي الى عهد الدولة المرابطية)

عرض وتقديم : **محمد الطيب عقاب**

ان أهم ما يميز الحضارة الاسلامية، تنوع مصادرها المادية والتاريخية على حد سواء، وهي المصادر التي تعتمد عليها في تقويمها وتثبيت حقائقها التاريخية. كما أنها تساعد الباحث على ابراز وتوضيح الرؤية الصحيحة للتاريخ، فتوصله الى فهم ما يدور في خلد الدارس، والى كشف غوامض الأمور، وما أبهم على المؤرخين. كما تمكن المشتغل بالتاريخ من إماطة اللثام عن كثير من الجوانب المخفية في الحضارة الاسلامية.

ومن بين هذه المصادر المتنوعة نجد موضوع المسكوكات أو علم النميات، الذي يعتبر من المصادر المادية الأولى للتاريخ، بالاضافة الى كونه قد أصبح علما قائما بذاته، له قواعده الخاصة وطرائقه العلمية في البحث الأكاديمي. وهو العلم الذي يرتبط أساسا بشؤون الدولة، فيه يتمكن الدارس من معرفة قوة أو ضعف دولة من الدول، وكذا تبعيتها لدولة دون أخرى، أو انفصالها عنها كما ان علم النميات يقدم للدارس كثيرا من المظاهر الثقافية والاجتماعية، فضلا عن الناحية الاقتصادية التي هي موضوعه الخاص. ففي المجال الثقافي ـ مثلا ـ يستخرج الباحث أنماطا من الكتابات المعروفة في الحضارة الاسلامية.

في هذا الاطار اهتم الاستاذ صالح بن قربة بموضوع المسكوكات، بحثا

ودراسة، خاصة وان المكتبة العربية الجزائرية شاغرة من هذا النوع من الدراسة، اضافة الى أن هذا الموضوع غير مطروق بصورة جدية، كما أوضح ذلك الباحث. لذلك تفرغ لدراسة المسكوكات المغربية الاسلامية من الفتح الاسلامي الى نهاية الدولة المرابطية. فنال بهذا الموضوع شهادة الدكتوراة من السلك الثالث، من معهد التاريخ، دائرة الدراسات التاريخية سابقا، وذلك في بداية سنة 1984.

والرسالة تحتوي على ثلاثة أقسام رئيسية: يشتمل القسم الأول على المسكوكات المغربية من الفتح الاسلامي في بلاد المغرب)، ويضم خمسة فصول، عنوان الباحث الفصل الأول بالأساليب الصناعية وطرزها، والمسكوكات التي تحمل اخطاء في طريقة صناعتها ، والمواد المستعملة في صناعة المسكوكات. وقد اعتمد الباحث في ذلك على مخطوط (الدوحة المشبكة في ضوابط دار السكة)، لأبي الحسن علي بن يوسف. أما الفصل الثاني فتضمن دراسة مفصلة للنقود المغربية في عهد الولاة التابعين للأمويين، مع الاشارة الى التحويرات التي طرأت عليها خلال هذه الفترة، وقد اهتم الباحث بأول دينار ضرب في بلاد المغرب، وهو العائد الى سنة 101 هـ. وليس الى سنة 102 هـ كما تذكر المراجع عن ذلك. وكان الفصل الثالث قد تضمن المسكوكات الفضية والنحاسية للمغرب الأسلامي، ومعظمها يعود الى فترة الولاة التابعين والمنضوين تحت لواء الدولة العباسية، ولاحظ الباحث التغييرات التي أدخلت على عملة هذه الفترة ، وأبرز بالخصوص ما تحتويه من شارات وأسماء الأمراء في المنطقة، وهو ما يدل على استقلالهم كأمراء يتصرفون في حدود الأقاليم البعيدة عن العباسيين. بينما خص الباحث الفصل الرابع من الرسالة للسكة الذهبية الأغلبية بافريقيا (تونس) ، وذلك منذ فجر ظهورهم (أي الأغالبة) على مسرح الأحداث بالمنطقة. وهو ما يدل دلالة قاطعة على استقلاليتهم عن العباسيين بدون الرجوع الى الخليفة العباسي، وذلك من خلال ما تضمنته النقود من أسماء للولاة الأغلبيين، وكذا لأسماء علماء افريقية. أما الفصل الخامس والأخير من القسم الأول، فقد ركز فيه الدارس على العملة الفضية الأغلبية المضروبة في كل من افريقية وصقلية، دون أن ينسى ما جدّ فيها من تغييرات تاريخية وفنية، ثم التطرق الى دراهم ابراهيم بن أحمد، تلك الدراهم التي كان لها صدىً قويا في الأوساط التجارية بوجه خاص.

وتطرق الباحث في القسم الثاني، الذي يحتوي على أربعة فصول، الى المسكوكات الفاطمية في الدور المغربي، تضمن الفصل الأول الأوضاع العامة بالمغرب الاسلامي على عهد الفاطميين ثم انتقل الى دراسة نقود أبي عبد الله الشيعي، المضروبة في القيروان، وما أثارته من تساؤلات لدى الدارسين، نتيجة خلوها من أسماء أصحابها. والذي يشد الانتباه في هذا الفصل اقتناع الباحث بأن الخليفة الفاطمي عبيد الله لم يكن هذا اسمه، بل هو عبد الله، حسبما هو منقوش على المسكوكات العائدة الى هذه الفترة، والتي تحمل اسمه طبعا، وهذا خلافا لما تذكره المصادر والمراجع التاريخية، كما تضمن الفصل الثاني دراسة لدنانير كل من القائم بالله والمنصور بالله، والمعز لدين الله. وقد لاحظ الطالب ان هذه العملة تختلف تمام الاختلاف عن المسكوكات الذهبية الأغلبية، وأنهى الطالب هذا الفصل بذكره لعملة المعز الدعائية، استعدادا منه للرحيل والانتقال الى القاهرة. أما في الفصل الثالث فقد كرسه الطالب لدراسة دراهم الفضة الفاطمية، ولاحظ أنها لم تكن تختلف عن النقود الذهبية للفواطم، الا أنه أبدى تأسفه من الالمام لمظانها، نتيجة ما اعتراها من تآكل وصدأ. وانتقل بعد هذا الفصل الى الفصل الرابع ليدرس نقود الثوار في هذا العصر، وخصوصا نقود أبي يزيد مخلد بن كيداد، المضروبة في القيروان، وكذلك نقود الأمير السجلماسي والملقب بالشاكر لله، الثائر على الفاطميين بالمغرب. وقد استطاع هذا الأمير أن يسك نقودا ذهبية باسمه. وقد صحح الباحث تاريخ انتحال هذا الأمير لقب الشاكر لله وهو سنة 340 هـ، وليس كما كان ذائعا بسنة 342 هـ.

أما القسم الثالث، الذي اشتمل على أربعة فصول أيضا، فقد عنونه الباحث بالمسكوكات المغربية على عهد الزيريين والحماديين والمرابطين. عالج ظهور السكة الذهبية الزيرية، في الفصل الأول، وركز بوجه خاص على دنانير الأمير الصنهاجي المعز بن باديس ، لاعتقاد الطالب بأنها تمثل منعطفا حاسما في صناعة وضرب السكة بالمغرب الاسلامي. وتضمن الفصل الثاني النقود الحمادية، فأكد الطالب أن الحماديين لم تكن لهم نقود مستقلة، وفي الفصل الثالث وضع الباحث مقدمة تاريخية عن المرابطين، ثم تطرق الى دراسة دنانيرهم المضروبة في المغرب والاندلس، وعالج أيضا مشكلة التلقيب (بأمير المسلمين) على نقودهم ، وابرز أهم الظواهر التي استحدثت

في هذه السكة، وخاصة قضية استبدال بعض الكلمات بأخرى، خاصة منها الشعارات الدينية. واستكمل الدارس دراسته لنقود المرابطين بما وضعوه من النقود الفضية سواء في المغرب أو في الاندلس. ولاحظ الطالب أن هذه النقود الفضية لا تحتوي أسماء الخلفاء العباسيين، مثلما هي منقوشة على العملة الذهبية. وكان مسك الختام للقسمين المذكورين خاتمة ، ضمنها بعض النتائج التي ذكرناها في متن هذا العرض الموجز.

والرسالة غنية بموضوعها ، تحتوي على دراسة دقيقة لاجزائها، مرفوقة بجداول تفصيلية عن بعض العناصر التي تتضمنها المسكوكات: من حجم ووزن وتأريخ. الا أنها تفتقر الى خلفية تاريخية للمسكوكات والتعريف بكل مصطلحات العملة والآراء الفقهية، وتخريج تفاصيل الكتابات المنقوشة وابرازها أو تكبيرها ، للمساعدة على معرفة تطور تاريخ الكتابة العربية.

العلاقات بين الجزائر والمغرب

(1517 ـ 1659)(*)

عرض وتقديم : **عمر بن خروف**

ان موضوع العلاقات، أيا كان نوعها، موضوع هام في التاريخ، لأنه يمثل العنصر الأكثر حركية فيه، وبالتالي فهو يكون عنصر الربط بين أحداث التاريخ التي قد تبدو متناقضة. وقد كان بحث العلاقات في التاريخ يقتصر غالبا، وحتى الفترة القريبة على دراسة العلاقات السياسية والدبلوماسية بين الدول، وهذا ناجم عن الاهتمام بالتاريخ السياسي، دون أنواع التاريخ الأخرى. ولكن خروج الدراسة التاريخية الى حيز مجموع حياة المجتمعات، دفع الدراسة الى أن تأخذ مجراها في ميدان الاقتصاد، وجميع نواحي الحياة الاجتماعية، وعلى هذا فدراستي للعلاقات بين الجزائر والمغرب لم تقتصر على العلاقات السياسية وانما شملت أيضا العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ولكن لا بد لي أن أقر بأن الذي وجهني الى اختيار الموضوع كان في بادئه المنحى السياسي، وبالذات التساؤل المثير الذي كان وما يزال يطرحه كثير من القراء والمؤرخين والباحثين، وهو لماذا لم تسيطر الدولة العثمانية على المغرب، بعد امتداد نفوذها الى الجزائر المجاورة لها؟ لقد قادني البحث عن الجواب على هذا السؤال الى البحث في العلاقات بين المغرب والجزائر، ذلك ان العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب في الفترة مدار البحث،كانت في قسم كبير منها علاقات بين المغرب والجزائر التي غدت

(*) رسالة ماجستير في التاريخ المغربي الحديث، نوقشت في كلية الآداب بجامعة دمشق ـ نوفبر 1983.

بعد انضوائها تحت لواء الدولة العثمانية تمثل مقدمتها في الحوض الغربي للمتوسط وشمال افريقيا، وكان حكامها ولا سيما البايلربيات منهم، هم الذين ينفذون بل ويرسمون أيضا سياسة الدولة العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط، وتجاه المغرب بالذات، ويعملون على تحقيق أهدافها ومراميها فيه. ومن ثم زاد اهتمامي ببحث العلاقات بين البلدين المتجاورين.

وقد اتضح لي أن الفترة 1517ـ1659 م هي مرحلة هامة في تاريخ العلاقات بين البلدين، لأن العلاقات بينهما في هذه المرحلة لم تكن ذات طابع محلي فقط، وانما اكتسبت طابعا دوليا، دخلت فيها قوى عديدة منها الدولة العثمانية، ودول أوروبية كثيرة، منها الامبراطورية الجرمانية المقدسة، واسبانيا، والبرتغال، وانكلترا، وفرنسا. وكان لهذه القوى تأثيرها الكبير في تلك العلاقات. وهذا التعقيد في العلاقات كان أحد الدوافع لاختيار موضوع العلاقات في الفترة المشار اليها موضوعا لرسالتي هذه، بغية اكتشاف خفايا تلك العلاقات وغوامضها، وتوضيح تعقيداتها.

وقادني البحث في العلاقات السياسية الى الخوض في مجموع العلاقات بين البلدين لمعرفة مدى تأثيرها وتأثرها. على أن ما زادني رغبة في الخوض في العلاقات بين البلدين في هذه المرحلة بالذات هو انني وجدت أن العلاقات بصفة عامة، والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بصفة خاصة غير مدروسة، أو لم يتطرق الى جميع جوانبها، ولم تدرس على امتداد الفترة مدار البحث، وحدة واحدة.

وقد رأي بحث العلاقات بين البلدين على امتداد نحو قرن ونصف لاعتبارات ثلاثة :

أولها : ان الامتداد الزمني الطويل نسبيا يتيح امكانية ملاحظة تطور العلاقات بين البلدين في مختلف أطوارهما أي في حالات الضعف والقوة، وحالات الاضطراب والاستقرار وحالات الوحدة والتجزؤ.

ثانيا : ان العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تتطور ببطء ولا يمكن ملاحظة ذلك التطور الا في فترة طويلة نسبيا.

وثالثا : الرغبة في دراسة العلاقات في المرحلة التي كان فيها المغرب تحت حكم السعديين منشيئا بالاستقلال عن الدولة العثمانية، بينما كانت الجزائر مرتبطة ارتباطا

وثيقا بهذه الدولة ومخططاتها تجاه المغرب وغيره، أكثر من أي مرحلة أخرى.

أما اختيار سنة 1517 بداية للمرحلة المراد بحثها، وليس سنة 1509، التي شهدت قيام الدولة السعدية في المغرب، أو سنة 1514 التي شهدت بداية استقرار الوجود العثماني على الأرض الجزائرية، أو سنة 1519 التي انضوت فيها الجزائر تحت لواء الدولة العثمانية ، فيعود الى أن سنة 1517 كانت السنة التي ابتدأت فيها العلاقات بين حكام الجزائر العثمانيين، وحكام المغرب بشكل معروف وموثق، وذلك بالعلاقات التي أنشأها عروج (بربروس) مع السلطان الوطاسي أبي عبد الله محمد، المعروف بالبرتقالي، وذلك في أعقاب امتداد حكم عروج الى تلمسان في هذه السنة، كما انها كانت السنة التي آل فيها الحكم في الجنوب المغربي الى السلطان السعدي أحمد الأعرج، الذي فتح أيضا باب العلاقات مع الأتراك العثمانيين. وأخيرا فان سنة 1517 كانت السنة التي شهدت امتداد النفوذ العثماني الى أجزاء كثيرة من الوطن العربي ، في غربي آسيا وشمالي افريقيا، وأخذت الدولة العثمانية تطمح الى ضم المغرب العربي اليها بعد أن نجحت في ضم المشرق العربي؟

أما اختيار سنة 1659 م نهاية للمرحلة مدار البحث فلأن هذه السنة تتوافق تماما مع السنة التي انهار فيها حكم السعديين في المغرب ، وحكم الباشوات في الجزائر، فدخل البلدان في مرحلة جديدة تختلف عن سابقتها.

وفي ضوء دراسة العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المرحلة المشار اليها رأي تقسيم الموضوع الى ثلاثة أبواب وخاتمة.

وقد خصص الباب الأول لدراسة العلاقات السياسية، أما الباب الثاني فخصص لدراسة العلاقات الاقتصادية. وتناول الباب الثالث والأخير بحث العلاقات الاجتماعية والثقافية.

وبالنسبة للعلاقات السياسية، كان من الضروري معرفة بنية الحكم السياسي في كل من البلدين ومعرفة كل الدقائق عن الشخصيات الحاكمة فيهما بالذات، لأن تلك الشخصيات لعبت دورا هاما في تلك العلاقات، ولذلك فقد خصص لدراسة الحياة السياسية في البلدين فصلان كاملان من جملة الفصول الستة التي ضمها باب العلاقات السياسية.

تناول الفصل الأول بالبحث الحياة السياسية في الجزائر، بينما تناول الفصل الثاني بالبحث الحياة السياسية في المغرب. وقد تبين منهما أن المرحلة مدار البحث مرحلة هامة في تاريخ القطرين، اذ شهدت قيام حكمين جديدين في البلدين، حكم الاتراك العثمانيين في الجزائر، وحكم الأشراف السعديين في المغرب، خلفا للوحدات السياسية، والقوى العديدة التي كانت قائمة فيهما، وأهمها:

الوطاسيون في المغرب ، والزيانيون والحفصيون في الجزائر، تلك القوى التي بان عجزها عن مقاومة الغزو البرتغالي والاسباني، ففقدت نتيجة لذلك شعبيتها، وانهارت تدريجيا، فاسحة المجال للحكمين الجديدين اللذين عملا ـ قبل أن يدب الضعف اليهما ـ على مواجهة ذلك الغزو وايقافه، وتحرير مواقع ومدن عديدة، من احتلال الغزاة الاسبان والبرتغاليين، كما عملا على توحيد أجزاء البلدين ثم على توحيد البلدين ذاتهما تحت حكم واحد، ولكن الهدف الأخير لم يتأت لأي من الحكمين.

وتبدي من التفصيلات التي وردت في هذين الفصلين الرابطة الوثيقة والمتبادلة بين تلك الأوضاع الداخلية، وتطور العلاقات بين البلدين، بحيث يمكن تقسيم تطور تلك العلاقات السياسية الى أربع مراحل بحسب تغير الأوضاع في البلدين، والسمات الأساسية لتلك العلاقات ، من سلم أو حرب، أو توتر أو فتور، أو تحالف أو تخالف. وقد خصص لكل مرحلة من المراحل فصل خاص. فالفصل الثالث تضمن المرحلة الأولى التي تمتد من سنة 1517 الى سنة 1549 م. وهذه الفترة تتوافق بدايتها تقريبا مع قيام حكم السعديين في المغرب ، وحكم الأتراك العثمانيين في الجزائر. أما نهايتها فمع انفراد السعديين بالحكم في المغرب وانفراد الأتراك العثمانيين بالحكم في الجزائر.

وفي هذا الفصل تناولت العلاقات بين القوى السياسية المتشعبة في القطرين ، فدرست خاصة العلاقات بين الزيانيين والوطاسيين، والعلاقات بين الزيانيين والسعديين، ثم العلاقات بين الاتراك العثمانيين والوطاسيين، وأخيرا العلاقات بين الأتراك العثمانيين والاشراف السعديين، دون أن أغفل في اثناء دراسة العلاقات بين تلك القوى الاشارة الى تأثيرات القوى الخارجية ولا سيما الاسبان والبرتغاليين الجاثمين على شواطئ الجزائر والمغرب على تلك العلاقات.

وقد ثبت من الدراسة ان العلاقات بين القوى الأربع الاسلامية المذكورة لم

ترق الى التعاون الحقيقي المفترض أن يحصل بينها، وعرضت الى النتائج التي نجمت عن ذلك. وأهمها:

ـ استمرار الاسبان والبرتغاليين في احتلالهم لمواقع عديدة في البلدين.
ـ الانهيار التدريجي للوطاسيين في المغرب والزيانيين والحفصيين في الجزائر.
ـ وعدم توحد البلدين تحت سلطة واحدة.

أما الفصل الرابع فتضمن المرحلة الثانية التي تمتد من سنة 1549 الى 1574 م، وهذه الفترة تتوافق بدايتها مع انفراد السعديين بالحكم في المغرب وانفراد الاتراك العثمانيين بالحكم في الجزائر، بينما تتوافق نهايتها مع نهاية حكم السلطان السعدي عبد الله الغالب بالله، بن محمد الشيخ، وحكم الباشا أحمد اعراب في الجزائر، ومع ضم العثمانيين لتونس، الذي كان له أثره على العلاقات بين الجزائر العثمانية وبين المغرب السعدي، حيث تفرغ العثمانيون بعد الانتصار في تونس الى قضية المغرب وأصبح محور اهتمامهم.

وفي هذا الفصل تناولت العلاقات بين البلدين التي تميزت بالعنف في بداية الفترة،والسلم الحذر في نهايتها. فبحثت في الأسباب التي جعلت العلاقات بين البلدين تتطور في اتجاه النزاع بدل التعاون. واتضح أن أهمها رفض السعديين الانضواء تحت لواء الدولة العثمانية، ورغبتهم في مد نفوذهم الى الجزائر والمشرق، تقليدا للاشراف الفاطميين الذين انطلقوا من المغرب نحو المشرق وثبتوا خلافتهم فيه، ولتحقيق أهدافهم الاقتصادية والسياسية، تلك الرغبة التي اصطدمت برغبة حكام الجزائر في مد نفوذهم الى المغرب،تحقيقا أيضا لأهدافهم السياسية والاقتصادية والاستراتيجية، وأهمها وحدة العالم الاسلامي تحت نفوذ الدولة العثمانية وقبل ذلك وحدة المغرب العربي الاسلامي.

وتطرقت بالتفصيل الى التدخلات العسكرية السعدية في الجزائر، والتدخلات العثمانية في المغرب، وما نشأ عنها من اصطدامات عنيفة بين القوتين الاسلاميتين المتجاورتين، وما تخللها من سفارات بين الجزائر، والدولة العثمانية من جهة، وبين المغرب من جهة أخرى، لاقامة السلام وتوحيد الصفوف ورسم الحدود ، ومفاوضات سرية بين السعديين والاسبان، كانت تستهدف التعاون للقضاء على الوجود العثماني في الجزائر، ذلك الوجود الذي كان يشكل خطرا على الطرفين،

وأخيرا ما تلا تلك التدخلات من قيام سلام قلق بين البلدين في السنوات الأخيرة من هذه المرحلة.

وأما الفصل الخامس فتضمن المرحلة الثالثة التي تمتد من 1574 الى 1587 ، وهذه الفترة تتوافق بدايتها مع استلام المتوكل على الله الحكم في المغرب خلفا لوالده عبد الله، ومع الولاية الأولى لرمضان باشا (1574 ـ 1577) نائبا عن العلج علي في الجزائر، ومع ما ذكر عن نهاية المرحلة السابقة وتتجسم نهايتها مع نهاية عهد البايلربايات في الجزائر (1587).

وهذه المرحلة تميزت باستئناف الأتراك العثمانيين التدخل المباشر في المغرب أو التهديد القوي له بعد أن حسموا صراعهم مع الاسبان على تونس في 1574 لصالحهم. وأصبح طريق الامدادات من عاصمة الدولة العثمانية الى الجزائر أكثر أمنا. كما تميزت بميل حكام المغرب وخاصة منهم المتوكل ثم عبد الملك الى القبول بنوع من السيادة العثمانية، وهو ما لم يقبله من سبقهما، ورفضه من تلاهما.

وفي هذا الفصل أشرت الى عرض السلطان محمد المتوكل الذي أبدى فيه استعداده لقبول السيادة العثمانية، ثم عرضت الى الحملة الجزائرية العثمانية على المغرب في سنة 1576 تلك الحملة التي نصبت عبد الملك السعدي سلطانا في فاس معترفا بالسيادة العثمانية. وأشرت الى المخاوف الكبيرة التي أثارها امتداد النفوذ العثماني الى المغرب بهذه المناسبة لدى الاسبان والبرتغاليين. وتقرب عبد الملك من الاسبان توطئة لطرح السيادة العثمانية، كما أشرت الى الحملة البرتغالية التي استهدفت احتلال المغرب لتطويق خطر امتداد النفوذ العثماني اليه. على بلادهم. وعلى ملاحتهم على الأطلسي تلك الحملة التي انتهت بالانتصار المغربي الساحق في معركة وادي المخازن، ثم تطرقت الى الحديث عن مواقف أحمد المنصور، أقوى السلاطين السعديين وأشهرهم. وخليفة عبد الملك، الرافضة للاعتراف بالتبعية للسلطان العثماني مراد الثالث. وللتحالف معه، ومصاهرته، تلك المواقف التي جعلت هذا الأخير يجرد حملة ضخمة لغزو المغرب. وألممت بأسباب تراجعه عن غزوه بعد أن حرك الحملة، ووصلت هذه الأخيرة الى الجزائر، وما تلا ذلك التراجع من اعتراف الدولة العثمانية بالأمر الواقع في المغرب أي بالمغرب، دولة ذات سيادة، وبالمنصور سلطانا مستقلا فيه. ومن قيام سلام حذر بين الدولتين الى أن توفي العلج علي بايلرباي الجزائر وقائد

الأسطول العثماني، الذي كان متحمسا لغزو المغرب، وذلك في سنة 1587، واستبدل نظام البايلربايات في الجزائر بنظام الباشوات.

وتضمن الفصل السادس وهو آخر فصل في باب العلاقات السياسية، المرحلة الرابعة التي تمتد من 1587 الى 1659 أي في الفترة التي تتوافق بدايتها مع بداية عهد الباشوات في الجزائر ونهايتها مع نهاية عهدهم، ومع سقوط الدولة السعدية في المغرب. وقد عرضت في هذا الفصل أولا الى العلاقات بين حكام الجزائر والمنصور، ثم علاقاتهم مع أبناء هذا الأخير وحفدته، وعلاقاتهم مع القوى السياسية المختلفة التي قامت في المغرب من غير السعديين كأندلسي سلا، والمجاهد العياشي ومقدمي تطوان، ومرابطي الدلاء وأخيرا الاشراف العلويين.

وقد بدا من دراسة تلك العلاقات أن حكام الجزائر الباشوات الذين كان عهدهم عهد اضطراب شبه دائم في مدينة الجزائر وخارجها أيضا، قد مالوا أكثر فأكثر الى اقامة علاقات سلام وحسن جوار مع المغرب خاصة في عهد المنصور. أما بعد المنصور فان حكام الجزائر الذين لم تساعدهم ظروفهم للتدخل القوي المباشر فيه، قد مالوا الى تشجيع التجزؤ والانقسام فيه، حتى لا تتجه أنظار حكامه الى الجزائر التي كانت كما ذكر تعيش في اضطراب يكاد يكون مزمنا، وذلك باقامتهم لعلاقات وطيدة مع المنشقين عن السعديين كالعياشي، واندلسيي سلا، والدلائيين، وتعاونهم معهم. ولكن نوعا من السلام ظل مرعيا حتى العقد الأخير من الفترة مدار البحث، اذ شهد هذا العقد تجدد النزاع بين أتراك الجزائر والاشراف العلويين الذين كانوا حينئذ يطمحون الى تأسيس مملكة واسعة.

أما الباب الثاني من الرسالة وهو الباب الذي خصص للعلاقات الاقتصادية فلم يجر فيه السير بنفس النهج التفصيلي الذي اتبع في باب العلاقات السياسية لأن البنية الاقتصادية والعلاقات الاقتصادية، كما اتضح من استكشافها بطيئة التحول، وعلى هذا الأساس فقد قسم هذا الباب الى فصلين فقط، تناول أولها بالبحث البنية الاقتصادية في البلدين، والعوامل المؤثرة فيها. وقد تبين من هذا الفصل أن البنية الاقتصادية في البلدين متشابهة الى حد كبير لخضوعها الى عوامل داخلية وخارجية، قديمة. وجديدة واحدة، أو متشابهة، ثم تناولها واستعراضها بالتفصيل. وقد جعل

ذلك التشابه التبادل الاقتصادي بين البلدين ضعيفا. قياسا مع مبادلات البلدين مع الدول الأوروبية التي يتكامل انتاجها أو لا يتشابه. بحيث يمكن القول إن الجزائر لم تكن السوق الأولى للمغرب . ولا المغرب كان السوق الأولى للجزائر.

أما الفصل الثاني من باب العلاقات الاقتصادية فتناول بالعرض مظاهر تلك العلاقات في الحقول الاقتصادية المتنوعة. الزراعة والصناعة والتجارة. وقد اتضح منه وجود صلات بين العاملين في تلك الحقول، ظهر أثرها في التطابق والتشابه الكبيرين، في الطرق والأساليب المتبعة في البلدين، في حقول الزراعة وتربية الماشية، والصنائع والحرف.

أما العلاقات في المجال التجاري التي بدا أنها لم تأخذ صبغة سياسية، ولم تخضع لاتفاقيات رسمية فتم تناولها ضمن الفقرات التالية :

طرق المواصلات بين البلدين ، والقوافل التجارية المتبادلة بينهما، والمواد التجارية المتبادلة ووسائل التبادل ، وأخيرا مراكز التبادل التجاري.

وقد ظلت العلاقات الاقتصادية ـ على ضعفها ـ عامل وصل وتلاق بين البلدين، تدعم ايجابيا العلاقات الاجتماعية، والثقافية، وتتجاوز العلاقات الساسية، اذ ظلت تجري في السلم وفي الحرب.

وأما الباب الثالث والأخير من الرسالة، الذي خصص للعلاقات الاجتماعية والثقافية، فقد اتبع فيه نفس النهج الذي اتبع في الباب السابق له. فضم فصلين، تناول أولها العوامل المؤثرة في العلاقات الاجتماعية والثقافية، قديمها وجديدها. فأشير ضمن العوامل القديمة الموروثة الى الروابط العديدة التي كانت وما تزال تربط بين المجتمعين المغربي والجزائري ربطا قويا. ومن هذه الروابط الروابط الجغرافية حيث لا حواجز طبيعية تفصل بينهما. والروابط البشرية، وأعني بها الأصول الواحدة لسكان البلدين والروابط التاريخية، حيث كان المجتمعان مرات عديدة وخلال فترات طويلة تحت حكم واحد، والروابط الدينية واللغوية والثقافية، حيث السيادة المطلقة للدين الاسلامي والمذهب المالكي والثقافة العربية الاسلامية.

وأشير ضمن العوامل القديمة ـ الجديدة الى استمرار حركة الهجرة والتنقل بين البلدين دون قيود للافراد والجماعات لمختلف الاغراض،والى استمرار تدفق المهاجرين

الاندلسيين الى البلدين وذلك حتى العقدين الأولين من القرن 11 هـ ـ 17 م، وانتشار مؤثراتهم في مختلف الميادين في البلدين ونشاطهم في فعاليات مختلفة فيهما.

أما ضمن العوامل الجديدة، فأشير بصفة خاصة الى الغزو الاسباني للجزائر، والغزو البرتغالي ـ الاسباني للمغرب، ذلك الغزو الذي نجمت عنه آثار كانت في مجملها سلبية التأثير عل الحياة الاجتماعية والثقافية في البلدين، والعلاقات بينهما في هذين المجالين.

كما أشير ضمن العوامل الجديدة أيضا الى قيام الحكم العثماني في الجزائر، والحكم السعدي في المغرب، وأثرهما وتأثيرهما في العلاقات الاجتماعية والثقافية.

وتناولت في الفصل الثاني مظاهر العلاقات الاجتماعية والثقافية، فأشرت بصفة خاصة الى حركة الهجرة والتنقل التي لم تكن فقط عاملا من العوامل الايجابية التأثير في العلاقات ، وانما أيضا مظهر من مظاهر تلك العلاقات. والى ما نشأ عن حركة الهجرة والتنقل بين البلدين من وجود جالية جزائرية في المغرب، وجالية مغربية في الجزائر. وتملك بعض الجزائريين في المغرب، وبعض المغاربة في الجزائر للاقطاعات، وقيام المصاهرات بين هؤلاء وأولئك.

وتحدثت أيضا عما نشأ عن هجرة المثقفين وتنقلهم بين البلدين للأخذ أو العطاء أو للغرضين معا، أو لغير ذلك من الأغراض، من إعمار للمراكز الثقافية في البلدين، بالعلماء ، والطلبة المغاربة والجزائريين، ومن مناقشات فكرية ودينية بين علماء البلدين، ومراسلات بين العلماء وبين العلماء والطلبة، وبين المرابطين، والمستصوفة ومريديهم.

وعرضت في الأخير الى المراكز التي كان يجري فيها التبادل الثقافي ، وهي التي كانت أيضا مراكز للتبادل في الحقول الأخرى. فعددت أهمها، وابرز علمائها، فركزت في المغرب على المراكز التي استقبلت الكثير من علماء الجزائر، وأهمها: فاس ومراكش وتطوان وسجلماسة وتارودانت. وفي الجزائر ركزت على أهم المراكز الثقافية التي كان يقصدها علماء المغرب وطلبته، وهي تلمسان والجزائر وقسنطينة وزواوة ، وأتيت بتراجم مختصرة لبعض أولئك العلماء والطلبة، تناولت مساهماتهم، وعرفت بمكانتهم لدى عامة الناس وخاصتها في تلك المراكز. ولم أغفل الاشارة الى مركز هام للمبادلات الثقافية بين البلدين يقع خارج القطرين، ألا وهو المشرق عامة، وخاصة

البقاع المقدسة، التي كان علماء البلدين وطلبتها يلتقون فيها للأخذ بعضهم عن بعض.

وقد تبين من دراسة العلاقات الثقافية ان تلك العلاقات لم تكتس طابع صراع فكري، كما انها لم تأخذ صبغة سياسية باتفاقيات ثقافية محددة، بل كانت علاقات حرة، طبيعية وعفوية، فرضتها عناصر الترابط الأصيلة بين البلدين من وحدة في العنصر والدين، ولغة الثقافة والقرب الجغرافي، والصلة الواحدة المنفتحة على العالم الاسلامي، ولذلك تجاوزت هذه العلاقات الاجتماعية والثقافية الأطر السياسية على الرغم من تبدلاتها، وكانت هي المؤثر الأقوى والأكثر ديمومة في العلاقات بين شعبي البلدين.

أما الخاتمة ، فاستعرضت فيها أهم النتائج والاستنتاجات التي توصل اليها البحث، وأبرزها:

ـ أولا ـ ان العلاقات بين الجزائر والمغرب في الفترة التي تناولها البحث كانت على نوعين :

• علاقات بين الشعبين، وهي علاقات ذات طابع عفوي، لم تتحكم فيها السلطات السياسية بشكل مباشر، ولم تخضع لمفاوضات ومعاهدات واتفاقيات، كما انها كانت موروثة من أجيال. وتتمثل بصفة خاصة في الصلات الاقتصادية والفكرية، بل والاجتماعية بين المجتمعين.

• وعلاقات بين الحكومات المتتالية بين البلدين، وهي على الخصوص العلاقات السياسية التي ترتبط بأهداف تلك الحكومات، ومصالحها السياسية، كالبحث عن أمنها وسلامتها، أو تدعيم قوتها ومد سيطرتها، أو الحفاظ على نفوذها وطيبتها، أو الحصول على مكاسب اقتصادية تبتغيها.. وهذه العلاقات بين الحكومات التي كانت تتأثر كثيرا بدور أولئك الأفراد القابضين على السلطة في البلدين ونواياهم وميولهم وتحركاتهم، هي التي تكون جزءا مما يطلق عليه عادة اسم التاريخ الدبلوماسي للبلدين.

وثاني ـ أبرز النتائج التي تضمنتها الخاتمة هي ان العلاقات بين الشعبين كانت هي الأقوى والأثبت من العلاقات الدبلوماسية بين الحكومات ، اذ ظلت العلاقات بين الشعبين على الرغم مما قيل عنها من نمو لمفهوم القومية المحلية في القطرين، وعدم

تمكنها من دفع الحكومات الى الارتقاء بالعلاقات السياسية إلى مستوى التوحد، بل وعدم التضامن أمام المشكلات الصعبة الواحدة، وأهمها الغزو الخارجي ، تجري بمجرى الترابط والتلاقي، وتدفع حكام البلدين مهما كانت أصالتهم الى التواصل بعد الافتراق ، والى السلام والتودد بعد الحرب.

وقد اتبعت الخاتمة ببعض الملاحق من الوثائق الأصيلة التي اعتمد عليها في البحث، وافتح هنا قوسين لأشير الى أنني قد رجعت في بحثي هذا الى مجموعة كبيرة من الوثائق الأصيلة المطبوعة وغير المطبوعة العربية والأوروبية وبعض المصادر العثمانية، شملت كتب التاريخ العام والتراجم والرحلات، واستندت في بحثي الى عدد غير قليل من المراجع الحديثة العربية والأوروبية، وبعض المراجع التركية المعربة، وكثير من المقالات في المجلات.

وقد بينت أهم تلك الوثائق والمصادر والمراجع والمقالات في الفقرة المخصصة للحديث عن أهم مصادر البحث. ولا بد أن أشير الى أنني لم أثبت كل المراجع التي تم الاطلاع عليها لأنني كنت قد عدت الى الأصول التي أخذت منها.

قصبة الجزائر

(القلعة وقصر الداي)

عرض وتقديم : **محمد الطيب عقاب**

تعتبر مدينة الجزائر من العواصم العالمية النادرة، التي حافظت على نسقها العمراني. بدءا من الفتح الاسلامي حتى سنة 1830. فهي بحكم موقعها الجغرافي الهام تعتبر واسطة العقد بالنسبة لبلدان المغرب الاسلامي. وقد أكسبها موقعها مناعة وحصانة من الهجمات الأوروبية الشرسة. طيلة ثلاثة قرون خلت. وهذه الحصانة والمناعة سمحت للسكان بالتمسك بكل ما هو اسلامي قبل أن يتمكن الفرنسيون من احتلالها في 5 جويلية سنة 1830.

وقد كانت تلك المحافظة الحافز القوي. لدراسة قصبتها من قبل الطالب علي خلاصي الذي تقدم برسالة جامعية. لنيل درجة دكتوراه الدرجة الثالثة في الآثار، في يوم 16 جانفي من سنة 1985. أمام لجنة مكونة من الأساتذة:

الاستاذ أبو القاسم سعد الله رئيسا. والاستاذ سامي حسن عضوا. والاستاذ محفوظ قداش عضوا، بالإضافة الى الاستاذ المشرف رشيد بوروبية.

في البداية أوضح الطالب دوافع اختياره لهذا الموضوع. فأكد بأن القصبة كانت بمثابة الدرع الواقي للشعب الجزائري من هجمات دول أوروبا المتكررة على الجزائر، خلال الفترة العثمانية. كما اعتبر الطلب القلعة أو القصبة وما تحتويه من القصور الفخمة من أجمل العمائر التاريخية في الجزائر على الاطلاق. ونفتح قوسا لنشير الى أن الطالب لم يذكر اعجاب واهتمام المؤرخين المسلمين أو غير المسلمين، بحصانة

موقع قصبة الجزائر. ولعل هذا الموقع الممتاز هو الذي سمح للاتراك العثمانيين بالبقاء في الجزائر مدة أكثر من ثلاثة قرون (1518 ـ 1830).

وتطرق الطالب الى المراحل التي قطعها لانجاز دراسته عن القصبة . فذكر بأنه قام بالبحث التاريخي، لمعرفة ما كتب عنها. قبل أن يشرع في العمل الميداني والبحث الأثري. وذلك من أجل رسم الاطار العام لتاريخ القصبة ومرافقها: المدنية والعسكرية. كما أوضح أيضا سير العمل في بحثه، وأكد ان اعتماده في ذلك كان بالدرجة الأولى على البحث الميداني، ثم تحليل مواد البناء وزخارفها في مخابر الشركة البولونية، التي هي بصدد ترميم هذه القصبة.

ثم أشار الطالب الى محتويات الرسالة، فذكر بأنها تحتوي على مقدمة تاريخية ومدخل، وأربعة أقسام. تضمنت المقدمة الخطوط العريضة لدوافع اختيار الموضوع، وأهم محتوياتها ومضامينها أما المدخل فهو عبارة عن خلفية تاريخية للموضوع. شمل الأوضاع العامة للجزائر: اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا. وقد فات في هذا المدخل الطالب أن يذكر لمحة تاريخية عن عمران المدينة ومورفولوجيتها الحضارية، وأهم شرائحها الاجتماعية. ولم يشر الى النسيج العمراني للمدينة ربما يناظرها من العواصم الاسلامية.

واشتمل القسم الأول على العمارة العسكرية ، وقد قسمه الطالب الى ثلاثة فصول، عنون الفصل الأول بـ (القصبة والبطاريات) أو الأسوار الدفاعية، التي من خلالها يدافع الجيش ويرد هجمات الدول الأوروبية. أما الفصل الثاني فكان عنوانه (مصنع البارود) و (مخزن الأسلحة) و(جناح خوجة الباب، والقاعات الخاصة بالجيش). وخصص الفصل الثالث لـ (المرافق الخاصة بالجيش، كقصر الآغا ومرافقه، ونادي الجيش، وحمامه، ومسجده).

وتناول القسم الثاني موضوع (قصر الداي ومرافقه والسقيفة)، وهذا القسم يحتوي على ثلاثة فصول أيضا، خصص الطالب الفصل الأول لـ (السقيفة وقصر الداي والمباني الادارية)، وتعرض في الفصل الثاني الى (قصر الحريم) فقط، في حين اشتمل الفصل الثالث على (مرافق قصر الداي وهي المطابخ والحمامات والمسجد).

وضم القسم الثالث (قصور البايات ومرافقها)، توزعت هذه المادة على فصلين، خصص الطالب الفصل الأول لـ (قصور البايات)، والثاني لـ (مرافق هذه

القصور)، وهي الحمامات ، والمخبزة، والكشك، وقنطرة الماء، وخزاناتها ، إضافة الى اصطبلات الخيول، أو كما قال الطالب اصطبلات الداي(؟).

أما القسم الرابع والأخير، فيضم فصلين اثنين، كان عنوان الأول (الانماط والمواد المستعملة في الزخرفة، وعناصرها الزخرفية). والفصل الثاني كان عنوانه (المكتشفات الأثرية). وقد ختم الطالب بحثه بخاتمة قصيرة، ذكر فيها المراحل التاريخية التي بنيت فيها القصبة بجميع اجزائها، ثم ذكر بأهم التحويرات التي أدخلتها السلطات الفرنسية عليها، والاضافات الجذرية، التي كانت السبب في عدم معرفة بعض الأقسام المعمارية ودورها الوظيفي، والدور الدفاعي الذي أدته هذه القلعة.

والرسالة مزودة بتصاميم مختلفة، كان منها المتضمن لمعلومات عامة، ومنها الخاصة بتفاصيل دقيقة، هي بمثابة مفتاح للقارئ. أبرز من خلالها الطالب كل ما احتوته مباني القلعة من أجزاء وعناصر معمارية وعناصر زخرفية، بما في ذلك المكتشفات التي وجدت تحت الردوم، التي وضعتها السلطات الفرنسية، حيث عمدت بواسطة ذلك الردم الى تقليص ارتفاع وعلو الغرف والأجزاء الأخرى من مباني القصبة. وعلى أية حال فقد طغت الأشكال والرسوم والتصاميم (بلغ مجموعها 127 شكل) على الصور (مقابل 23 صورة).

ونستسمح الطالب بالتدخل قليلا، لنلاحظ عليه أن عنوان الرسالة غير مطابق لمضمونها واذا أراد تقويمه فنرجو أن يجعله كما يلي (قصبة مدينة الجزائر: القلعة وقصر الداي وقصر البايات ومرافقها)، بل نضيف أيضا لماذا لا يستبدل الطالب القلعة بالقصبة ، ليكون النسق واحدا، مثلما فعل في متن الرسالة، حيث عنون الفصل الأول (القصبة)، أما القلعة فلا نلحظ وجودها بتاتا في محتوى الرسالة.

كما نلاحظ للطالب أن مصطلح البنيقة لا يستعمل في العمارة، وانما خاص بالدروع، وهو الجزء المتصل بياقة وكتف الدرع، أما في العمارة فيمكن نعته بكوشة العقد، ومصطلحه بالفرنسية هكذا (Ecoison)، كما يستحسن استبدال مصطلح برطوم برافدة. ومصطلح تقاطع الأقواس بـ (العقود المتقاطعة)، والاكتفاء بـ (ربض) دون قرنها بالضاحية لأن الربض هو السوق الواقعة خارج أسوار المدينة. أما كلمة (Auvent) فيقابلها بالعربية مصطلح (ظلة أو كنة)، كما ان المشكاة غير الفجوة الصغيرة ولا تقابلها الكلمة الفرنسية Niche مع العلم أن الطالب استعملها

أيضا كـ (ردهة)، وفي كلتا الحالين لا تقابل الكلمة العربية.

وفي الأخير، ورغم ان البحث ميداني ، الا أنه يفتقر الى مجال المقارنة، وهي معالجة لا بد منها فيما بين العمائر الاسلامية، لأنها مشتركة فيما بينها، وان وجدت بعض الاختلافات الطفيفة. ومهما كان الأمر ، فالبحث سيسد فراغا ملحوظا في المكتبة العربية الجزائرية في ميدان تاريخ العمارة الاسلامية.

المساجد العثمانية في وهران ومعسكر

(دبلوم الدراسات المعمقة في الآثار الاسلامية)
للطالب مبروك مهيريس

عرض وتقديم : **قويدر بشار**

في صبيحة يوم السبت 12 رمضان 1405 هـ ـ 01 جوان 1985 م، جرت بالمعهد الوطني للتاريخ بالجزائر، مناقشة رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في الآثار بعنوان المساجد العثمانية في وهران ومعسكر، من اعداد الطالب مبروك مهيريس، تحت اشراف الدكتور رشيد بورويبة.

وكانت اللجنة المناقشة للرسالة المذكورة تتألف من الأساتذة :

1 ـ الدكتور موسى لقبال ـ رئيسا.

2 ـ الدكتور رشيد بورويبة ـ مقررا.

3 ـ الدكتور ناصر الدين سعيدوني ـ عضوا.

4 ـ الدكتور سامي حسن ـ عضوا.

وحضر المناقشة جمهور من الأساتذة المختصين وطلبة التاريخ والآثار، وخاصة الباحثون منهم.

ويندرج موضوع الرسالة ضمن الاهتمام باحياء التراث الوطني وبعثه من جديد.

والملاحظ ان هذا الموضوع الذي تناوله الباحث (مبروك) لم يسبق أن تناوله أحد من الدارسين المختصين، ولذلك كان اختياره له موفقا.

ان موضوع (المساجد العثمانية) أثري بالدرجة الأولى، وقد قام الباحث ببذل

كل ما في وسعه، لتوضيح مختلف جوانب بحثه من خلال الرسومات والتصميات وكذلك الصور الشمسية التي أخذها من الميدان.

ويتألف موضوع الرسالة من سبعة أبواب: الباب الأول بعنوان (الغرب الجزائري قبيل وأثناء الحكم العثماني)، وهو عبارة عن لمحة تاريخية للغرب الجزائري من أواخر الدولة الزيانية وحتى نهاية العهد العثماني مع الاشارة الى جوانب العمارة في كل من مدينتي وهران ومعسكر.

أما الباب الثاني فقد خصصه الباحث لتاريخ المساجد العثمانية بمدينتي وهران ومعسكر والظروف التي بنيت فيها، واستكمل هذا الموضوع بالباب الثالث، الذي أوضح فيه نماذج عديدة من المساجد، بواسطة مساقط كثيرة، اجتهد الباحث في اخراجها.

أما الأبواب الأخرى فخصصها الباحث لوسائل الدعم، وطرق وتقنيات بنايات المساجد في هاتين المدينتين العريقتين، وقد تناولت على وجه الخصوص المحاريب والسقوف والقباب والمآذن (طرق بنائها وخصائص فن زخرفتها...).

وفي بداية المناقشة أحال رئيس اللجنة المناقشة الكلمة الى الباحث ليقدم موجزا عن رسالته ، فأوضح في البداية الأسباب التي دفعته الى البحث في هذا الموضوع والتي يمكن تلخيصها في ما يلي :

1 ـ قلة الدراسات الأكاديمية عن مثل هذه المواضيع.

2 ـ رغبته في توضيح دور المساجد في سبيل الله، كما كانت حصونا احتمى بها المجاهدون الجزائريون لصد العدوان.

3 ـ سياسة الاستعمار الفرنسي تجاه هذه المؤسسات الدينية التي قضت على أغلبها حتى صارت مجهولة لدى الجيل المعاصر، رغم وجود آثارها شاهدة على أصالتها.

وقد توصل الباحث الى عدة نتائج يمكن ايجاز بعض منها فيما يلي:

1 ـ ان مساجد وهران ومعسكر قد تميزت بالبساطة ، اذا ما قورنت بغيرها من المساجد سواء في الوطن أو في خارجه، وارجع أسباب ذلك الى الظروف السياسية التي كانت تعيشها الامبراطورية العثمانية ووضعية الأتراك في الغرب الجزائري.

2 ـ أكثر هذه المساجد قريبة من الحصون والربط الجهادية من حيث الهندسة وطريقة بنائها.

3 ـ يغلب عليها الطابع الفني المغربي الأندلسي وخاصة في هندسة ونمط بناء المآذن.

وبعد انتهاء الطالب من تقديم عرضه. أخذ الاستاذ موسى لقبال. الكلمة فشكر الباحث ونوه بمجهرده ثم فتح باب المناقشة، وأحال الكلمة للأستاذ سامي حسن، الذي لاحظ بعض المآخذ في الشكل والمضمون منها عدم توفيق الباحث في استعمال المنهج الدقيق للوصف حين تحدث عن تاريخ المساجد وكذلك اهماله لمفاتيح التصميات، التي كانت السبب في غموض بعض المساقط. رغم ما بذله الطالب من مجهود يحمد عليه في رسمها وتخطيطها.

ثم أحال الاستاذ لقبال الكلمة الى الاستاذ ناصر الدين سعيدوني. الذي أشار الى عدم تطابق عنوان الرسالة مع مضمونها. واقترح أن يكون العنوان المساجد الجزائرية في العهد العثماني، خاصة وأن المساجد الجزائرية لم تتأثر كثيرا بالنمط العثماني. بل حافظت على نمط المغرب الأندلسي، كما لاحظ الاستاذ سعيدوني على الطالب انه استعمل مراجع من الدرجة الثانية، ولم يكلف الطالب نفسه عناء البحث عن المراجع والمصادر الأصلية، وأكد الاستاذ سعيدوني، أن الدراسات الأكاديمية الجيدة هي التي تقوم على استغلال المصادر استغلالا جيدا، مما لم يظهر ذلك في رسالة الطالب، سواء أثناء استشهاده بها أو في ضبطه بالتهميش، أو ذكرها ضمن قائمة البيبلوغرافيا.

وكان آخر المناقشين الاستاذ لقبال، فلاحظ للطالب عدم وضعه لمدخل يبين خصائص العمارة الدينية في الجزائر بصفة عامة، وبصفة خاصة في الناحية الغربية من البلاد، قبل حلول العثمانيين بالجزائر، كما أشار عليه أيضا قلة تركيزه على جانب المقارنات عند الحديث عن تاريخ المساجد في وهران ومعسكر، وأظهر الاستاذ لقبال قدرة فائقة على الملاحظة حين أشار الى الهفوات التي وقع فيها الطالب أثناء نسخه النصوص، وانتهز فرصة وجود الطلبة والباحثين، فوجه لهم بعض الارشادات، منها ضرورة تخطي مشكلة الطباعة، التي ما تزال دون المستوى في بلادنا، كما أكد من جهته على ضرورة الاعتناء بأسلوب اللغة العربية، والكتابة بطريقة سليمة، لأن هناك

ضعف بيّن يشترك فيه أغلب الباحثين المعاصرين بوجه عام، وأشار بهذا الصدد أن ملاحظات الأساتذة لا تقلل ولا تنقص من قيمة العمل والمجهود الذي قام به الطالب، بل بالعكس تزكيه، وتجعله قادرا على مواصلة البحث بخطى ثابتة.

ب ـ الكتب والإصدارات الجديدة

صدر حديثا عن المؤسسة الوطنية للكتاب مجموعة من المؤلفات والدراسات التاريخية والأدبية لعدد من أساتذة معهد التاريخ، وهي الآتية:

ـ شعوب وقوميات : للاستاذ أبي القاسم سعد الله، وهو كتاب يضم مجموعة من الدراسات والأبحاث حول التاريخ الفكري والحضاري، لأوروبا وآسيا في العصور الحديثة، بالاضافة الى دراسة خاصة بالتاريخ اليوناني القديم.

ـ ولنفس المؤلف صدر له كتاب تاريخ الجزائر الثقافي، جـ 1، طبعة ثانية.

ـ كما صدر له أيضا كتاب شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، طبعة ثالثة؛ بالاشتراك مع الدار اللبنانية للكتاب.

ـ دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث، للاستاذ ناصر الدين سعيدوني، ويضم مجموعة من الأبحاث في تاريخ الجزائر الاقتصادي والاجتماعي خلال العهد العثماني، وبداية الاحتلال الفرنسي.

ـ الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب (خلال العهد الروماني) ودورها في أحداث القرن الرابع الميلادي. وقد نال به المؤلف شهادة الدكتوراة من السلك الثالث من جامعة الجزائر سنة 1982.

ـ دور زناتة في الحركات المذهبية بالمغرب الاسلامي من سنة 122 هـ الى سنة 440 هـ ـ 739 ـ 1049 م. وهو رسالة جامعية نال بها المؤلف شهادة الدكتوراة من

السلك الثالث، بجامعة الجزائر سنة 1977.

• وفي اطار الاحتفال بالذكرى الثلاثين لاندلاع ثورة التحرير 54، صدر عن وزارة الثقافة والسياحة / بالاشتراك مع المؤسسة الوطنية للكتاب، سلسلة (الجزائر في التاريخ). كان الجزء الأول منها بعنوان : الجزائر منذ نشأة الحضارة (عصور ما قبل التاريخ وفجر التاريخ) للاستاذ محمد الطاهر عدواني. والجزء الثالث خاص بالعهد الاسلامي من الفتح الاسلامي الى بداية العهد العثماني. وقد اشترك في وضعه مجموعة من أساتذة معهد التاريخ، وهم الاستاذ رشيد بوروية، والاستاذ موسى لقبال، والاستاذ عطا الله دهينة، والاستاذ عبد الحميد حاجيات، والاستاذ محمد بلقراد (من معهد اللغة والأدب العربي). أما الجزء الرابع فهو خاص بالعهد العثماني، وقد قام بتأليفه الاستاذان: ناصر الدين سعيدوني (الذي تناول فيه الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي). والشيخ المهدي البوعبدلي (الذي تناول القسم الثقافي والفكري للجزائر خلال الفترة المذكورة). وعما قريب سيصدر الجزء الثاني. الذي خصص للجزائر في العهد القديم، وهو من تأليف الاستاذ محمد البشير شنيتي، والاستاذ منير بوشناق.

• وعن ديوان المطبوعات الجامعية صدر للاستاذ محمد الطيب عقاب، كتاب في الآثار الاسلامية، عنوانه: الأواني الفخارية الاسلامية (دراسة تاريخية فنية مقارنة). نال به صاحبه شهادة الدراسات المعمقة سنة 1979 من جامعة الجزائر.

الأواني الفخارية الاسلامية

(دراسة تاريخية فنية مقارنة)

تأليف : **محمد الطيب عقاب**

نشر : **ديوان المطبوعات الجامعية** ـ الجزائر 1984.

عرض وتقديم صاحب الكتاب

لعل أروع الأعمال وأجملها تلك التي تقدّم بصورة لا صعوبة فيها ولا تعقيد خصوصا اذا كانت من الأعمال المرتبطة بالانسان ارتباطا وثيقا على مدى مسيرة التاريخ الاجتماعية.

وما أعتقد أن هناك عملا ساير الانسان في مراحله التاريخية الكبرى كالأواني الفخارية، والتي تعتبر ـ بحق ـ من الضروريات اللازم تواجدها مع الانسان في أي زمان ومكان.

واذا كان الفخار مادة أولية للانسان في العصور القديمة والوسطى ـ نظرا للاستعمالات المتعددة التي يستوعبها ـ فهو يحفظ المواد الثمينة التي كانت في حوزة الأغنياء، بالاضافة الى دفنها مع الموتى، لاعتقادهم الراسخ بأنه يحتاج اليها في دنياه الأخروية، فضلا عن الاستعمالات الضرورية كالطبخ، وخزن السوائل المختلفة والغلل وغيرها من المواد الضرورية للانسان في معيشته الخاصة.

ولذلك فلا غرابة اذا وجدنا الانسان قد اهتم به، وأفرغ كل شحناته المعرفية.

المهم أن للفخار دورا كبيرا على الانسان وترقيته الاجتماعية التي تعتبر جزءا من العناصر الأساسية لتلبية حاجات السكان. لأن الفخار ـ كان وما يزال ـ من أكثر الفنون التطبيقية اتصالا وانتشارا بين الجماهير، وبين مختلف فئاتها، وبالتالي فهو مرآة صادقة تعكس مكونات لخاصية شعب من الشعوب، في أي فترة كانت، وعليه فان

الفخار يعتبر من أهم الروافد التي تصب في نهر الحياة الاجتماعية العام، هذا النهر الذي يدفع بالحياة الاجتماعية، كيفما كان وضعها قدما في رقي الحضارة، مؤثرا في سير التاريخ العام، لأمة من الأمم مكونا للتحولات الاجتماعية الناتجة في أي عصر من العصور، مجسدا للأهداف الكبرى الاجتماعية.

واذا كان الأمر كذلك، فان اختياري له كموضوع للدراسة، كان حسب ذلك تماما، خاصة بعد أن وجدت احدى الزميلات قد اختارت موضوع الخزف الاسلامي. وازداد اهتمامي بالمادة الطينية، وقتما كنا نعثر على جرار كاملة وبداخلها مواد مختلفة تالفة. بالاضافة الى أن هذه المادة لم تلق من العناية الكافية من لدن الباحثين والدارسين، بحيث يمكن القول ان المكتبة العربية تخلو أو تفتقر الى هذا الموضوع، وهو الموضوع الذي يجب أن يكون في متناول طلاب علم الآثار الاسلامية.

تحديد الموضوع وجغرافيته :

والموضوع اذن، هو الأواني الفخارية للعالم الاسلامي في العصور الاسلامية الزاهرة، وهو دراسة تاريخية فنية مقارنة للفخار غير المطلي، تشمل ـ جغرافيا ـ منطقة العالم الاسلامي بشقيه الشرقي والغربي، بما في ذلك اقليم الأندلس. والسبب في تحديدي لهذه المنطقة الواسعة، هو تشابه في شكل الأواني وتجانسها، وتطور في القوة الفكرية ، وفي المهارة الفنية، لما يقتضيه المجتمع الاسلامي.

يتناول هذا البحث الفخّار، أو المادة الطينية، وهو موضوع يحاول أن يبرز شخصية الفنان المسلم في انتاج تلك الأواني البسيطة، كما يحاول أن يصل الى نقطة هامة، وهي هل استطاع الفخاري المسلم ـ في الشرق والغرب، على حد سواء ـ أن يعطي لأشكاله الطينية أسلوبا جديدا ، ذات صفات متميزة في سابقتها في التاريخ؟ وهل كانت تلك الابتكارات التشكيلية للأواني الفخارية «عربية اسلامية» حقا؟

واذا كنت قد حدّدت صيغة السؤال بـ «عربية اسلامية» فلأني انطلقت من مبدأ واحد. هو أن الشعوب الأخرى (الداخلة في الاسلام) كانت تأتمر بأوامر ونواهي الاسلام. وهذا ما سنرى جوابه. خلال محاولتي في البحث والاستقصاء. في كل ما أنتجه الفخاري من الأواني ـ تقريبا ـ حيث يلاحظ عليها صبغة البساطة في اخراجها ومظهرها العام.

والبحث يتكوّن من بابين، كل باب يحتوي على فصلين، فالباب الأول: خصصته لدراسة تركيب ونوعية طينة الفخار الاسلامي، وذلك استنادا الى بعض القواعد التي تذكرها بعض الكتب، حول طينات الفخار، ورأيت أن أطبق تلك القواعد على الفخار الاسلامي في عصوره المختلفة، بحكم أن هذه المادة لا يتغير تركيبها الطيني، ولذا آثرت أن أدرس طينات الفخار كل حسب لونها، اذ أن كل لون يحتوي على مواد طينية، لا تتواجد في مادة أخرى، وهكذا قسمته الى ثلاثة أقسام، هي: الفخار العادي، والفخار الأحمر، والفخار الأبيض، نظرا لصلابته وتماسك أجزاء طينته، وكذا لصفائه من الشوائب المختلفة، وهو من طينة الصلصال المتشبعة بالماء؛ بينما الفخار الأحمر تتسرب منه المياه، نظرا لاحتوائه على مسامات في بدن الاناء، الا أنه اذا أعدّت وحضرت بصورة جيدة فسيكون أشد صلابة وأرقاه نوعا من الفخار الأبيض. أما الفخار العادي، فهو مزيج من النوعين السابق ذكرهما. وذلك اذا لم ينق أو يحضر، ونتيجة لذلك يعمد الفخارون الى اغماس أوانيه في سائل لزج أبيض اللون، يعد من طينة الصلصال.

ولا ريب ، أن الفنان الفخاري يأتي بالطينة من أماكن معينة، وانه يقيم الفواخير في الأماكن التي توجد فيها الطينة الصالحة لتشكيل الأواني، تجنبا لتكاليف النقل.

وفيما يخص الفصل الثاني من الباب الأول، فقد تناولت فيه طرق وأساليب تشكيل الأواني، علاوة عن الأدوات التي يستعين بها الفخاري لانجازها، وافترضتُ أوان هي من الضروريات الواجب صنعها لدى الفخاري، ولاحظت أنها لا تخرج عن الأدوات التي كانت تستعمل قبل المسلمين، بحيث رأيت أنها سارية الاستعمال في وقتنا الحالي، وما دام الأمر كذلك، فلا بد وأنها استعملت من طرف الفخارين المسلمين، وهكذا استطعت أن أربط العصر الاسلامي الزاهر بالعصر القديم والحديث.

أنها لا تخرج عن الأدوات التي كانت تستعمل قبل المسلمين؛ بحيث رأيت أنها سارية الاستعمال في وقتنا الحالي، وما دام الأمر كذلك فلا بد وأنها استعملت من طرف الفخارين المسلمين، وهكذا استطعت أن أربط العصر الوسيط بالعصرين: القديم والحديث.

أما وكيف ذلك؟ فبواسطة لوحة رسمت عليها أدوات مختلفة تساعد الفخاري لانتاج وزخرفة الأواني الفخارية، يرجع عهدها الى العصر الروماني، وهي بعينها ما زالت تستعمل حتى الآن.

ولم أنس أن أخص بالذكر والرسم ـ أداة الدولاب، التي تجعل الصانع الفخاري يؤدي عمله بكل ارتياح وطمأنينة، وفي نفس الوقت يستطيع أن يخرج أوانيه في اخراج رائق للغاية، سواء في الكيف أو الكم.

ومما لاحظته، أثناء دراستي لأشكال الأواني الفخارية الاسلامية، أنها تمتاز بالبساطة، وعدم التوازن في أجزائها العامة، ولا شك أن هذا يعود أما: الى السرعة التي يمتاز بها الفخاري الفنان أو الى ادراك الفخاري بأنها تستعمل لأغراض غير ذي أهمية، كالشرب وحفظ الحبوب، وكذا فانها تقدم الى فئة معينة من الطبقة الدنيا. كما لا ننسى عاملا آخر وهو ناتج عن الوضعية التي تكون عليها الأواني في أثناء التسوية داخل الفرن.

ويحتوي الباب الثاني على فصلين، الأول خاص بأشكال أواني الفخار الاسلامي، والثاني تناولت فيه الزخرفة وعناصرها المختلفة.

اذن ، فالفصل الأول خاص بتصنيف الأواني، فبدأت بالشكل البسيط من الفخار، وقد اعتبرت الصحون وما يناظرها في الهيأة، أبسطها، باعتبارها الوعاء الأسهل من حيث التشكيل بالنسبة للانسان البدائي، وبالنسبة للانسان المسلم في العصور الاسلامية وكذلك لأنه الاناء الأكثر استعمالا وتداولا داخل الأسرة العائلية في كل وقت ولكل غرض تقريبا.

ثم انتقلت منها الى الاقداح والأطباق، على اعتبار أنها من عائلة واحدة، وبعدها مباشرة تناولت القدور والأباريق والقلل، أو الأواني الخاصة بالشرب. وحاولت أن أصنفها حسبما تمتاز به من الناحية اللشكلية، فبدأت بالشكل المستدير أو البيضي ثم ما يشابه في الشكل والهيئة وهو الشكل الاجاصي، والذي يكون أحد طرفيه ضيقا، والآخر واسعا، ووصفت الأواني الأخرى بالأبدان المنكسرة، وهي أوان ذات شكل معين، ثم ـ فجأة ـ يعكس الفخاري شكل الاناء في اتجاه مغاير، وقد أدمجت ـ تحت هذا التصنيف ـ القلل الشباكية مع التي لا تحتوي على شباك أو مصفاة حتى أتجنب التكرار عما قيل سابقا.

وبانتهائي من دراسة الأواني المشربية، أخذت مباشرة في وصف أشكال الجرار، وقد حاولت تمييزها عن أشكال الحباب والأزيار، فحددت الجرة بأنها الشكل الذي يكبر القلة، بينما اعتبرت الحب هو ما كان أسفله مقبب، علاوة عما يتمتع به من الزخرفة البارزة، سواء بالقالب، أو بالتثبيت، أما الأزيار فحاولت تحديد شكلها،، بالأحجام الكبيرة، وهي غالبا خالية من الرقاب، ومن الزخرفة.

ولم أنس، في عرضي لدراسة الأشكال، المسارح، وهنا واجهتني صعوبة كبيرة لتصنيفها، ذلك أن الفخاري المسلم أوجد وأبدع أشكالا جديدة، عن تلك التي كانت معروفة في العصور القديمة، ومن أجمل الأشكال التي ابتدعها ما يشبه الأباريق الصغيرة، ولكن بشعبة جد طويلة، مما يسمح للدارس بنعتها بأنها على شكل حذاء ذي الساق الطويلة، ولكني اهتديت الى حل بسيط، هو أن أصنفها حسبما تشبه بعض الأشياء الطبيعية فقلت بالمسارج الصدفية أو (الحنفية)، وهذه معروفة منذ القدم، على أن الفخارين بشمال افريقية (المغرب الاسلامي) ضمنوا لها ساقا في وسطها وعروة متصلة من حافتها الخلفية الى أعلى قمة الساق. ثم ذكرت نوعا ثان من المسارج وأسميته بالمسارج العديمة الرقاب، وميزت منها نوعين نوع غير اسلامي، وآخر اسلامي؛ أما النوع الأخير من التصنيف الرئيسي فعنونته باسم المسارج الفارهة أو (ذات الرقاب)؛ وتأكد لدى أنها علامة مميزة وفريدة في الفخار الاسلامي.

وبعد كل هذا قدمت بعض النماذج الغريبة من الفخار، كالأباريق في صورة حيوانات، أو مسارج في هيأة طيور.

والملاحظ على التصنيف الذي اعتمدته لدراسة الأواني الفخارية يمتاز بالتدرج والتعاقب، وكذا بالنسبة للقدرات الفنية، التي يستطيع الفخاري أن يأتي بها حسب تجربته في هذا الميدان، لكن ثمة سؤال يفرض نفسه علينا، هو: هل الفخاري المسلم يمكن اعتباره فنانا بدائيا، حتى يمكن أن نضع هذا التصنيف التعاقبي؟

والجواب عن هذا السؤال يجرنا للتحدث عن نقطة هامة، هي ما دام هذا البحث غير ميداني، والمراجع ـ كما ذكرت أعلاه ـ كثيرا ما تغفل تحديد تاريخ المشغولات الفخارية، ولو بالتقريب، فاني اضطررت الى اتخاذه كقاعدة عامة للتحليل ومن ثم التصنيف، حتى أستطيع متابعة الملامح العامة للفن اليدوي أو

التطبيق، لدى الفخارين الصنّاع من المسلمين، وان كانت الأساليب الفنية متداخلة فيما بينها، بحيث نلاحظ أن رداءة وجودة الصناعة الفخارية في العالم الاسلامي غير مرتبطة بازدهار أو انحطاط بلد من البلدان للعالم الاسلامي في العصور الوسطى، ذلك ما يمكن قوله وتأكيده من أن صناعة الفخار في العصر الأيوبي ـ مثلا ـ كانت أحسن بكثير منها في العصر الفاطمي، الذي يعتبر من أزهى العصور الاسلامية، التي بلغت شأوا عظيما في ميدان الفن التشكيلي، وكذلك فالفخار الأندلسي يمتاز عن الفخار في بلاد العراق على عهد العباسيين، بالمناسب الموحدة لأجزاء الأواني، وهكذا كان لا مفر من اتخذ التصنيف مقياسا لدراسة فنية للأواني الفخارية الاسلامية، وحاولت ـ في هذا التصنيف ـ أن أجعل الأقدم تاريخا هو الأول، ان وجدت اشارة في ذلك.

وفي الفصل الثاني، تناولت الزخرفة وعناصرها، وما يمكن أن تقوم عليه من العناصر، فابتدأت بالنقطة، والخط، والتوازن في توزيع العناصر ثم انتقلت الى ذكر العناصر النباتية كالساق وملحقاته كالأوراق ولأزهار الى غير ذلك، وهذه العناسر جعلت لها عنوانا سميته أصول الزخرفة.

وبعدها بدأت في دراسة العناصر الزخرفية، التي زين بها الفخاري المسلم أوانيه، فابتدأت بالزخرفة الهندسية، على اعتبار أنها من الأعمال التي يأتي بها الانسان بطريقة عفوية، ودون سابق تفكير أو تخطيط؛ وكانت الزخرفة الهندسية للفخاري المسلم متعددة العناصر، كما أكثر فيها عدة أساليب، وهو ما يبرز لنا شغف الفخاري الفنان بما هو أحسن وأجمل، وكذلك يوضح لنا أنه يكره التكرار الممل، رغم أنه كثيرا ما يتخذ عنصرا واحدا لزخرفة سطح الاناء أو مصفاة القلة، ولكن هذا الأمر ينطبق في اناء واحد فقط، دون الآخر؛ والاناء الآخر يختار له عنصرا آخر من الزخرفة، ومهما يكن من أمر فان الزخرفة الهندسية قد أعطاها عناصر متعددة، فهو يجعل منها أشكالا لمعيناء، بواسطة تقاطع خطوط، أو يتخذ منها أنصاف دوائر متكررة ومتداخلة فيما بينها، أو يرسم دوائر متلاحمة ومتراصة، وهي بأنماط مختلفة: بارزة، وغائرة وقليل منها بالرسم اللوني.

والقسم الثاني، من الفصل الثاني، كان من نصيب الزخرفة النباتية التي لقيت اهتماما كبيرا، لدى الفخاري المسلم، الا أن عناصرها الكثيرة لم يستعملها الفخاري،

فاكتفى بشجرة النخل أو سعافها. كعنصر مفصل عنده وكذا بعض الأغصان التي طعمها مرة بالأوراق أو بوريدات وأزهار. بطريقة الختم، وسنلاحظ أن الفخاري قد برع في اخراج بعض العناصر النباتية. فرسمها بدقة متناهية للغاية. وهو ما يؤكد مقدرته وتفوقه في رسمها بكل عناية ومهارة. وان كان في قليل منها.

وأبرزت في القسم الثالث من الفصل نفسه. الزخرفة الكتابية. وهي ـ أيضا ـ قد حظيت بقسط وافر من اهتمام الفخاري. بل ان بعض الأباريق الايرانية. جعلت كرسائل غرام. ترسل ناي أحبة العشاق. حسبما يعتقده بعض الدارسين، أما أنا فأرى أنها من التعاويذ التي يكتبها المشايخ للمصابين بالمس الجنوني. واستدلت بذلك بأنها كتبت بالصمغ العربي وكذا بالخط الغير المقروء.

وقد *استأثرت الزمزميات بالزخرفة الكتابية. وبعض الأقداح. والحباب العراقية. وبعض الكسرات التي لم أستطع معرفة أصل حجومها..

وان جل الزخرفة الكتابية كانت بالخط النسخي، وهذا يدل على أن الأواني الفخارية للعالم الاسلامي، المتناولة بالبحث. يرقى عهدها الى القرن الثالث للهجرة على الأكثر، خاصة اذا تأكدلدينا أن الخط الكوفي أقدم الخطوط العربية، ومهما يكن من أمر فان الفخاري قد أبدع ـ أيما ابداع ـ في رسم هذا الخط، وذلك من خلال النماذج القليلة التي تمكنت من الاطلاع عليها.

وتعزى كثرة الزخرفة الكتابية بالخط النسخي. نظرا لما يتمتع به من طواعية ومرونة في كتابته على مساحات الأواني الفخارية المختلفة، بخلاف الخط الكوفي، ذي الزوايا القائمة، الذي يترك فراغات كبيرة، وأعتقد أنه السبب الوحيد الذي دفع الفخاري الفنان في وضع أطراف مورّقة وأغصان ملتوية عبر مساحة الاناء، لملء الفراغ، الذي يشمئز منه الفنان المسلم بصفة عامة.

وضمنت القسم الرابع، من الفصل نفسه، الزخرفة الحيوانية، التي نالت اهتماما كبيرا من طرف المزخرف، فأخرج منها كائنات متعددة، بل ان الفخاري العراقي واصل زخرفة الحيوانات الخرافية، وكذا فعل الفنان الفاطمي في شبابيك القلل، وهو جهد يجسم مهارة الفخاري المزخرف، كما تعكس تذوقه الرفيع لما هو جميل، وقد شملت جل الكائنات الحية ، باستثناء المزخرف الاندلسي، الذي أكثر من رسم الحيوانات الأليفة كالفرس، والأرنب ، وغيرها.

أما القسم الخامس، فكان نصيبه الزخرفة البشرية، التي لم تنل كثير اهتمام من الفخاري، وان كانت فهي عبارة عن أشكال «كاريكاتورية»، ولعل السبب في ذلك يعود الى أن الأواني الفخارية لا تحتاج الى كثير من العناصر الزخرفية، أضف الى ذلك بعض التعليمات الدينية للاسلام، التي تمنع رسم الصور للكائنات الحية، ورغم ذلك فانّا واجدون بعض الزخارف لأناس في وضعية مختلفة ، كأن يمسك بيده، وهو يهم بالشرب، أو رسما يمثل المصارعة بين شخصين، والمتفرجون حولها.

ومما تجدر الاشارة اليه أن الملامح العامة للزخرفة البشرية موحدة الأساليب والعناصر، وهي ملامح قريبة الشبه من الجنس الأصفر، بحواجب متصلة غليظة، وعيون مستطيلة ضيقة، ضمن وجوه مستديرة، ولكن من الممكن أن نستثني ذلك ملامح الأشخاص المزخرفة على بعض النماذج القليلة لمنطقة المغرب الاسلامي والاندلس، اذ تمتاز الوجوه بالاستطالة.

وعن الألوان، فانه لم يسعفني الحظ لأدرسها دراسة تحليلية دقيقة فاكتفيت بالاشارة الى الطريقة الفنية والجمالية، ليس الا، وذلك ضمن دراسة أنواع الزخارف، ذلك لأن المصادر تفتقر الى مثل هذه الدراسة، ما عدا التي درست في مادة الخزف، وأعتقد أن الألوان التي توضع في الأواني الزخرفية، غير التي تطبق في الأواني الفخارية، لكني لاحظت أن الألوان موحدة فيما بين الأقطار الاسلامية، ولا ريب أن هذا التشابه يفسر لنا وجود علاقات تجارية متينة بينها.

وأنهيت البحث بخاتمة ، ذكرت فيها مميزات وخصائص الفخار الاسلامي في الفترة مدار البحث، وهي العصور الاسلامية الزاهرة. واستنتجت أن الفخار الاسلامي لم يكن متداولا بين الأقطار الاسلامية، ولم يستعمل كمادة تجارية، بالرغم من وجود أوجه التشابه فيما بين الأواني، خاصة في مجال الزخرفة وعناصرها المختلفة. واذ يمكن القول بعدم تداول الأواني فيما بين الدول الاسلامية، فذلك راجع الى ما امتاز به كل اقليم من أنماط الأشكال للأواني. وحاولت ـ في الأخير ـ ابراز القيم التشكيلية والفنية للفخار الاسلامي، وعلاقتها فيما بين الدول العديدة.

المستشرقون والحضارة الشرقية

عائشة محرزي

هذا العرض هو محاولة لاستعراض الواجهة التي من خلالها تعرّف المثقف الغربي عن المشرق الاسلامي، وللمنهج الذي استعمله للكتابة عنه.

ان المشرق في نظر الغربيين هو كتلة متماسكة من العادات والمواقف المحيرة والطقوس والخرافات الغريبة، وهو الدين والعادات المضللة...، لقد سمح المثقف الغربي لنفسه بحرية الحديث عن المشرق في ميادين شتى، فكانت هناك كتابات الصليبيين، وبعض الرحالة، والارساليات التبشريّة والمستكشفين، بل ان بعضهم تخصص في المسائل الشرقيّة.

ان المشرق الاسلامي قد ظهر للغرب المسيحي كمعتد وكانت الخاصة الأساسية لهذا العالم في نظره هي العنف، فالمشرق هو العدو الذي يجب مقاتلته بأسلحة الصليبيين وأفكار المثقفين.

ان اعتداء المسلمين الصارخ هو الذي حال دون انتشار المسيحية، وقد كان غضب مفكري القرون الوسطى في مستوى أظلم الاسلام للمسيحية وللمسيحيين وكنائسهم.

ان ترجمة القرآن من طرف «كتون» وكذلك كتابات مدونة «دوكلينيه» قد ساعدت المفكرين المستشرقين على محاربة الاسلام بعنف أكبر، وقد ضاق صدر كل من «ريمون» و«مارتن» و«ركالدو» و«مارك-دوكليد» فاندفعوا بمحض إرادتهم في

تأويل القرآن حيث حكموا عليه بأنه مجموعة من الأكاذيب والأساطير، ومحمد ﷺ لا يعدو أن يكون دجالا استغل سذاجة شعبه وسرعة تصديقهم له.. وللمقارنة استخدم المستشرقون فكرة «الجنس» كحجة لتأجيج الأحقاد وتضخيم الضغائن ضد الاسلام، حيث قابلوا عفّة المسيح وطهارته بشهوانية وانحلال محمد ﷺ، !؟ وبالتالي فإنهم قدموا الاسلام كديانة الغريزة الحرة والرخص الجنسي الحيواني.

تلك هي اللهجة التي يتحدث بها المفكر الغربي عن المشرق الاسلامي، ولم يكن ذلك ميزة للقرون الوسطى فحسب، بل وللقرون الموالية أيضا، ولم تعد هذه النظرة مجرّد آراء مسبقة لبعض المستشرقين الذين يجهلون المشرق. بل تعدتها الى وجود شبكة هامة من العداء ظلّ المفكرون الغربيون ينسجون على منوالها فكرهم.

ان عصر النهضة في أوروبا لم يطفئ نار جدل القرون الوسطى، اذ نعرف جميعا ما قاله «باسكال» في حق النبي محمد ﷺ، كما نعرف أيضا بأن الطبعة الأولى لترجمة القرآن قد تم حرقها في البندقية عام 1530 م بأمر من البابا، ولقد استمر عصر الاستنارة مظلما إزاء فهمه للاسلام وحضارته، كما ظل المشرقي بعاداته وأزيائه الغريبة محل سخرية لديهم.

ويعود سبب الجهل في المجتمع الاسلامي في نظر هؤلاء الفلاسفة الى وجود المؤسسات القائمة على أسس دينية، ففي أثناء التطرق الى الحديث عن مسلمي آسيا مثلا يذكر «فولنيه» أنه «من الميسور اثبات اضطرابات الدول في هذا الجزء من العالم، حيث يرجع الى نتائج استخدام القرآن وتفشي اخلاقياته!؟ وقد أخذ الفكر الاستشراقي يأخذ شكل البحث والدراسة الجدية خلال القرن 19، ولم تعد تنشغل بالاسلام ومجتمعه الا الأوساط الدينية والفلسفية فقط، بل صار من اهتمامات علماء التجارة ورجال السياسة حيث قاموا بأبحاث ودراسات تتعلق بشؤون المشرق.

وهكذا فان استشراق القرن 19، كان في خدمة التجارة وكان الركيزة المساندة للتوسع الاستعماري، ومما يؤيد ذلك أن الهولندي «سنوك هيرق كرانج»، من أجل خدمة الاستعمار، تظاهر بأنه مسلم وراح يتعرف الى المسلمين ويدرس أوضاعهم من الداخل، ليس حبا في الاطلاع ولكن بفتح الطريق أمام دولته من أجل الهيمنة الاستعمارية.

ان المشرق الاسلامي في نظر أغلب مستشرقي القرن 19 والنصف الأول من

القرن 20، غير قادر على اكتشاف نفسه والقيام بأعبائه، ويلاحظون أن المسلم عاجز عن تصوّر الحياة الحازمة وفهم فلسفتها، وان المسلم مطبوع بفكرة واحدة لا يحيد عنها، وفي نظر الاسكتلندي صاحب المذهب الكلفاني «ماك دونالد» أن الاسلام يقف في وجه العالم، وان المسلم غير صالح لطلب المعرفة لأنه عاجز عن فهم مغزى العلم. حيث ينقصه التفكير العلمي وهذه ظاهرة يتوارثها المسلمون جيلا بعد جيل.

ولعل الوجه الذي يمثل التعالي الأوروبي عن سواه يتمثل في تفكير الفيلسوف «ارنست.رينان» الذي اهتم بعاهات وعجز الشعوب السامية، وخصص جزءا هاما من عمله للاسلام. وقد قدم اطروحته عن «ابن رشد» كما ألقى محاضرة مشهورة بعنوان «الدين الاسلامي والعلم» تناول فيها مستقبل الاسلام. وقد كانت حياة «رينان» مليئة بالعناوين، كما كانت له آراء مسبقة عن الفلاسفة العرب. ومنها أنهم «(أي العرب) يمزجون ويخلطون كل شيء دون النظر والتمعن. وقد يدخلون ذاتيتهم دون شعور منهم. ثم يشرح بأنهم «منغلقون في دائرتهم الشعرية الضيقة ولذلك فان سكان شبه الجزيرة العربية لم يقدموا شيئا يسمى العلم أو المنطق. وكان «رينان» دائما يؤكد بأن الفلسفة عند الساميين لم تكن سوى بصمات أجنبية بلا ثمار، حيث لا تتعدى أن تكون مبادئ الفلسفة الاغريقية. وفي العلوم يقول رينان بأن كل الأعمال العلمية التي نصفها عادة بأنها عربية لم تكن في الحقيقة سوى اغريقية ساسانية، وعن القرآن يقول أنه منذ البداية ما هو الا براهين سفسطائية. وفي حق النبي محمد ﷺ يقول معترفا بأنه كثير التأمل ولكنه يناقض نفسه فيما بعد ويقول أنه مصاب بما يمكن تسميته بالهوس.

ومهما يكن من أمر هذه الآراء فإن الفكر الاستشراقي يعبر بوضوح عن عدائه للاسلام والحضارة العربية وقد تجسد العدوان في الحملات الصليبية التي بعث بها الغرب تجاه المشرق الاسلامي فاحتلت أراضيه، وكشف الفكر الغربي فيضا من الأحقاد والاحتقار لكل ما يمت للاسلام بصلة.

اننا نعلم أن «جمال الدين الأفغاني» قد رد على أفكار «رينان» ليس دفاعا عن الاسلام، لأن الاسلام في غير حاجة الى وصاية، بدليل قيامه بالدور الفعال منذ أربعة عشر قرن ولا يزال، ولكنه أحس بخطورة مثل هذا الفكر على الانسانية فتصدى للرد عنه.

ونحن بصدد الرد عن هذا الفكر لنا بعض الملاحظات يمكن ايجازها فيما يلي:

أولا : فيما يخص فهم واستيعاب النص القرآني، فعندما نعطي لأنفسنا الحق في الحكم على القرآن، يعني أن لدينا مقدما معرفة ملمة بمحتواه وأننا استوعبنا المغزى الصحيح من سوره وآياته، فبأي وسيلة استطاع هؤلاء الغرباء عن الجماعة الاسلامية، والمعادين مسبقا لفكرة الاسلام كدين أن يفهموا القرآن دفعة واحدة، بمعانيه الظاهرية والباطنية؟ وما هي الطرق العلمية التي استعملوها لكي يصلوا الى الحكم بظلاله وريفه، وأية أدلة ملموسة أتوا بها لتدعيم اثباتاتهم، وما الأساس الذي أقاموا عليه حججهم؟

لقد قام بعض المستشرقين بمجهودات قيمة لترجمة القران لكننا نعلم الصعوبات التي تطرحها ترجمة النصوص الأدبية عموما والنصوص التشريعية على وجه الخصوص.

ففيما يتعلق بالمحتوى يبقى النقل السليم لرسالة ما مستحيلا من الناحية العملية. وهذا لا يعود الى عجز أو قصور في معلومات المترجم ولكنه يعود الى الاختلاف في بنيات وتركيب اللغات المستعملة والتي يقوم عليها الاختلاف والتباين في تصور الشعوب للكون.

ان امتلاك ثقافة ولغة سليمة ومعرفة كل ذلك غير كافي اذا لم تكن مزودة بالخبرة العملية والاستنباط والاستعمال الفعلي لهذه المعارف في الحياة العملية.

ان ترجمة القرآن تقتضي بالضرورة القيام بالتعليق ومقارنة النص الأصلي بنص المترجم اليها وهذا من أجل رفع الالتباس على غرار ما فعل «موريس بيكاي» في كتابه «التوراة والقرآن والعلم».

ويعتبر القرآن الكريم منذ نزوله معجزة ظلت محاكاتها أمرا مستحيلا اذ لم يستطع كبار الأدباء العرب أن يأتوا بسورة مثله.

ثانيا : الملاحظة الثانية تتعلق بنظرة المستشرقين الموجهة لشخص الرسول ﷺ، فبالرغم من كراهيتهم وحقدهم عليه فإن عددا كبيرا من الكتب المؤلفة عن المشرق تخص الرسول ﷺ. ومن هنا فالسؤال الذي يطرح نفسه يدور حول الأسباب التي جعلت المستشرقين يولون الرسول ﷺ كل هذا الاهتمام؟ فلماذا خُصّ

الرسول بهذا الاهتمام والنقد؟ أليس التناقض تعبيرا لا شعوريا عن أهميته وقيمته الحقيقية.

ان الخطاب الاستشراقي في هذا الشأن ما هو الا ستار يحجب عن شعورهم، حقيقة ماثلة في لا شعورهم لكنهم يرفضون في آن واحد أن يفصحوا عنها، وأن يقبلوا بها لأن قبول قيم الغير يعني تغيير النمط المعيشي المعتاد وقبول نمط جديد. والغرب في حاجة الى أن يحافظ على النظرة المشوّهة للغير لكي يحافظ بالتالي على توازنه.

الملاحظة الثالثة : وترتبط بالملاحظة الثانية، فالمثقف الغربي المعاصر الذي يفكر في الاسلام وحضارته، لا يرى في الحضارة الاسلامية سوى الفوضى، ومن هذا المنظور إن المستشرقين يهاجمون عادة كل شخصية بارزة ساهمت في بناء الحضارة الاسلامية للحط ولتشويه أعمالهم.

ان نظرة المثقف الغربي عن المشرق الاسلامي ترتكز في عمومها على محو قيم الآخرين، وهي النظرة التي ينفي كلية أن يكون للمسلمين ثقافة.

ورغم هذا فان بعض المستشرقين قد اعترفوا بدور ضئيل للمسلمين في نقل التراث اليوناني الى الغرب، وهذا الدور أصبح اليوم هو أيضا غير معترف لهم به.

الخلاصة: ان ما يمكن أن نقوله هو أن كل نقطة أثيرت في هذا البحث تتطلب فصولا بأكملها لأنه من المفيد في رأينا الكشف على ميكانيزمات العلاقات في الماضي حتى يتسنى لنا فهم العيوب والنقائص لوضع أسس حوار حقيقي بين الغرب والشرق.

هناك شخصيات مثقفة تحاول إعادة كتابة الماضي بموضوعية وتفسره تفسيرا أكثر نزاهة، وبهذا سيضعون الأسس العلمية لتفسير الماضي ومن أجل تفاهم أحسن بين الشعوب.

ومنذ بضع سنين، ارتسمت رؤية جديدة للشرق الاسلامي اذ ساهم جاك بيرك وشارني وميكال ومفكرون آخرون بأعمال ثريّة في اطار تطور انساني مرتكز أساسا على احترام هوية الآخرين.

ان النظرة التقليدية للمستشرق تتجه في أيامنا هذه نحو الزوال، بالرغم من بعض البقايا، وبعض الذين ينازعهم الحنين الى الاستمرارية في الصراع، وهو بمثابة صراع «دون كيشوت» مع طاحونات الرياح...

قومي من شمال افريقيا في برلين
أثناء الحرب العالمية الأولى

(صالح الشريف التونسي)[1]

للاستاذ بيتر هاين ، استاذ زائر
من جامعة منستر ـ المانيا الغربية

تقديم وتعليق : **محمد بلقاسم**

في السنة الثانية للحرب العالمية الأولى، ظهر كتاب في برلين تحت عنوان «حقيقة الحرب المقدسة». ترجم الكتاب من قِبل مترجم البلاط الامبراطوري كارل شابنجر، وعلق عليه بكلمة ختامية المستشرق الالماني مارتين هارتمان. وكان هذا الكتاب من تأليف صالح الشريف التونسي. وصالح الشريف هذا هو أحد الشرقيين الذين تعاملوا مع (مكتب المعلومات الخاصة بالشرق بوزارة الخارجية الالمانية)، وصاحب هذا الكتاب (صالح الشريف) هو موضوع المحاضرة، التي ألقاها الاستاذ الالماني بيتر هاين على طلبة معهد التاريخ.

كان صالح الشريف شخصية لها وزنها لدى البلاط الامبراطوري والدوائر السياسية الالمانية، وبذل جهدا كبيرا لتحسين صورة العالم الاسلامي لدى الرأي العام الالماني من خلال تأثيره الشخصي.

ولد صالح الشريف في تونس سنة 1869 [2] من أبوين جزائريين، هاجرا الى تونس (قبل ثلاثين سنة) من تاريخ ولادته، وكان جده ووالده كلاهما من «المشايخ العلماء بجامع الزيتونة»، ولذلك سار على طريقهما، فأصبح أحد «علماء الاسلام» سنة 1889، وساهم هو الآخر بعمله في دفع شأن جامع الزيتونة. ونتيجة للاحتلال الفرنسي لتونس، كان صالح الشريف من المهاجرين لأرض الوطن، ففي سنة 1900 [3] هاجر أولا الى استانبول، ثم رجع الى دمشق، وفي استانبول تقابل مع

وزير الحربية العثمانية ، الذي اصطحبه معه الى ليبيا، حيث كان أنور باشا ينظم المقاومة ضد الغزو الايطالي سنة 1911، وهناك يقال بأن أول من أعلن الحرب المقدسة في هذا العصر هو صالح الشريف، غير أن هذه النقطة تبقى غامضة، وحتى صاحب «المنار» الشيخ رشيد رضا، الذي اشتبك مع صالح الشريف في مناقشة حادة لم يقدم لنا توضيحا لها أو لطبيعة الخلاف الذي نشأ بينهما، فالشيخ رشيد رضا قد رأى «شيخا من شمال افريقيا في المسجد الأموي»، ولم يكن لهذا الشيخ عدد كبير من طلاب العلم»، وعندما ألقى رشيد رضا محاضرة، كان صالح الشريف أحد المناقشين، «خارج موضوع المحاضرة»، وأراد توريط رشيد رضا في مناقشة «موضوعات ذات طبيعة سياسية»(٥). ويقدم الشيخ رشيد رضا صالح الشريف على أنه من أتباع أبي الهدى «شيخ الطريقة الرفاعية»، الذي كانت له علاقة وطيدة بالسلطان عبد الحميد الثاني، غير أن وقائع الأحداث تنفي ذلك، (فالشيخ) صالح الشريف كان على علاقة بأنصار حركة تركيا الفتاة، التي كانت ضد سياسة عبد الحميد، ومع ذلك فان علاقة صالح الشريف بأنصار تركيا الفتاة تبقى لغزا مجهولا لا نعرف له اجابة، وبالأخص علاقة صالح الشريف بأنور باشا. ويبدو أن العمل المشترك الذي قام به صالح الشريف الى جانب أنور باشا في ليبيا قد قوى العلاقة بينهما، اذ أصبح صالح الشريف مستشارا مقربا لأنور باشا.

أما في دمشق فقد كان صالح الشريف «شخصية موثوقة فيها لدى المجاهد عبد القادر»(٦) وكانت له معه «علاقة وطيدة»، وعلاقة الشيخ صالح الشريف بأسرة (الأمير عبد القادر الجزائري، هي التي أوصلته الى برلين، فهو (أي صالح الشريف) قد أتاها برفقة علي باشا. وفي برلين استقل بذاته ونشاطه عن علي باشا وانحصر نشاطه في المانيا في ثلاثة مجالات:

أولا : نشاطه في جبهة القتال، بعد أيام من وصوله الى برلين، انتقل صالح الشريف الى الجبهة الغربية للقتال ليتصل بالجنود المسلمين في الجيش الفرنسي، وخاصة أبناء تونس، ليحثهم على الانتقال الى جانب الالمان، كما قام بكتابة عدة بيانات، طبعت في المطبعة الامبراطورية الالمانية، وتم القاؤها على جبهات القتال، التي يوجد بها «جنود شمال افريقيا»، وقد دارت مضامين هذه المنشورات حول موضوعين: فالموضوع الأول يتضمن فحص الاحتلال الفرنسي لتونس غير أن هذا

الموضوع لم يكن له أثر على الجنود، فالتصور الوطني والقومي كان صعبا عليهم (أي الجنود). أما الضباط التونسيون فكانوا متأثرين بالحضارة الفرنسية الى حد ما. ومن ثمة كانوا لا يحسون بفكرة الوطنية، غير أن الضابط الذي استجاب لنداء الوطنية والقومية وغير موقفه الى جانب المانيا، هو الضابط الجزائري الحاج عبد الله أوبوكابويا رباح. أما الموضوع الثاني من تلك المنشورات فكان موجها الى كل جنود شمال افريقيا المغاربة، وانحصر في فكرة أن الخليفة قد أعلن الجهاد على انكلترا وفرنسا وروسيا. وان ألمانيا والنمسا تحاربان في صف الخليفة. وقد تحدثت هذه المنشورات عن «ضرورة الجهاد»، وان المسلمين الذين يقاتلون في الصفوف الفرنسية والانكليزية «مجرمون في حق دينهم» وهذه المنشورات كان لها أثرها لدى الجنود المغاربة، الذين لم تكن تحترم شعائرهم الدينية في الجيش الفرنسي، فانتقل الكثير منهم الى صفوف المحور، غير ان انتقال المغاربة الى قوات المحور تناقص مع استمرار الحرب، نتيجة دعاية الحلفاء المضادة، وتحسين أحوال المسلمين، ومع ذلك فان الشيخ صالحا الشريف ونشاطه لم يفتر ولم يتوقف، بل زاد على ذلك حيث ذهب الى المراكز الأمامية للقتال وألقى الخطب باللغة العربية، تحدث فيها عن الجهاد.

ثانيا : دعايته في معسكر الهلال، فقد قام الشيخ صالح الشريف بزيارة الى «معسكر الهلال»، و(هذا المعسكر أنشأه الالمان للأسرى المسلمين وكان يتسع لعشرة آلاف أسير)، وجمع فيه الألمان حوالي 800 أسير مسلم، وقد حرض صالح الشريف الأسرى المسلمين على «القتال ضد الفرنسيين»، وقد قام بنشاطات دعائية معتبرة، لدرجة أن الرائد (نادولني) مسؤول القسم السياسي لقيادة الأركان الألمانية فضله على كل القائمين بالدعاية في هذا المعسكر. ومن نشاطاته أيضا أنه أصدر مجلة باسم «الجهاد» عام 1915. وفي مارس من سنة 1915 عاد الشيخ صالح الى استانبول، حيث كلفه أنور باشا في جوان 1915 بانهاء الخلاف القائم في شبه الجزيرة العربية. وفي نفس السنة اختير «عضوا» في الجمعية الوطنية في استنبول. ولما كان عمله مؤثرا في معسكر الهلال، حيث لم يقم بالدعاية فقط فيه، بل كان اماما في المعسكر للمسلمين، ومشاركا في ادارته وواضعا لبرامجه، فان الالمان طالبوا بعودته، فرجع الى برلين ثانية في ديسمبر 1915.

ثالثا: الدعاية للعالم الاسلامي لدى الرأي العام الالماني، وقد تضاربت مشاعر الرأي العام الالماني في استقبال «اعلان الجهاد» من طرف الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا، فهناك من (رحب) به على أنه في صالح المانيا، وهناك من (تخوف) منه لمعتقدا أنه في حالة هزيمة الحلفاء فان العثمانيين ربما لا يتوقفون عند هذا الانتصار، وستجد المانيا ملايين المسلمين قد اقتحموا أوروبا، ولمواجهة هذا (التخوف) الالماني، نشر (مكتب الاستعلامات) كتيبا لصالح الشريف عن (الحرب المقدسة) أو (الجهاد)، حيث قوبل بترحاب كبير لدى الرأي العام الالماني، وارسلت نسخة منه الى قيصر المانيا، الذي وجه الشكر الى صالح الشريف التونسي على كتابه. وبهذا الكتاب أزاح صالح الشريف كثيرا من الأوهام لدى الرأي العام الالماني، وحظي صالح الشريف بشأن كبير لدى السياسيين الالمان، أمثال (الوزير شنزيرمان)، كما استقبله القيصر في حد ذاته. ولم يقتصر نشاطه على برلين وحدها، فقد زار في مارس وابريل 1916 م ولايات ساكسن وبادن وبافاريا، و زار كثيرا من الشركات والمصانع الالمانية الهامة، مثل مصانع كروب في آسن، والميناء الحربي في فيلهلمسهافن، و المصانع السرية للطائرات في مدينة شفيرين.

وقد قامت الصحافة الالمانية بتغطية جميع رحلات وأسفار الشيخ صالح الشريف، الذي عقد عدة لقاءات صحفية أوضح من خلالها أهمية الجهاد وعبر عن رأيه في ضرورة اقامة علاقات قوية بيه الامبراطورية الالمانية والامبراطورية العثمانية وطالب بتعليم اللغة التركية واللغة العربية في المدارس الالمانية. و«نشاطات شخصية صالح الشريف جعلت منه رجلا مشهورا في المانيا لدرجة ان احدى المجلا أوردت صورته على صفحتها الأولى، وعنونت الصورة بخط بارز «الشيخ صالح الشريف المجاهد الأول لتحرير تونس والجزائر من السيادة الفرنسية». ومن ثمة نجد أن صالح الشريف قام بتكوين «لجنة تحرير تونس والجزائر» من مهاجري شمال افريقيا، وترأسها ونظم اجتماعاتها وشارك في اجتماعات هذه اللجنة كثير من الشخصيات الالمانية أمثال نائب وزير الخارجية الالمانية ورئيس البرلمان الالماني.

وكان موقف صالح الشريف تجاه فرنسا موقفا شديدا لا هوادة فيه، وبذلك فهو يختلف عن كثير من القوميين العرب الآخرين من سوريا ومصر، وقد ذكر محمد فريد في مذكراته «بأن صالح الشريف قد أعطى ثقته المطلقة لالمانيا،

معتقدا بأنها سوف تكسب الحرب بصورة نهائية»، كما أن صالح الشريف كان مخلصا في الدفاع عن الحرية والاستقلال، لا عن تونس والجزائر فحسب، بل طلب من الالمان أن يعلنوا «استقلال وحرية مستعمراتهم، مثل الكامرون والطوغو»، وكان يرى في هذا الاعلان أنه سيكون له الأثر الأكبر على «سكان المستعمرات الفرنسية والبريطانية».

وعندما خسر الالمان الحرب، غادر صالح الشريف المانيا كغيره من القوميين العرب في نوفمبر 1918، واتجه الى جنيف ومنها الى لوزان، حيث توفي بها عام 1920، دون أن يتمكن من العودة الى وطنه الذي ناضل من أجل حريته، وهكذا مات غريبا(6).

التعاليق:

(1) ألقيت هذه المحاضرة من طرف المستشرق الالماني بيتر هاين، أستاذ بجامعة منستر (المانيا الغربية)، على طلبة معهد التاريخ، يوم الأربعاء 1985/3/6.

(2) يورد باردان سنة 1862 تاريخا لولادة الشيخ صالح الشريف في كتابه:

(3) أول رحلة للشيخ صالح الشريف الى استانبول كانت في أوائل سنة 1325 هـ - اكتوبر 1906 م، حسبما أورده الطيب بن عيسى في جريدة (الوزير) التونسية، عدد 16-17 ذي القعدة 1338 هـ - 2 أوت 1920 م. أنظر كذلك عن الشيخ صالح الشريف باردان ص 190-195.

(4) وقع الاختلاف بين الشيخ صالح الشريف والشيخ رشيد رضا - رحمهما الله - سنة 1909.

(5) لعل الاستاذ المحاضر يقصد عائلة (الأمير عبد القادر) بالشام، وليس الأمير نفسه.

(6) توفي صالح الشريف أواخر جمادي الأولى سنة 1338 هـ. بمرض (داء الكلى)، أصيب به في مدينة دافوتس بلاتس (بسويسرا)، ونقل جثمانه في 10 ذي القعدة 1338 هـ الى تونس حيث دفن بمقبرة الجلاز المشهورة. انظر مقال الطيب بن عيسى المذكور سابقا في جريدة الوزير (التونسية).

ثالثا :

ملاحق - وثائق - بيليوغرافية

1 - قائمة برسائل دكتوراه الدور الثالث في التاريخ التي نوقشت بمعهد التاريخ من سنة 1968 الى 1985

لقب واسم الطالب		تاريخ المناقشة
لكونت (ر.)	حفريات أثرية في مسرح تبسة (بالفرنسية)	1968/12/7
مايترس (ج.ب.)	المقار (منطقة تسديست الوسطى) فيا قبل التاريخ (بالفرنسية)	1969/04/22
زبادية (ع.)	مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين 1493ـ1591	1970/05/06
معداد (م.)	المغرب الاسلامي في عهد الدولة المرابطية	1971/05/26
الزبيري (م.ع.)	التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792ـ1830	1972/09/30
سلطان (ع.)	سياسة فيصل أثناء الحكم العربي من سورية 1918ـ1920	1974/04/08
سعيدوني (ن.)	النظام المالي للأيالة الجزائرية 1800ـ1830	1974/06/15
مرمول (م.ص.)	السياسة الداخلية للفاطميين في المغرب	1976/05/17
شريفي (م.)	خطوط المصاحف عند المشارقة والمغاربة من ق 4ـ10 هـ	1976/07/02
بوعزيز (ي.)	دور عائلتي المقراني والحداد في ثورة 1871	1976/10/18
بن عميرة (م.)	دور زناتة في الحركات المذهبية في المغرب الاسلامي	1978/12/14
فرج (م.ف.)	اقليم توات خلال القرنين 18ـ19.	1980/12/20
شنيتي (م.ب.)	الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الروماني	1981/11/21
غانم (م.ص.)	التواجد الفينيقي البوني في الجزائر	1981/11/21
ابن قربة (ص.)	المسكوكات المغربية حتى سقوط الموحدين	1984/01/16
خلاصي (ع)	قصبة الجزائر (القلعة وقصر الداي)	1985/01/16

2 ـ قائمة برسائل (دبلوم الدراسات المعمقة)
التي نوقشت بمعهد التاريخ من سنة 1963 الى سنة 1985

لقب واسم الطالب		تاريخ المناقشة
كونطاط (ب)	شرشال في العهد الفرنسي (بالفرنسية)	1963/03/07
كوران (س)	الأوضاع الاقتصادية للمملكة مايورقة في العصور الوسطى (بالفرنسية)	1963/12/12
بسود (ق.د.)	المغرب الأوسط، اقتصاديا حتى القرن 19 (بالفرنسية)	1966/12/15
ميزو (لكوكر ـ قراند)	يهود اراغون في عهد الملك بيير سيرعونيو (بالفرنسية)	1966/06/11
سرفاتي (هـ)	لمحة عن العلاقات بين مملكة اراغون وأبو الحسن المريني	1966/06/11
درافيت (هـ)	(بالفرنسية)	1966/10/24
لقبال (موسى)	الوضعية السياسية والادارية للمغرب الاسلامي من 45 هـ حتى سنة 122 هـ	1967/06/03
بوشناقي (م)	القضاء والقضاة في المغرب القديم (العهد القيصري) بالفرنسية	1967/06/29
	قضاة افريقيا في القرن الرابع الميلادي (بالفرنسية)	
عياد ثابت (ر)	8 ماي 45، حوادث الجنوب القسنطيني (بالفرنسية)	1968/07/11
قوبلاس (ق)	مملكة قطلونية والمغرب الأقصى في سنوات 1333ـ1339 (بالفرنسية)	1968/07/02
قراندود (م)	حدود افريقيا الرومانية (بالفرنسية)	1968/12/07
محبوبي (م)	مجتمع تيمقاد حسب المعلومات الجغرافية (بالفرنسية)	1969/09/13
ابن عبد الكريم (محمد)	تحقيق ودراسة لكتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية	1969/12/19
قابس (تاجم الدين)	سكان مملكة ميورقة المسلمون في القرن 14 الميلادي (بالفرنسية)	1970/06/16
دحو (جريال)	الاستيطان الفرنسي والتحولات الجذرية في أملاك مدينة معسكر (1860ـ1914) بالفرنسية	1970/03/12
كويات (ن)	أبحاث حول القصص الشعبي في مالي (بالفرنسية)	1970/12/16
بوسى (م)	العلاقات التجارية بين الجزائر وليفورنيا في القرنين 16 و17 (بالفرنسية)	1971/06/24
عمار موهوب (حكيمة)	المقاومة الجزائرية في المدية والتيطري في 1830ـ1837 (بالفرنسية)	1972/04/21
غانم (م الصغير)	التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط	1974/01/03
حكت (ي)	فرنسا والوحدة العربية	1974/01/11
فيلالي المشرقي	المصابيح والجرار الرومانية في عصر فيليبوس (بالفرنسية)	1974/11/04
زوزو (عبد الحميد)	دور المهاجرين الجزائريين بين الحربين 1919ـ1939	1975/03/22

لقب واسم الطالب		تاريخ المناقشة
شنيتي (م. البشير)	سياسة الرومنة في بلاد المغرب	1975/04/26
محمدي (أنيسة)	نشأة العمارة الاسلامية في المغرب الاسلامي (بالفرنسية)	1976/05/08
صوفي (ف)	المشاكل الجزائرية في 1937ـ1939 حسب جريدة (وهران الجمهورية) أوران ريبليكان (بالفرنسية)	
رزاقي (ع)	تجارة الجزائر الخارجية فيما بين الحربين العالميتين	1977/03/23
أورفة لي (م خ)	خصائص العمارة الفينيقية في المغرب القديم	1977/06/11
طلال (م)	الحركة الوطنية في المغرب بين الحربين العالميتين (بالفرنسية)	1977/06/14
العيدي (م)	دراسة عن الحزب الشيوعي الجزائري 1943ـ1947	1977/07/02
تفاسكا (أ)	بداية الحركة العمالية في المغرب 1919ـ1939	1977/12/10
عبد الرحمن (خ)	التنظيمات العسكرية في عهد الموحدين (بالفرنسية)	1978/05/03
جودت (ع)	العلاقات الخارجية للدولة الرستمية	1978/06/27
القلي (ج مونيي)	العلاقات الاقتصادية والسياسية بين قرطبة ومختلف الأنظمة الاسلامية في القرن 10 الميلادي (بالفرنسية)	1979/01/13
برار (عديلة)	الموريسكيون في فالنسيا على عهد فيليب الثاني (بالفرنسية)	1979/01/14
رافيلار (مارتيني)	بيليوغرافيا عن الموريسكيين (بالفرنسية)	1979/01/15
عقاب (م الطيب)	الأواني الفخارية الاسلامية	1979/04/08
سلياني (نشيدة)	ابن حماد الصنهاجي وأخبار ملوك بني عبيد	1979/05/10
عبد الله الجامع (سعاد)	الحركة الوطنية في زنجبار ودور العرب فيها سنوات 1948ـ1960	1979/07/01
حساني (م)	الصراع بين الفاطميين والأمويين على السيادة في المغرب الاسلامي	1979/11/26
بلعطاش (خ)	الحركة التبشيرية في الجزائر 1830ـ1871	1980/03/22
شهبي (ع)	ثلاثة مساجد في الشرق الجزائري	1980/06/23
خلاصي (ع)	المباني العسكرية العثمانية في مدينة الجزائر	1980/06/26
هلال (ع)	التعليم العربي في السينغال خلال العهد الفرنسي	1980/06/28
مكي (ج)	المساهمة الجزائرية في النهضة العربية ببلاد الشام	1981/04/18
حاشي (ع)	مشكل وحدة الحركة الوطنية حسب الصحف (بالفرنسية)	1981/09/12
بوزيان (د)	تطور نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد	1981/11/23
جاجوا (ح)	دور غدامس التجاري فيما بين طرابلس والسودان الأوسط	1981/11/25
سي يوسف (م)	مقاومة الاحتلال الفرنسي في منطقة القبائل ـ مثال ثورة بوبغلة	1981/12/26
ابن ادريس (ع)	الصراع القرطاجي الاغريقي في غرب البحر المتوسط	1982/12/29
قرادم (أرزقي)	القوى المغربية في الأندلس في عهد ملوك الطوائف.	1983/05/02

لقب واسم الطالب		تاريخ المناقشة
زركاني (خ)	الوحدة المصرية السورية عام 1958	(1983)
قعون (ع)	الدور الصليبي لهيئة الداوية في الشام 1118 ـ 1302	1983/06/11
هنيدي (م.ح.)	الثورة الجزائرية في جريدة الاهرام.	1984/04/07
كمال ابراهيم	ابن الخطيب آثاره الفكرية والتاريخية	1984/05/23
شرف الدين (أ.ن)	جامعة الدول العربية وقضايا تحرير المغرب العربي (ماجستير)	1983/07/02
مهيريس (مبروك)	المساجد العثمانية بوهران ومعسكر	1985/06/02
قلة القشاعي	الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا.	1985/06/09

3 ـ قائمة بأسماء الطلبة المسجلين لتحضير شهادة الماجستير بمعهد التاريخ

اسم الطالب	موضوع البحث	الأستاذ المشرف
ابن خنوف (حسين)	التاريخ الثقافي للمغرب الأوسط في العصور الوسطى	د. موسى لقبال
تومي (يشيد)	العلاقات الخارجية للنورمان في جنوب ايطاليا وصقلية	د. موسى لقبال
قعون (عاشوري)	العلاقات الخارجية للاتراك السلاجقة في القرن 13 م	د. عبد الحميد حاجيات
شريفي (أحمد)	العلاقات الخارجية للمغول في القرن 13 م.	د. موسى لقبال
مزهودي (مسعودي)	دور نفوسة ومزاتة في الأمامة الرستمية	د. موسى لقبال
بوعامة (فاطمة)	العلاقات الخارجية للمملكة ارمينية الصغرى	د. عبد الحميد حاجيات
لشي (ابراهيم)	فتوحات الأسكندر المقدوني في الشرق	د.م.البشير شنيتي
رباحي (يمونة)	الحياة الدينية والاجتماعية في موريطانيا القيصرية	» »
حارش (م. الهادي)	التطور السياسي والاقتصادي لنوميديا في عهد مسيبسا الى وفاة بول الأول	» »
رمضان (تسعديت)	مصادر تاريخ مصر القديم في العصر الروماني	» »
مسعودي (آسيا)	التجارة الخارجية للمغرب القديم مع شبه جزيرة ايطاليا بين القرنين الأول والثالث الميلاديين	» »
حمانه (رجاء)	الحياة اليومية في المغرب في العهد الروماني: الزخارف المنتمية في الفن الجزائري القديم	د. م. البشير شنيتي
نصر (عبد الغفار)	خراسان منذ بداية الدعوة العباسية الى سقوط بني أمية	د. موسى لقبال
سعيد (كمال ابراهيم)	ابن الخطيب، آثاره الفكرية ونظريته التاريخية	د. عبد الحميد حاجيات
غطاس (عائشة)	العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن 17	د. مولاي بلحميسي
مياسي (ابراهيم)	التوسع الاستعماري في الجنوب الجزائري	د. مولاي بلحميسي
زكية (زهرة)	التنافس الدولي على الجزائر خلال القرن 18 م.	د. ن. سعيدوني
بوحمشوش (نعيمة)	القرصنة والعلاقات بين الجزائر ودول البحر المتوسط	د. ن. سعيدوني
رضاضة (م الأمين)	الصراع السوفياتي ـ الأمريكي في الشرق الأوسط (1945 ـ 1958)	د. جمال قنان
عمال (عبد السلام)	النظام القضائي بالاندلس من الفتح حتى نهاية القرن5 هـ.	د. موسى لقبال
بشار (قويدر)	دور البرامكة في تاريخ الخلافة العباسية	د. موسى لقبال
شنايت (العيفة)	دولة بني مدرار بسجلماسة	د. موسى لقبال
عجنق (رابح)	النظام الاداري لدولة المرابطين	د. عبد الحميد حاجيات
كواتي (مسعود)	اليهود في المغرب الاسلامي الى سقوط الموحدين	د. عبد الحميد حاجيات
بوزياني (الدراجي)	العصبية القبلية وآثارها على النظام والعلاقات في المغرب الاسلامي	د. موسى لقبال

اسم الطالب	موضوع الرسالة	الأستاذ المشرف
السيدة بن عميرة لطيفة	التجارة الخارجية في عهد الدولة الزيانية	د. موسى لقبال
بلقيث (م الأمين)	الرباطات ودورها في عصري المرابطين والموحدين	د. عبد الحميد حاجيات
نويصر مصطفى	الفكر القومي العربي (1919 ـ 1939)	د. جمال قنان
مي يوسف (محمد)	علج علي ودوره في حوض البحر المتوسط خلال ق 16 م.	د. أبو القاسم سعد الله
جاجوا (حسين)	حركة الحاج الفوتي عمر في السودان الغربي	د. أبو القاسم سعد الله
بلقاسم (محمد)	الاتجاه الوحدوي لدى بلدان المغرب العربي المعاصر	د. أبو القاسم سعد الله
مناصرية (يوسف)	الحزب الحر الدستوري التونسي القديم	د. أبو القاسم سعد الله
معريش (م العربي)	المغرب الأقصى في عهد الحسن الأول 1873 ـ 1894	د. أبو القاسم سعد الله
ابن علية (عبد الجبار)	حركة الزنوجية	د. أبو القاسم سعد الله
مريوش (أحمد)	الشيخ العقبي حياته وآثاره	د. أبو القاسم سعد الله
الحسيني (سلام)	الوضعية العامة في الجزائر في 1930ـ1939	د. محفوظ قداش
تركماني (عبد الله)	الوحدة المصرية السورية عام 1958	د. جمال قنان

قائمة بأسماء الطلبة المسجلين
في شهادة دكتوراة الدور الثالث بتاريخ والآثار

اسم الطالب	موضوع الرسالة	الأستاذ المشرف
درياس لخضر	الأسلحة الجزائرية في العصر العثماني	د. رشيد بوروبية
السيدة درياس يمينة	السكة الجزائرية في العصر العثماني	د. رشيد بوروبية
شهبي عبد العزيز	المساجد الأثرية في منطقتي الزاب وواد ريغ	د. رشيد بوروبية
عقاب محمد الطيب	قصور مدينة الجزائر في العصر العثماني	د. رشيد بوروبية
حساني مختار	الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الدولة الزيانية	د. عبد الباقي
جودت عبد الكريم	الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمغرب الأوسط في القرنين 3 و4 هـ.	د. موسى لقبال

رابعا :

النشاط العلمي والثقافي لمعهد التاريخ

حصيلة النشاط العلمي لمعهد التاريخ

خلال السنة الجامعية 1984 ـ 1985

شهد معهد التاريخ ، خلال السنة الجامعية 85/84، جوا ثقافيا متنوعا، مفعما بمختلف الأنشطة العلمية، تمثلت في اقامة ندوات تاريخية. وتنظيم محاضرات. بالإضافة الى مشاركة أساتذة المعهد في أنشطة علمية داخل المعهد وخارجه، كما سيتضح من خلال النقاط التالية:

1) الملتقيات العلمية والمؤتمرات الوطنية والدولية :

كان لأساتذة المعهد نشاط ثقافي ملحوظ. كما يتبين ذلك من رصد النشاط العلمي لكل واحد منهم، فالاستاذ البشير شنيتي شارك في ملتقى تاريخ وحضارة وهران عبر العصور الذي نظمته الجمعية التاريخية الجغرافية لمدينة وهران في الاسبوع الأخير من شهر أكتوبر 1984 بموضوع (دراسة تقييمية لمصادر منطقة وهران).

ـ وفي 22 نوفمبر 84 شارك الأستاذ عمار هلال ببحث عن دور الجزائر في تنمية الجامعات الافريقية، وذلك في الملتقى السادس للجامعات الافريقية بالجزائر.

ـ وفي اطار المؤتمر الدولي لصدى ثورة أول نوفمبر 54 في العالم، المنظم من طرف مركز الدراسات التاريخية، شارك جل أساتذة معهد التاريخ في هذا الملتقى.

ـ كما شارك الاستاذ عبد الحميد حاجيات في الملتقى الولائي لتاريخ وحضارة هنين، الذي نظمته جامعة وهران في الفترة ما بين 26 الى 28 فيفري 1985.

ـ وشارك الاستاذ ناصر الدين سعيدوني في المؤتمر الثالث للعلاقات العربية

التركية، الذي نظمته جامعة اليرموك ما بين 25 ـ 28 ابريل 1985، ببحث عنوانه (نظرة في المناهج الجامعية والمؤلفات التاريخية المتعلقة بالفترة العثمانية من تاريخ الجزائر).

ـ وفي نفس الفترة السابقة شارك الاساتذة : عبد الحميد حاجيات. ومحمد الطيب عقاب ومحمد بن عميرة، وبشار قويدر، في الملتقى الأول حول الأيام الدراسية للفتح الاسلامي بالمغرب الكبير، بالعروض التالية على الترتيب : عقبة في نظر المؤلفين المسلمين، المسجد والضريح، موقف الكاهنة من الفتح الاسلامي، عرض لكتاب عقبة، تأليف الاستاذ موسى لقبال.

ـ وفي اطار الملتقى الأول للحركة الوطنية، المنعقد بولاية سطيف، شارك الأساتذة: جمال قنان، جلول مكي، يوسف مناصرية، محمد العربي معريش، ومجموعة من طلبة معهد التاريخ. وبهذه المناسبة ألقى الاستاذ جمال قنان محاضرة عنوانها: جهود الحركة الوطنية عشية أحداث 8 ماي 1945.

2) الندوات العلمية واللقاءات الثقافية.

نظم معهد التاريخ ندوتين تاريخيتين، الأولى بمناسبة الاحتفال بالذكرى الثلاثين لاندلاع ثورة التحرير، والثانية احتفاء بيوم العلم، المصادف ليوم 16 ابريل 1985.

انعقدت الأولى يوم 30 أكتوبر 1984، بنفق الجامعة، شارك فيها الأساتذة:

ـ ناصر الدين سعيدوني بموضوع: (الأبعاد التاريخية لثورة أول نوفمبر 54)، جربال دحو بموضوع (الأحزاب السياسية قبيل اندلاع ثورة 54، هلال عمار بموضوع (دور الطلبة في الثورة التحريرية).

أما الثانية فكانت يوم 16 ابريل 1985، بمقر معهد التاريخ. فكان موضوعها (الحركة الوطنية بين طموحاتها وانجازاتها) شارك فيها الأساتذة: موسى لقبال، ناصر الدين سعيدوني، جمال قنان. نشر ملخص عنها بجريدة الشعب اليومية.

3) محاضرات أساتذة المعهد :

في 29 أكتوبر ألقى الاستاذ سعيدوني الدرس الافتتاحي للسنة الجامعية 1984

ـ 1985، في حفل رسمي أقيم بجامعة باب الزوار للعلوم والتكنولوجيا، تحت عنوان، التاريخ ومكانته في التعليم الجامعي، بحضور وزير التعليم العالي والشخصيات الرسمية.

ـ 84/10/23 : ألقى الاستاذ جمال قنان محاضرة عنوانها (أوضاع الجزائر عشية اندلاع ثورة 54، على مجموع طلبة معاهد العلوم الاجتماعية ـ في الخروبة ـ بمناسبة الاحتفال بالذكرى الثلاثين لاندلاع ثورة التحرير الوطنية.

ـ 84/10/30 : لبى بعض أساتذة المعهد دعوة مديرية الدراسات التاريخية واحياء التراث لالقاء محاضرات بهذه المناسبة. وذلك في مختلف ولايات الوطن.

ـ 85/02/16 : شارك الاستاذ محمد الطيب عقاب بمعرض عن القصبة (عمارة وتعمير)، الذي نظمه ديوان رياض الفتح، بمجموعة من الصور الجامدة (الشرائح الملونة).

ـ 85/02/23 : ألقى الاستاذ مولاي بلحميسي محاضرة عن الجزائر في كتب الرحالة من القرنين 17 و18، وذلك في اطار انعقاد معرض القصبة.

ـ 85/02/28 : قدم الاستاذ سعيدوني محاضرة برياض الفتح، عن المفهوم التاريخي لثورة أول نوفمبر 54، ومكانتها الخاصة، ضمن سياق التاريخ الجزائري المعاصر.

ـ قام الاستاذ سعيدوني بجولة دراسية بالولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ما بين 27 جانفي و17 فيفري 85، تعرف أثناءها على مختلف أقسام التاريخ والدراسات العربية بجامعة جورج تاون ومدرسة الدراسات العليا بجامعة جونس هوبكنز بواشنطن وجامعة شيكاغو وابفنسون بالزاي وجامعة ساولت يدك.

4) محاضرات الأساتذة الزائرين :

ـ ألقى الاستاذ الالماني الزائر: بيتر هاين مجموعة من المحاضرات على طلبة التاريخ، وخاصة منهم طلبة السداسين السادس والثامن، وكانت حسب الجدول التالي :

ـ 85/03/22، صالح الشريف التونسي ودوره خلال الحرب الكونية الأولى.

ـ 85/03/23، ألمانيا والعالم الاسلامي خلال الحرب الكونية الأولى أيضا.

ـ 85/03/23، مملكة سنغاي والمالك الافريقية من خلال المصادر الاسلامية. ثم تلتها جلسة مع الاساتذة وطلبة الدراسات العليا.

ـ وفي فترة ما بين 21 ـ 24 أبريل 85، ألقى الاستاذ الزائر مصطفى العبادي سلسلة من المحاضرات على طلبة التاريخ القديم وعلى طلبة الآثار، فكانت مواضيعها كما يلي:

ـ 85/4/21، مصادر تاريخ اليونان القديمة.

ـ 85/4/22، مكتبة الاسكندرية القديمة.

ـ 85/4/23، مدينة نصانا (عوجة الحفير) ونظامها المالي في العصور الوسطى.

ـ 85/4/24، الديمقراطية الأثينية (ألقاها على طلبة الدراسات العليا).

وفي يومي 22 و23 ابريل 85، ألقى الاستاذ الزائر جون بيير انتيلاس محاضرتين، الأولى في العلاقات السياسية بين الولايات المتحدة الأمريكية والبلاد العربية. والثانية سياسة أمريكا الخارجية في الشرق الأوسط.

كما ألقى الاستاذ طاهو كاجو جان باتيست، من جامعة يوهمبورا البوروندية، محاضرتين على طلبة التاريخ، كانت الأولى في يوم 85/5/20، حول تاريخ ما قبل التاريخ في غربي افريقيا. والثانية في يوم 21 من اليوم الموالي عن افريقيا في العصور الوسطى.

5) الرحلات:

نظمت ادارة المعهد، بالاشتراك مع معهد الآثار، في السداسي الثاني رحلات دراسية لطلبة التاريخ والآثار الى نواحي الشرق الجزائري: سطيف، باتنة، قسنطينة، وبجاية. وذلك تحت اشراف أساتذة معينين من المعهدين لهذا الغرض. وقد أنجز البرنامج المسطر. والمأمول أن تكون الرحلات الدراسية جزءا أساسيا من الدراسة، تحظى بمزيد من الاهتمام والتنظيم، في السنوات المقبلة.

(59) Plantet, correspondance des Beys... IIII, 656. Lettre de Raimbert à Lesseps, 25 mars 1828.
(60) Lettre de Husayn Dey eu Sultan ottoman.
(61) A.N. aff, etr; Mémoires et documents, t. 11 (1825-1830).
(62) L'Ephigénie et le Duchesse de Berry perdirent, le 18 juin 1829, trois canots et vingt cinq hommes dans une attaque.
(63) Nettement; Histoire... p. 177.

D'autre part quand la Bretonnière, après l'audience du Dey, rendit visite à tous les membres du gouvernement, il ne trouva auprès d'eux que méfiance et inimitié «sauf l'agha, gendre du Dey, qui témoigna des dispositions favorables à la France». Toutes ces personnes «parurent contraires au succès de la mission de M. de la Bretonnière».

(64) Le vaisseau essuya le feu de 80 coups de canon et celui de plusieurs bombes; 11 boulets atteignirent le corps du bâtiment.
(65) Cité par Nettement, Histoire... p. 181.
(66) Zahhâr, mudhakkirât, p. 167.
(67) Hamdân Khûdja; al mir'ât, p. 184.

«Mais ajoute-t-il, le maitre est responsable des fautes de son serviteur»

(ان السيد مسؤول على أخطاء عبده)

(68) Ch.A. Jullien, Histoire de l'Algérie comtemporaine, p. 29.

navires patrouillaient en divers point de la Méditerranée (Cap Bon, Côtes d'Italie, Baléares); quatre bricks et des goëlettes employés à convoyer les navires de commerce sur les lignes principales: Marseille-Cadix et Marseille Archipel. La Méditerannée occupa à elle seule près de 50 bâtiments de la marine royale.

(25) A.N. Aff. Etr. Mémoires et Documents, t. 11.

(26) A.C.C.M. Série M R 46141. Lettre du vice amiral, préfet maritime à MM. Du Commerce, adressée de Toulon, le 4 août 1827.

(27) A.C.C.M. Lettre des négociants de Marseille à MM. Du Commerce, 23 juillet 1827.

(28) Plantet, Correspondance des Beys... III, p. 637. Lettre du 4 septembre 1827.

(29) Plantet, Correspondance... III, p. 638. Lettre de Guys au baron de Damas, Tunis 20 septembre 1827.

(30) A.C.C.M. Série M R 46.1.41.

(31) A.C.C.M. Série M R 46.1.41. Lettre des négotions de Marseille à MM. Du Commerce, 27 août 1827.

(32) L'Algérois al Zahhâr, témoin oculaire des combats, reste étonnament concis (mudhakkirât, pp. 163-164).

(34) Si le nombre des navires a fait l'unanimité ou presque des historiens, le type des bâtiments et leur puissance de feu, non! En voici deux exemples:

Devoulx: 1 frégate (al Tulûniya) de 50 canons.
1 corvette (al Fasiya) de 40 canons.
1 corvette (muchâr Tawfiq) de 36 canons.
1 corvette (qâra) de 24 canons.
1 polacre à 3 mâts de 20 canons.
1 brick (ni'mat al hudâ) de 16 canons.
1 brick de 16 canons.
1 Goëlette (fatiya) de 16 canons.
1 goëlette (al mansûr) de 24 canons.
1 goëlette (thawriya) de 12 canons.
1 goëlette de 14 canons.

Nettement: 1 grande frégate portant des canons de 18.
4 corvettes de 20 à 24 canons de 18.
6 bricks ou goëlettes de 6 à 8 pièces de 12 (Histoire de la conquête... pp. 160-161).

(35) On évalua les volontaires à 3000 hommes.

(36) Soit pour briser le blocus, soit pour gagner le large et se répandre en Méditerranée et dans l'Océan afin de porter des coups au commerce français comme le précise une lettre des Intendants de la Santé à MM. du Commerce, 12 octobre 1827. (A.C.C.M. Série M.R. 46.1.41).

(37) Un des rares récits de la bataille vue de l'intérieur, est donné par une jeune allemand, Pfeiffer. Son mémoire fut traduit et publié par A. Michels, R.A. 1875-1876.

(38) Husayn Dey explique autrement le comportement des autres navires: «Trois de nos vaisseaux, dit-il, à cause du vent défavorable sont restés sans mouvement et n'ont pu participer au combat».

(39) Qui le premier avait abandonné le combat ? Les Algériens, d'après Nettement se basant sur le rapport de Collet; les Français, d'après Pfeiffer et le livre intitulé daftar tachrifât.

(40) Le consul Dattili, chargé des intérêts français affirme que l'histoire d'Alger ne signalait jusqu'à ce moment là aucun combat naval, ce qui est manifestement inexact (B.S.G.A 1914, p. 89).

(41) Peu de temps après, arriva dans la capitale, une autre mauvaise nouvelle: le désastre de Navarin où la flotte algérienne était engagée.

(42) Nettement prétend qu'après l'engagement du 4 août, commencent près de trois années d'immobilité. Devoulx affirme que cette tentative fut le dernier effort de la marine de la Régence «Bloquée étroitement dans son repaire, la flotte algérienne ne devait plus sillonner ces mers où pendant si longtemps, elle avait été l'effroi des chrétiens (R.A., 1869, p. 420).

Les détails qui suivent démentiront ces deux auteurs.

(43) A.C.C.M. Lettre du 25 février 1828.

On apprit par la suite que ce bateau algérien était anciennement sous pavillon colombien, qu'il fut capturé par les Raïs qui ignoraient tout de ce pavillon. Amené à Alger, il fut armé pour la course.

(44) A.C.C.M. série M R 46.1.41. (Voir le document y afférent).

(45) A.N. Aff. Etr. Mémoires et Documents, t. III (1828). Lettre du 29 février où le diplomate accuse les deux officiers d'insouciance.

(46) Navires et cargaisons se trouvaient encore dans les ports marocains en 1832 et les dépérissement en fit tomber le prix.

(47) Lettre du conseiller d'Etat, préfet, à la chambre de commerce, le 29 juin 1829.

(48) Lettre du juillet 1829.

(49) Lettre du 4 avril 1829.

(50) A.C.C.M., série M R . 46.1.41.

(51) «Au Roi et aux Chambres», pp. 82-83.

(52) A.N. Aff. Etr. Mémoires et Documents, t. III (1828). Note du 19 janvier 1828.

(53) Collet mourut le 20 octobre 1828 et La Bretonnière lui succéda.

(54) Nettement, Histoire... p. 162.

(55) Lettre du 20 septembre 1827, dans Nettement, Histoire...

(56) Amiral hollandais (1607-1676). Il arrêta la flotte franco-britannique en Zélande en 1671.

(57) L'Algérie pittoresque, II, 11.

(58) Zahhâr seul exprime le mécontentement des soldats qui, exténués par l'effort fourni, «souhaitaient la victoire de l'ennemi pour en finir», et la situation des citadins qui «n'en pouvaient plus» ou bien parle d'un complot ourdi contre le Dey à Sidi Bennour à Bouzaréah... (mudhakirât pp. 164-168).

NOTES

(1) Grammont, Histoire d'Alger... pp. 390-392; Ch. A; Julien, Histoire de l'Algérie comtemporaine, pp. 21-26.
(2) Nettement, Histoire de la conquête d'Alger Paris-Lyon, Lecoffre, 1856.
(3) Dont la très louche affaire du réglement des créances Bacri et Bouchnaq, les puissants négociants juifs d'Alger.

On relève dans le mémoire de Saint Martin, rédigé en 1847, ce qui suit: «La justice dans ces contestations était, il faut en convenir, du côté des Algériens. Les decrets violents du gouvernement impérial contre le commerce anglais et la navigation des neutres ainsi que le refus ou tacite ou formel d'exécuter les clauses du traité du 17 décembre 1801 qui rendait les deux gouvernements français et algérien solidairement responsables des créances réciproques de leurs sujets... furent les causes de ces dissensions. Le refus constant que faisait la France de donner attention aux réclamations bien ou mal fondées des négociants de la maison Bacri, avait fini par aigrir la Régence. Les Algériens hors d'état d'obtenir justice se la firent violemment». (A.N.Aff. Etr. Mémoires et Documents 1825-1830, t. 11). -
(4) Pierre Deval fut consul à Alger du 20 août 1815 au 11 juin 1827. «Il était, écrit Ch. A. Julien, unanimement considéré dans les ports méditérranéens comme un homme taré qu'on pouvait à bon droit suspecter. Agé de cinquante cinq ans, il avait une longue expérience des pays musulmans... Il avait acquis plus de souplesse, d'humilité intéressée et de sens des intrigues que de capacités diplomatiques. A Alger on le tenait pour un proxénète, un homme assez peu soucieux du droit des gens» (Histoire... p. 24).
(5) A.C.C.M. Série M R. 46141. Lettre à M. Le Président du conseil du commerce à Marseille.
(6) A peine Paris s'était-il manifesté que le souverain pontife s'empressa d'ordonner que les navires français fussent admis et traités desormais dans les ports romains au même titres que ceux de ses sujets.
(7) Le consul exigeait le respect du pavillon papal au mépris de l'ordonnance du 3 mai 1781 interdisant aux consuls de «recevoir aucune commission ou mission de puissances étrangères».
(8) A.N. Aff. Etr. Mémoires et Docuents, 1825-1830, t. 11.
(9) Voir l'article IV du traité franco-algérien du 7 septembre 1719.
(10) A.C.C.M. Série M R. 46141. 19 août 1826.
(11) Sur les travaux entrepris à La Calle, Nettement, Histoire... p. 143-144. On éleva de véritables forteresses dotées d'artillerie et avec une présence d'officiers et de soldats. On raconte que le Dey s'écria» qu'il ne souffrirait jamais un seul canon infidèle sur le territoire algérien.
(12) A.N. Mémoires et documents, t. 11. Lettre au Comte Chabrol, ministre de la Marine.
(13) Zahhâr, mudhakkirât, p. 170.
(14) Allusion à la guerre entre les Etats-Unis et la Régence de Tripoli et au blocus de cette ville 1801-1805.
(15) A.N. Aff. Etr. Mémoires et Documents, t. 11.

Rappelons que la ville avait connu d'autres blocusdont celui des Anglais en 1824. Néal avait décidé alors que «lesportsde la Régence ont été déclarés en état de blocus et que toute communication avec ces ports se trouve interdite». Entreprise en mars, la tentative fut levée le 26 juillet de la même année.
(16) Lettre du Dey au Grand Vizir à Istambul. Trad. et publ. E. Kûran, R.A. 1925, pp. 188-195. Le document est dâté du dernier jour de jumâda-al-ûlâ 1243 de l'H. (19 décembre 1827).
(17) «Je m'étonne, aurait dit Husayn, que les Français ne me demande pas aussi ma femme!».
(18) A.C.C.M., Série M R. 46.1.41.
(19) Au terme de l'article XII de la convention du 8 Vendémiaire, an IX, entre la République française et les Etats-Unis; l'entrée des ports ennemis de l'une des deux nations, bloqués, assiégés ou investis par ses forces, est absolument interdite aux bâtiments de toute espèce de l'autre et vice versa. (Lettre du chargé du service d'Etat major au citoyen Dolier président du conseil de commerce à Marseille, 21 Pluviose, An X). A.C.C.M. Série M Q 5-2 Algérie an X-1814.

Signalons que le 15 octobre 1803, le blocus de Tripoli reprit et le 18, le consul des Etats-Unis à Marseille notifia la mesure au préfet maritime des Bouches du Rhône. Dès le 23 l'affaire fut évoquée par la Chambre de Commerce qui dénonça» le funeste effet du blocus sur le commerce des neutres».

Répondant à l'indignité des Marseillais (qui ne seront pas indignés en 1827)Talleyrand soulignait, le 29 février 1804, que «le droit de blocus était reconnu aux Américains par leur conventions avec la France et d'une façon générale par les conventions maritimes qui règlent en temps de guerre, les rapports des neutres avec les puissances belligérantes.
(20) Zahhâr, op. cit. p. 163.
(21) Le 26 septembre 1827, les corsaires d'Alger capturèrent deux bâtiments espagnols qui furent ramenés à Alger et les équipages faits prisonniers. (Modica, Le rôle du comte Dattili...B.S.G.A., 1914, p. 82).
(22) Plantet, Correspondance des Beys de Tunis avec la Cour de France, III, p. 634. Lettre du 3 juillet 1827.
(23) Plantet, op. cit. Lettre du 5 juillet 1827.
(24) Dès juillet 1827, La France plaça en Méditerranée des forces navales bien supérieures à celles qu'elle avait coutume d'y entretenir:

L'escadre du Levant: 23 bâtiments dont 4 vaisseaux, prêts à opérer sous le commandement du contre amiral de Rigny; une division navale de bâtiments, bientôt portée à 12, s'établit en croisière devant les ports de la Régence d'Alger sous les ordres du capitaine de vaisseau Collet; 6 autres

septembre 1827, le Dey fit lire au consul sarde, chargé des intérêts français, un article de la Gazette de Génova et dans lequel il était question des effectifs de la flotte française de guerre. On parlait de deux cents unités! Il n'echappa à personne que l'article, visiblement inspiré, tendait à intimider les dirigeants algériens.

b) L'occupation d'Oran et de Bône. On était en effet à la recherche d'une solution de rechange. Le 15 mai 1829, une commission de marine réunit trois vices amiraux, un contre amiral, un capitaine de vaisseau, le secrétaire général de l'Amirauté ainsi que des fonctionnaires civils et militaires. Le consul Deval y assistait. Présidée par le Ministre de la marine et des colonies, la réunion avait à son ordre de jour l'occupation d'Oran ou de Bône par la force. Un succès pouvait mettre fin à cette interminable guerre d'Alger.

On prétendait alors qu'avec deux mille hommes à peine l'occupation d'une de ces deux villes était possible. Les stratèges préféraient une action contre Bône. Les mobiles économiques n'étaient pas absents dans le choix. Cependant le projet fut rejeté par le Ministre des Affaires Etrangères qui s'en tenait à la négociation avec Alger pour clore le différend(61).

c) La négociation. Le choix de l'envoyé se porta sur la Bretonnière pour mener à bien les pourparlers. Chargé d'une mission auprès du Dey, il devait arriver à une transaction avec ce dernier, la France étant revenue sur ses première exigences. Mais quand l'envoyé special se rendit le 31 juillet 1829, à l'audience accordée. Le Dey, les marques d'hostilité l'attendaient sur son chemin. Trois chaloupes provenant des frégates françaises L'Iphigénie et La Duchesse de Berry, débris du drame du 18 juin(62), furent placées sur le passage de la délégation. De jeunes Algériens frappaient dessus afin d'attirer l'attention des Français sur ces objets(63).

10 " L'incident fatal:

Le 2 août 1829 les propositions françaises furent rejetées. Le 3, vers midi, le vaisseau parlementaire La Provence essuya un tir des batteries du Fanal, puis une canonnade à boulets(64).

L'Allemand Pfeiffer nous en donne les raisons: «Le vaisseau français dériva vers les grands forts, trois fumades faites selon l'usage avec de la poudre brulée à l'air libre lui donnèrent inutilement avis de s'éloigner ou de mettre en panne sans qu'il répondit à cette invitation et que ce fut alors que commeça la canonnade»(65).

Mais qui, donna l'ordre de tirer? Sur ce point plusieurs versions s'affrontent. L'Algérois al Zahhâr affirme que le Pacha (Dey) ordonna à Wakîl al Harj et au Bach tobjî de tirer sur le vaisseau si dans un délai de deux heures il était encore au port. Le temps imparti s'étant écoulé, on le bombarda (66).

Par contre Hamdân Khodja dit que le Dey est absolument étranger à cet incident(67) mais l'historien ajoute que si le chef de la Régence avait nommé à la tête de la marine un homme digne de ce poste, la guerre n'aurait pas eu lieu.

Le consul de Sardaigne fit supporter la responsabilité du grave incident à deux hommes: Wakîl al harj» l'homme le plus ignorant, le plus acharné contre les Français et contraire à la paix ainsi que tous ceux qui l'entourent à la marine». Le deuxième est le consul de Naples» qui guidait le Dey par ses intrigues (...) La conduit infâme de cet indigne employé pendant cette négociation à mettre les plus grands obstacles au progrès de l'heureuse réussite qu'on déjà espérer (...) puisque j'avais presque décidé le Dey à envoyer l'officier de marque à Paris(...) Je ne puis concevoir comment le cour de Naples ait pu confier une charge aussi honorable à un homme aussi obscur que grossier car il était pêcheur de corail».

Il y avait aussi l'Angleterre qui veillait et soufflait sur le feu. Ecoutons le diplomate sarde: «Il arrive très fréquemment des bateaux de guerre anglais et par une fatalité inconcevable ils précèdent toujours de près les parlementaires, ou bien, ils se trouvent aux époques où il y a quelque opération importante à la négociation. Le Pilorus, destiné à croiser dans toutes les côtes d'Afrique, commandé par le capitaine Guin, se trouve ici à l'ancre depuis avant hier au soir. Le commandant est à terre et il s'arrêtera sept à huit jours. Ils apportent des nouvelles obscures».

Pendant qu'on préparait la solution militaire, le blocus n'était au juste qu'une entreprise d'attente. Puisque Alger s'était montré encore une fois imprenable, il fallait se décider à son investissement du côté de la terre. C'est pourquoi le blocus, commencé le 16 juin 1827, devait prendre fin ce 14 juin 1830, le jour du débarquement à l'ouest de la capitale.

On s'était posé la question sur les possiblités qu'avait le Dey de rompre à son avantage la longue présence française devant Alger. La chose aurait était impossible, le gouvernement ayant tout concentré dans la capitale: navires arsenaux, établissements maritimes, dépôts, canons et munitions. Il n'avait pas su ou voulu exploiter les avantages des autres rades et ports du pays. Bougie offrait un bon mouillage et une position telle qu'on pouvait, suivant les Anglais, y construire un second Gibraltar. Les ports d'Oran et de Mars al Kabîr disposait de précieux atouts: rades, forteresses et arrière pays riche. Mais ces points étaient mal entretenus et sans infrastructure.

D'autre part, un Dey entêté de son droit et apparement soutenu par l'Angleterre «attendait avec patience que la tentative navale échouât comme toutes celles qui l'avaient précédée»(68). Malheureusement la guerre passive devait céder la place à une autre plus musclée !

Joseph» et du «Mont Blanc» de Murlaix». Quant au capitaine Hervé, terrorisé à la simple apparution d'une silhouette, il quitta lâchement son navire en abandonnant son équipage... et la silhouette s'avéra un garde côte espagnol!

7 " Des résultats décevants

Plus le blocus durait, plus le mécontentement se généralisait en France. Une pareille entreprise était jugée avec sévérité. Le coût de l'opération était un argument contre. «De tous les moyens, s'écriait Laborde, ainsi que l'avait annoncé le discours de la couronne en 1827, le moins efficace était, sans doute, celui qu'on a employé, le système du blocus qui, depuis trois ans, coûte à la France plus de vingt millions sans résultat. En effet, si on s'approche trop de la terre, on court le risque en un moment d'être affalé à la côte et brisé sur les rochers. Si on tient trop la haute mer, il n'y a plus de blocus(51).

Le premier but assigné au blocus était d'intercepter toute communication entre la mer et les ports assiégés de la Régence. Il n'était pas atteint. «Des corsaires, sortis d'Alger, constatait un responsable, se sont répandus impunément dans la Méditerranée et ont déjà fait à notre commerce des prises qu'ils sont allés vendre à Oran d'où ils paraissent être rentrés tranquillement pour en sortir de nouveau!».

A la déception des Français, s'ajoutait celle de la Chrétienté. Le début du blocus avait fait naître beaucoup d'espoirs en Europe, «le Saint Siège, la Toscane, l'Italie toute entière, attendaient les résultats avec anxiétè». Le blocus avait ranimé la confiance et l'espoir des Etats de là Péninsule. Mais voici que leur sécurité s'était évanouie «en apprenant que les corsaires algériens continuaient d'infester la Méditerranée.»(52) On ne comprenait pas l'inactivité de l'escradre dont les bâtiments éprouvaient des avaries. Les marins exposés aux maladies furent, les uns emportés par la mort(53), les autres démoralisés et affaiblis par un séjour éprouvant. «Pendant trois mortelles années, écrit Nettement, mener la même vie sur la même mer, se promener sur le même tillac, en vue de la même côte, avec les mêmes compagnons, savoir d'avance que le lendemain ressemblera au jour, comme le jour ressemble à la veille, c'est là pour des jeunes marins chose plus difficile que de braver les périls de la tempête ou les dangers de la guerreÇ(54).

Le commerce français fut touché directement. Les négociants de Marseille disaient que le blocus «n'a pour le Dey que des inconvénients bien moins graves que ceux dont nos armateurs se plaignent». Du petit Thouars affirmait qu'il n'y a pas eu de destruction de navires algériens parce qu'aucun n'a pris la mer, il n'y a pas eu de prise sur le commerce algérien parce que Alger n'a pas de commerce, le blocus n'a pas réduit le Dey parce qu'un blocus est inévitablement inefficace pour réduire Alger»(55).

Les responsables du blocus semblent avoir méconnu les remarques de l'Amiral Ruyter(56) consignées dans une de ses lettres: «Je suis d'opinion,

dit-il, que le dessein de tenir la ville d'Alger assiégée un an entier par eau, ne peut être éxecuté sans beaucoup de risques parce qu'en hiver, lorsque les vents viennent à se renforcer du Nord et à faire enfler la mer, les vaisseaux sont trop violemment battus des vagues et des brisans qui sont dangereux à cause du peu de profondeur. Ainsi on toujours à craindre les périls auxquels les Algériens mêmes furent exposés au mois de decembre 1662, car ils perdirent alors quatorze de leurs vaisseaux et sept prises qu'un vent forcé du Nord fit périr aussi bien au dedans du môle qu'au dehors».

Les résultats furent en fin de compte très maigres. Clossoles ne s'empêcha pas de dire: «Le blocus fatiga nos marins bien plus que les sujets de la Régence»(57).

8 " Les effets de l'opération sur le pays:

On ne peut nier que la Régence connut des entraves à ses échanges commerciaux. Le gouvernement vit ses revenus de la mer tomber sérieusement. Pour limiter la portée du blocus, on se retourna vers l'intérieur, on en tira les denrées indispensables à la vie de la capitale. La différence de valeur des objets importés sur ceux exportés restait en fin de compte en Algérie. Les campagnes répondirent dans l'ensemble aux besoins. Le commerce s'alimentait par le sud, par Tunis ou par le Maroc. On n'était point aux abois pour céder. Si le blocus a exacerbé la population de la ville(58), il ne l'a pas entrainée dans l'insurrection. Dans Alger on trouvait bien des produits européens transitant par Oran et Bône (Annâba) qui recevaient des navires anglais abordant de Gibraltar ou des bâtiments Italiens venant de Livourne(59).

Du côté de la mer, les choses se dégradaient pour la marine de la Régence. Le blocus permit, selon le Dey, «aux navires des brigands grecs, au nombre de plus de quinze, de croiser depuis Tripoli jusqu'au détroit de Gibraltar, attaquant et mettant en fuite les Musulmans(60).

A Oran la vigilence était molle. Alors que le brick L'Adonis se trouvait en mission de surveillance devant la ville, le capitaine Ropert réussit un coup de main audacieux. Le 14 mai 1828, il apprit par un navire toscan qui sortait d'Oran, qu'il y avait dans le port un navire de Marseille capturé sur la côte d'Espagne. Il fournit toutes les indications utiles permettant la prise du bâtiment. Aidé par le brick l'Alerte, le capitaine Ropert mon ta son opération et malgré l'alarme donnée par la garde du port, le bateau fut remorqué et ammené.

9 " Comment sortir de l'impasse?

L'absurde guerre avait de plus en plus d'adversaires en France. Pour en finir on envisagea d'autres solutions dans l'espoir de faire plier le Dey.

a) L'intoxication. Aujourd'hui on dirait la guerre psychologique. Par l'usage de faux bruits. de nouvelles alarmistes, de rumeurs de débarquement, on chercha à faire peur, à terroriser le Diwân et les dignitaires. Le 4

violence n'a causé aucun dommage à nos vaiseaux, seulement un homme de nationalité arabe a bu la coupe du martyr;nnous avons six blessés» tandis que, se basant sur des lettres parvenues de Tunis et des pays chrétiens, il signale, au sujet de l'ennemi, qu'un des grands capitaines de vaisseau amiral avait eu la main emportée par un boulet et en outre les pervers infidèles précipités dans le feu de l'enfer, les blessés transportés dans les hopitaux de Toulon seraient au nombre de cinquante six».

Cependant, malgré les prouesses des Raïs, le demi echec de la marine affecta profondément le Dey qui, dit-on, menaça ses capitaines de leur couper la tête. Le consul sarde trouvait que l'artillerie n'était pas à la hauteur. Elle aurait été servie par des gens sans compétance, «des marchands connaissant à peine le maniement des armes. D'autre part, les divergences et les rivalités qui divisaient les responsables, ne furent pas pour gagner un combat(41).

Le second accrochage eut lieu le 25 octobre 1827. Quatre vaiseaux de la Régence, armés chacun de six pièces de canon chacun de soixante hommes se trouvèrent en face de cinq vaisseaux ennemis, la Provence, La Constante, L'Alerte, La Champenoise et la Flore. Ces bâtiments donnèrent la chasse aux algériens. Cependant malgré le feu protecteur des batteries du Cap Caxine, deux unités furent détruites et deux autres s'échouèrent sur la côte(42).

6 -- Un blocus sans rigueur.

L'année 1828 fut riche en activité corsaire. Le capitain Paris Gaëtani, du brig sarde L'Union, parti de Gibraltar le 29 janvier, arriva à Dieudonné le 22 février. Mais ayant relâché à la Roquette, près d'Alméria, il y trouva mouillés cinq bâtiments français et il fit à son insu la découverte suivante: un bâteau de construction valencienne «mâté et voilé de même» vint mouiller près du brig L'Union. L'officier put voir que ce bâteau avait à son bord «une cinquantaine d'hommes, tous habillés à la turque». Il se rendit alors avec son canot à bord du brigantin «Le bon Barthélémy» pour avertir les deux frères Roux que le bâteau mouillé à leur coté... était un corsaire algérien. On alerta le capitaine du port et les commandants des autres bâtiments français. Il fut question de réunir les cinq équipages pour l'attaquer, mais la proposition du capitaine Paris Gaëtani ne fut pas retenue(43).

Plus on croyait les Algériens étouffés par le blocus, plus ces derniers se montraient entreprenants. N'a-t-on pas vu treize capitaines de navires adresser à la chambre de Commerce de Marseille, une pétition dans laquelle ils exposaient que la crainte des corsaires algériens «s'oppose à leur départ qu'ils ne veulent effectuer que sous escorte». Ils suppliaient la Chambre «d'intercéder pour eux auprès de M. le commissaire général de la marine pour que cet administrateur expédie à Marseille au plus tard le 5 juillet, un navire de guerre qui puisse les convoyer jusqu'à Gilbraltar»(44).

Dans ce long conflit, Mahon jouait un rôle de relai à la marine française. Les navires reliant Marseille à la rade d'Alger y passaient. Il y avait aussi des

dépots de vivres et les bâtiments affectés au blocus y venaient régulièrement s'y ravitailler. C'est là que les Raïs les attendaient. Le consul de France dans cette ville, s'adressant à son ministre, lui fit le récit détaillé de la présence d'unbâtiment algérien dans ce port et l'incapacité de deux vaisseaux français de s'en saisir. Armé de six canons et portant soixante hommes d'équipages, commandé par 'Arif Raïs, il était sorti d'Alger depuis 25 jours... A cause du temps, il se refugia à Mahon. Le consul en avertit deux commandants qui s'y trouvaient et on prit toutes les dispositions nécessaires pour le «clouer» et pourtant... il quitta les lieux sous le nez des officiers chargés de le prendre... Puis on le repéra près des côtes de Sardaigne. Un brick français, l'Alerte, quitta la rade d'Alger et partit à sa recherche. Il ne le trouva jamais!(45)

Le 29 août, eut lieu la prise du brick «l'Amitié» de Saint Brieuc, escorté pourtant par le navire «la Fauvette», à l'ouest de Cadix, dans les circonstances que voici: «parti de Marseille vers l'océan, il fut attaqué par deux balancelles algériennes qui venaient de capturer deux bricks «l'Albine» et la «Marie Joséphine». La première prise fut conduite à Tétouan, la seconde à Larache (al 'arâ'ich). Les bricks étaient «richement chargés».(46) Un mois après, «le Solitaire» et «l'Adèle» tombaient à leur tour près de Palma. Conduits dans ce port, il furent déclarés de bonne prise par les autorités espagnoles.

L'inquiétude gagna les autorités maritimes de France. Les dépêches signalaient les unités algériennes ça et là et même à «deux lieues environ au sud du cap Couronne»(47) Et tout le monde alertait tout le monde!

Le commandant Blanchard du brick français «la Jeune indienne» venant de Saint Pierre (Martinique) et à peine arrivé dans le cap de Gate, il était déjà mis en garde par le capitaine d'un brick du Roi» de se méfier d'une balancelle corsaire algérienne»(48). La hantise du chebec était si grande qu'on le voyait là ou il n'était pas. Dans une lettre, le commandant de la frégate «l'Euphigénie» fait le récit d'une drôle de méprise: un bâtiment à trois mâts, vu par l'avant au mouillage de Bougie venait d'être signalé comme pouvant être une corvette algérienne. L'Ephigénie et le brick «le Voltigeur» furent envoyés vers ce point et au moment où toutes les dispositions étaient prises pour l'enlever ou le détruire au mouillage, même sous les batteries de la ville, cette corvette... s'était transformée en... navire marchand toscan!(49).

Quant à la flotte retenue dans le port, les craintes qu'elle inspirait n'étaient pas les moindres. On s'attendait à des sorties ravageuses surtout à la faveur de la nuit. Le préfet maritime de Toulon, préveneant le commissaire de la Marine à Marseille lui dit dans un message: «Le commandant du blocus d'Alger me prévient que deux corsaires de cette Régence sont prêts à sortir du port. Comme il serait impossible qu'ils parvinssent à tromper la vigilance de nos croiseurs, prévenez en la chambre de commerce pour qu'elle engage les bâtiments de convoi à ne pas s'écarter de leur escorte».(50) Les craintes finirent par gagner de nombreux capitaines qui, au moindre soupçon, abandonnaient leurs navires. Ce fut le cas notammant de ceux du «Saint

nombre considérable de navires «qui y chargeaient de l'huile et des laines... se trouvaient compromis par la guerre d'Alger et surtout après qu'il est sorti des corsaires de cette Régence».

Ce n'était pas seulement dans leurs déplacements que les bâtiments français couraient le risque; une lettre de négociants nous l'apprend: «Ils sont en péril même à l'ancre parce que les rades du royaume de Tunis sont très ouvertes et sans défenses. Les corsaires voisins qui se glissent à la côte pourraient impunément y exercer leurs rapines»(27).

On chercha, à partir de la rade d'Alger et de Toulon, à prévenir le desastre, car le desarroi dans le commerce était très grand. «La Faune», commandée par le capitaine Fauré arriva d'Alger... «La Vestule prit la croisière du Cap Bon tandis que «La Marie Thérèse ralliait la division d'Alger, dit un message du consul Guys au baron de Damas»(28). Collet dépêcha «L'Eclipse», un brick goëlette qui devait «être suivi d'un autre bâtiment pour protéger le commerce de Tunis sous les ordres du comte d'Oysonville»(29). Pour sa part le commandant de la marine à Toulon, désigna quelques unités de guerre pour croiser dans les eaux tunisiennes afin d'en «empêcher l'approche aux corsaires». Les navires marchands devaient être escortés jusqu'à Marseille. Cette mesure était jugée indispensable à la sûreté du commerce et devait relever le courage des marins qui ne voulaient plus se hasarder en Barbarie.

Les Raïs de la Régence déployèrent une action si intense que l'on rencontrait partout les fameux corsaires.

Le capitaine Ch. Lefée, de Rouen, commandant le brick «L'Edouard», signalait à son arrivée à Marseille que «se trouvant dans le détroit de Gibraltar, le 5 Août, vers sept heures du matin, étant par 36, 40 de lattitude Nord et de 4,50 de longitude Ouest, un brick-goëlette de guerre dont l'équipage était costumé à l'algérienne, a passé près de lui courant vent arrière... qu'il y avait en vue plusieurs autres navires parmi lesquels se trouvait une frégate de guerre»(30).

Dans les parages de Tunis, la surveillance était stricte. Un navire français, «L'Aimable», chargé d'huile pour Marseille fut capturé. Reconduit à Tunis, son chargement fut vendu aux enchères(31). Alors le consul de France se trouva contraint d'arrêter les départs pour la cité phocéenne jusqu'à l'arrivée de l'escorte militaire. Cependant l'effort militaire de la France dans le secteur de Tunis ne semble pas avoir porté ses fruits comme le laisse voir la correspondance du comte de Chabrol: «La goëlette La Cigogne est en route pour aller à Tunis seconder La Marie Thérèse. Mais les felouques algériennes trouveront toujours moyen de tromper la surveillance de nos bâtiments de guerre»(32).

5 -- Deux batailles navales devant la capitale

L'affrontement entre les deux marines devenait inéluctable. Le premier

combat eut lieu le 4 octobre 1827. Ce jour coïncidait avec la célébration de la fête du Mawlid al nabawi.

Deux récits de témoins nous donnent d'amples détails sur cet épisode du blocus(32). Le premier est celui du Dey lui-même rapporté dans sa longue lettre au Grand Vizir. «Nous avons équipé, dit-il, nos onze petits vaisseaux de guerre qui se trouvaient à l'intérieur de notre port, composés d'une vieille frégate et de bricks pour le reste(34). Le intérieur de ces navires fut bourré de guerriers musulmans(35). La vielle du douzième jour de rabi' al awwal de l'année actuelle de la Victoire, après le coucher du soleil, plaçant leur confiance en Dieu et demandant l'intercession du Prophète de Dieu...

Ils ont pris la mer(36) et le lendemain, jour sacrée de la naissance du Prophète, les navires des Infidèles; ont été en vue. Le combat dura quelques heures après que l'ennemi, craignant d'être enveloppé et soumis à l'abordage, fit voile en toute hate à la rencontre des Algériens. «Bien que nos vaisseaux, ajoute le Dey, semblables à des dragons à sept têtes les aient attaqués, la volonté de Dieu Très Puissant ayant oposé un vent défavorable, nos vaisseaux ont dû rester au rivage et ne sont parvenus qu'à grand efforts dans les eaux de l'ennemi avec lesquel ils se mesurés. Sur le champ, ils ont allumé le feu de la guerre et par un duel d'artillerie de plus de trois heures ils surface de la mer en une tournaise».

Pfeiffer, chirurgien allemand au service du Dey, fut lui aussi, le témoin de cet engagement: «Les navires barbaresques dit-il, entourèrent les français et une lutte acharnée commença. Quatre batiments algériens attaquèrent en même temps la frégate, deux autres canonnèrent la corvette, le brick eut à se défendre contre d'autres unités.... Les Musulmans déployèrent une véritable fureur... Le feu était si vif qu'une épaisse fumée enveloppait les deux escadres et que dans ce nuage plein de tonnerre, on voyait seulement palpiter comme des éclairs la flamme des canons. En de rares intervalles, lorsque les équipages faisaient une manoeuvre et que le vent emportait la blanche vapeur, on découvrit les flottiles déjà criblées de projectiles»(37).

La foule des Algérois, ceux qui n'avaient pu se porter volontaires, suivaient anxieux sur les terrasses, les péripéties du combat. D'après Pfeiffer, un seul navire montra une vaillance et une habilité supérieures. C'était une goëlette commandée par le Raïs 'Umar (qui) eut l'adresse de couper le vent aux Français après qu'il fondit sur leur goëlette et, la maltraitant d'une façon très dure, abattit son grand mat et rompit son gouvernail en deux(38).

Le hardi capitaine allait l'abordait quand l'amiral français donna le signal du départ(39). La frégate prit à la remorque la goëlette en mauvais état. Puis les navires se mettant l'un derrière l'autre, filèrent vent de coté dans la direction de la haute mer et furent bientôt hors de vue. A leur tour les bâtiments algériens regagnèrent le port (40) après avoir beaucoup souffert. Les équipages avaient perdu du monde. Le comte d'Attali avance «vingt morts et quarante blessés du coté algérien... et les deux plus gros bâtiments fort endommagés... «Le Dey par contre, affirme qu'une bataille de cette

ce 13 juin: «Leurs navires de mauvais augure, un vaisseau de deux ponts, deux frégates et une corvette apparurent à la surface de la mer et leur goëlette qui était dans le golfe leva l'ancre et se joignit à eux. Le lendemain, une lettre fut envoyée à leur amiral avec demande de réponse dans les vingt quatre heures... Cette lettre demandait d'arborer le drapeau français à la Qasba... et de hisser au dessous de lui l'étendard de l'Islam et de la même façon à la tour de Gueubekli, place principale de la forteresse impériale dont la renommée est universelle. Il fallait en outre tirer cent coups de canon pour l'annoncer, de nos tours, à tout le monde, et que les chefs de l'Odjaq impérial et les grands de l'arsenal, demeure des combattants pour la foi, se rendissent à leurs maudits navires pour présenter des excuses, et aussi d'autres conditions inacceptables qui auraient porté préjudice à l'honneur de l'Islam».

Ces exigences, jugées par le Dey «indignes d'hommes d'Etat intelligents mais ressemblant aux propos des fous internés dans les maisons de santé» furent rejetées(17). Sans tarder, la marine algérienne tenta d'enlever le brick «Saint Joseph» et la galiotte du Roi «La Torche»(18).

Le 16 juin, la rupture était officiellement consommée. Le but recherché par la présence de l'escadre était de «faire naître la misère et la famine, de provoquer une réaction et des mouvements populaires avec chance de renverser le Dey ou de le rendre plus traitable».

Le problème des pavillons neutres se posa dès le début du blocus. Pouvaient-ils, sans risque entrer dans le port d'Alger?

L'inquiétude des maisons de commerce qui avaient des relations avec la Régence, fut grande. Certains pays, tenus par des traités de fournir au Dey des presents ou des armes en contre partie de la bonne harmonie avec Alger. se demandaient comment honorer leurs engagements. Des consuls en poste ici pouvaient-ils recevoir les plis habituels?

Le vice amiral, préfet maritime de Toulon, devait dissiper par une note le moindre doute à ce sujet. «Le blocus, disait-il, a été officiellement signifié à toute les puissances dès le 7 juillet 1827». Le problème des neutres était déjà réglé depuis le début du siècle(19).

4 -- La riposte du Dey

Devant une action aussi téméraire, la décision du gouvernement fut aussi dure que rapide.

a) A l'est, on ordonna la destruction des établissements français de la Calle et de 'Annâba. Les fortins furent rasés au niveau du sol et leurs occupants eurent juste le temps de s'embarquer avec leurs armes et matériels à bord de deux navires de Toulon.

Les postes de la côte furent armés avec ordre de tirer sur les navires ennemis qui tenteraient de s'approcher .

b) C'est à Alger que les décisions les plus importantes furent prises Comme on craignait un debarquement la cavalerie fut renforcée et renforcée et

portée à 60.000 hommes. Yahya agha supervisa les dispositions prises dans les forteresses. A Sidi Fredj, il fit élever un bastion doté de douze canons. Il renforça la garde avec les nouveaux soldats. Les canonniers furent requis de passer la nuit dans les forteresses pour faire face à toute éventualité(20).

La situation de la marine algérienne était délicate; une partie était en opération, depuis 1826, en Méditerranée orientale «au service de notre maitre fortuné» en guerre contre les Grecs comme disait le Dey. On préparait en effet Navarin. Une autre partie sillonnait la mer dans la guerre de course(21). Mais le gros de la flotte était ancrée dan le port d'Alger quand l'escadre française envahit la rade. Seules les unités légères furent armées pour la surveillance et pour tenter de briser le blocus.

Cette situation rendit le baron de Damas optimiste. Sa lettre au consul à Tunis, le 3 juillet 1827, traduit cette confiance: «Tous les armements du Dey se trouvent resserrés dans ce port à l'exception d'une frégate et d'une corvette qui avaient été envoyées à Alexandrie (...) Dans tous les cas, les corsaires d'Alger se trouvent maintenant dans l'impossibilité de nuire à notre commerce et à celui des autres nations»(22).

On passa l'été à s'organiser des deux cotés et à riposter.

Du coté français on voulait bloquer la flotte devant Alger mais aussi faire la chasse aux batiments algériens dans différents secteurs de la Méditerranée. Le consul Guys fit savoir au baron de Damas que «la frégate Marie Thérèse commandée par le capitaine Fouque arrive d'Alger. Elle va croiser sur le cap Bon pour s'emparer des deux batiments algériens qui doivent y passer en revenant du Levant(23).

c) La chasse aux navires français :

Le blocus, loin d'arrêter la guerre navale, ne fit que l'étendre en Méditerranée où les forces françaises n'avaient jamais été aussi importantes(24). La chasse à ces dernières fit alors rage.

Des bâtiments algériens réussirent à gagner le large avant et pendant le blocus. Un groupe de quatre unités, armées de quatre à six pierriers, quitta le port dans la nuit du 18 au 19 juin sans que la division ennemie s'en soit aperçue et menaça «le commerce et les propriétés des Français»(25).

Dès le mois d'août 1827, deux navires furent capturés dans les eaux d'Oran et leurs équipages faits prisonniers. On revint alors au système des convois dont le coût et l'inefficacité furent étalés au grand jour.

Un avis affiché à la Bourse de Marseille, le 6 août, avertir les bâtiments destinés pour Ajaccio «qu'ils doivent se trouver à Toulon le 8, parce que ceux de Bastia y sont déjà rendus et qu'il n'y a qu'une escorte pour tous» tandis que ceux arrivant de Terre Neuve et entrant en Méditerranée «doivent attendre à Cadix l'escorte dont ils auront besoin pour naviguer avec sécurité»(26).

Les négociants et armateurs de Marseille ayant dans la rade de Tunis un

fut le tour d'un autre appartenant également au Pape. Conduits à Bône ('Annâba), ils furent déclarés de bonne prise et leurs équipages retenus prisonniers. A cette époque, Alger ne reconnaissait pas le pavillon pontifical.

Le chef de l'Eglise sollicita l'intervention de la France aussi bien en 1825 qu'en 1826 afin de récupérer batiments, cargaisons et matelots. Les pressantes démarches de la France étaient intéressées(6). Cependant le refus du Dey fut catégorique et les demandes du consul Deval restèrent sans suite(7).

On avait prétendu que le chef de la Régence confondait alors le Saint Siège et l'Ordre de Malte. ce qui parait innaisemblable: plus d'une fois les dirigeants d'ici eurent affaire au Vatican notamment au sujet des captifs algériens retenus à Livourne ou des missionnaires de la Propagande Fide. La cause d'un tel refus s'explique plutôt par l'attitude constamment hostile des Papes organisateurs de croisades contre la Régence(8) Et ce n'est pas un Dey comme Husayn qui oublie les multiples expéditions dictées et bénies par le chef de la Chrétenté.

b) La visite des bâtiments français :

Deux navires français, «Le Gustave» et «La Conception» revenaient de Corse et se rendaient à Toulon, avec des dépêches du Roi, quand ils furent arrêtés et visités par la marine algérienne conformément aux clauses des traités signés(9). Aucun incident ne fut provoqué par l'opération. Le message du commandant de la marine à Toulon, adressé à Marseille, ne laissait rien percevoir de reprehensible dans le comportement des Raïs: «Je suis informé, dit l'officier, qu'un des bateaux poste de la Corse, le Gustave, a été visité par une division algérienne qui parait avoir établi sa croisière des côtes d'Espagne aux côtes d'Italie et qui a annoncé avoir reçu l'ordre de visiter tous les bâtiments de quelque nation qu'ils soient afin de s'assurer s'ils n'ont pas de Grecs à bord. La visite qu'a reçue le Gustave a été faite avec tous les procédés convenables, mais comme elle doit occasionner à ce bâtiments une quarantaine assez longue, j'ai cru devoir vous en donner avis...»(10).

Le consul de France et le commandant Fleury entreprirent alors des démarches auprès du Dey lequel avait beaucoup de choses à dire à ses visiteurs. Ils était furieux contre les agissements des Français sur la côte est du pays malgré les accords conclus sur le commerce et la pêche du corail(11). Alger y voyait un dessein hostile et une violation des traités. Seuls le temps et les circonstances étaient défavorables à une action armée, même si le vice consul en poste à Bône, le sieur Alexandre Deval, neveu du consul à Alger, lançait depuis 1825, défi sur défi aux autorités du pays. C'est pourquoi les discussions tournèrent à l'échec.

2 " Les réactions de la France :

Devant la ferme détermination du Dey et son refus de restituer les batiments du Pape, on prit outre Méditerranée, dès novembre 1826, la décision d'envoyer une force navale «pour intimider le Dey et l'ammener à une attitude conforme au désir du gouvernement». Et si les résultats restaient encore négatifs, il conviendrait de «bloquer le port d'Alger et s'emparer des navires algériens qui tenteraient d'y rentrer».

La France attendait de son escarde qu'elle paraisse devant Alger le plus tôt possible «afin d'y prévenir, dans l'état avancé de la saison, le retour des armements que le Dey a envoyés en course et afin de ne pas manquer aussi l'occasion de s'emparer de quelques uns de ces bâtiments»(12). Rappelons que la flotte algérienne était à cette date divisée en trois parties: la première ancrée au port, la seconde sillonnait les mers dans le cadre de la course et la troisième engagée aux côtés des Ottomans dans leur guerre contre les Grecs en révolte.

Malgré le danger, le Dey était confiant:il mit à la disposition des pélerins désireux de se rendre à la Mecque, trois bâtiments de guerre sous les ordres de Mustapha Raïs pour les convoyer jusqu'à Alexandrie(13).

A Paris on attendait beaucoup de l'apparition des vaisseseaux du Roi et des menaces proférées pour obtenir une satisfaction et on espérait aussi que «l'exemple encore récent du Bey de Tripoli produira un salutaire effet sur le gouvernement algérien...»(14)

Le recours au blocus était-il la seule solution pour faire ceder Alger? Il faut admettre que les nombreux bombardements de la capitale depuis le XVIème siècle n'avaient donné que de faibles satisfactions. D'un autre côté une attaque de vive force contre une ville efficacement défendue, n'aurait été possible «qu'avec d'assez grandes difficultés et très peu de probabilités de succès». Restait donc le blocus avec l'espoir de détruire les armements de la Régence. Cependant si la décision fut prise en novembre 1826, son exécution ne connut un début qu'en juin 1827. C'est qu'en hiver, le blocus d'un port comme celui d'Alger était à l'époque très difficile et «souvent il faudrait l'abandonner pour ne pas s'exposer à des dangers sans compensation». Une autre considération avait retenu l'attention du conseil du Roi: la flotte algérienne hiverneait à Alger généralement pour ne reprendre la mer qu'au printemps et pour la surprendre, il fallait attendre le printemps(15).

3 " Le blocus

La première étape se situe en mai-juin 1827. Un mois après l'incident de l'éventail, une goëlette, entrant au port d'Alger, jeta l'ancre à l'intérieur de la rade. Suivant la règle établie, à l'arrivée des navires des Etats étrangers, le va et vient de leurs consuls à leurs navires avec la chaloupe du commandant du port était une pratique courante. Le consul Deval, s'étant rendu à ce bâtiment déclara qu'il n'en partirait pas et renvoya la chaloupe algérienne(16).

Le lendemain, le capitaine Collet arriva dans la rade à la tête d'une escadre, porteur d'un ultimatum. Ecoutons le Dey relater les évènements de

LES GRANDS DOSSIERS DE L'HISTOIRE
LE BLOCUS D'ALGER (1827 — 1830)

Par Moulay BELHAMISSI

Parmi les questions restées obscures à ce jour, dans le passé de notre pays, l'affaire du blocus de la capitale mérite d'être revue à la lumière des documents et des sources demeurées inexploités. Les historiens européens ou algérois n'ont fait qu'effleurer ou résumer les différents aspects de la crise(1) ou choisi la thèse défavorable au gouvernement d'Alger.(2) Aussi allons-nous, grâce à des recherches dans les Archives de la Chambre de Commerce de Marseille et du Quai d'Orsay, examiner les principaux épisodes de la grande tension entre la France et la Régence d'Alger.

1 — Les origines du conflit:

le refroidissement des relations franco-algériennes, puis la dégradation des rapports, suite à de nombreux malentendus et à la non résolution des problèmes posés(3) et suite aux agissements peu élégants du consul Deval(4), le tout aboutit, dès 1826, à une crise sans précédent entre les deux pays, laquelle crise conduira à l'expédition de 1830.

les prétextes de la rupture ne manquaient pas. Les historiens européens font du coup d'éventail le point du départ du blocus. En réalité deux affaires avaient déjà assombri le ciel franco-algérien.

a) La capture de deux navires romains:

La marine d'Alger avait mis sur des batiments appartenant au Pape de 1824. En août 1826, elle en arraisonna encore deux dans les conditions que décrit le consul de France à Civita Vecchia: «Une escadre algérienne de deux corvettes et deux bricks croise sur le mont Argental et vient de capturer sous pavillon français le vaisseau» françois de Paul», romain de quarante deux tonneaux, venant de Gênes à Civita Vecchia richement chargé»(5). Puis ce

Achevé d'imprimer en fevrier 1986
sur offset et Photocomposition de
l'imprimerie du Palais Tél : **64.08.23**
ALGER

باعث تحریر حروف و موجب تسطیر [illegible]

[illegible]

دروننده اولان محتاج وذوی الاحتیاج [illegible]

[illegible]

[illegible] ایصال [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بیورلدی ویرلمشدر که موجبنجه عمل اولنه

[illegible]

[illegible]